سلسلة تفسير القرآن
17

أبو القاسم الزّمخشري

الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

الجزء السّابع عشر

ندقيق
أسعد جمعة

دار كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
2024

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 – المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر: 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك: 978-9938-02-070-6

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع

أبو القاسم الزّمخشري

الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

الجزء السّابع عشر

سورَةُ ق

سورة ق

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا آيَةُ 38 فَمَدَنِيَّةٌ]
وَآيَاتُهَا 45
نَزَلَتْ بَعْدَ [الْمُرْسَلَاتِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[1]

الْكَلَامُ في ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[2] نَحْوُهُ في ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3]]ص: 1– 2] سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ، لِالْتِقَائِهِمَا في أُسْلُوبٍ وَاحِدٍ.

وَالْمَجِيدُ: ذُو الْمَجْدِ وَالشَّرَفِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ، وَمَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِمَعَانِيهِ وَعَمِلَ بِمَا فيهِ: مُجِدٌّ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ النَّاسِ، وَهُوَ بِسَبَبٍ مِنَ اللَّهِ الْمَجِيدِ، فَجَازَ اتِّصَافُهُ بِصِفَتِهِ.

قَوْلُهُ بَلْ عَجِبُوا: ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾[4] إِنْكَارٌ لِتَعَجُّبِهِمْ مِمَّا لَيْسَ بِعَجَبٍ، وَهُوَ أَنْ يُنْذِرَهُمْ بِالْخَوْفِ رَجُلٌ مِنْهُمْ قَدْ عَرَفُوا وَسَاطَتَهُ فيهِمْ وَعَدَالَتَهُمْ وَأَمَانَتَهُ، وَمَنْ كَانَ عَلَى

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .

صِفَتِهِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا نَاصِحًا لِقَوْمِهِ مُتَرَفِّقًا عَلَيْهِمْ، خَائِفًا أَنْ يَنَالَهُمْ سُوءٌ وَيَحِلُّ بِهِمْ مَكْرُوهٌ، وَإِذَا عَلِمَ أَنَّ مَخُوفًا أَظَلَّهُمْ، لَزِمَهُ أَنْ يُنْذِرَهُمْ وَيُحَذِّرَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَا هُوَ غَايَةُ الْمَخَاوِفِ وَنِهَايَةُ الْمَحَاذِيرِ، وَإِنْكَارٌ لِتَعَجُّبِهِمْ مِمَّا أَنْذَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْبَعْثِ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ –تَعَالَى– عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَعَلَى اخْتِرَاعِ كُلِّ شَيْءٍ وَإِبْدَاعِهِ، وَإِقْرَارِهِمْ بِالنَّشْأَةِ الْأُولَى، وَمَعَ شَهَادَةِ الْعَقْلِ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْجَزَاءِ؟!

ثُمَّ عَوَّلَ عَلَى أَحَدِ الْإِنْكَارَيْنِ بِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا﴾[1] دَلَالَةً عَلَى أَنَّ تَعَجُّبَهُمْ مِنَ الْبَعْثِ أَدْخَلُ فِي الِاسْتِبْعَادِ وَأَحَقُّ بِالْإِنْكَارِ، وَوُضِعَ الْكَافِرُونَ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ لِلشَّهَادَةِ عَلَى أَنَّهُمْ فِي قَوْلِهِمْ هَذَا مُقْدِمُونَ عَلَى الْكُفْرِ الْعَظِيمِ.

وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى الرَّجْعِ، وَإِذَا مَنْصُوبٌ بِمُضْمَرٍ، مَعْنَاهُ: أَحِينَ نَمُوتُ وَنَبْلَى نَرْجِعُ؟

﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[2]: مُسْتَبْعَدٌ مُسْتَنْكَرٌ، كَقَوْلِكَ: هَذَا قَوْلٌ بَعِيدٌ. وَقَدْ أَبْعَدَ فُلَانٌ فِي قَوْلِهِ. وَمَعْنَاهُ: بَعِيدٌ مِنَ الْوَهْمِ وَالْعَادَةِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الرَّجْعُ بِمَعْنَى الْمَرْجُوعِ. وَهُوَ الْجَوَابُ، وَيَكُونُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى اسْتِبْعَادًا لِإِنْكَارِهِمْ مَا أَنْذَرُوا بِهِ مِنَ الْبَعْثِ، وَالْوَقْفِ قَبْلَهُ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ حَسَنٌ.

وَقُرِئَ: (إِذَا مِتْنَا) عَلَى لَفْظِ الْخَبَرِ، وَمَعْنَاهُ: إِذَا مِتْنَا بَعْدَ أَنْ نَرْجِعَ، وَالدَّالُّ عَلَيْهِ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا نَاصِبُ الظَّرْفِ إِذَا كَانَ الرَّجْعُ بِمَعْنَى الْمَرْجُوعِ؟ قُلْتُ: مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْمُنْذَرُ مِنَ الْمُنْذَرِ بِهِ، وَهُوَ الْبَعْثُ.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾[4]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾[1] رَدٌّ لِاسْتِبْعَادِهِمُ الرَّجْعَ، لِأَنَّ مِنْ لُطْفِ عِلْمِهِ حَتَّى تَغْلَغَلَ إِلَى مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْ أَجْسَادِ الْمَوْتَى وَتَأْكُلُهُ مِنْ لُحُومِهِمْ وَعِظَامِهِمْ، كَانَ قَادِرًا عَلَى رَجْعِهِمْ أَحْيَاءَ كَمَا كَانُوا.

عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجَبَ الذَّنَبِ".

وَعَنِ السُّدِّيِّ: ﴿مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾[2]: مَا يَمُوتُ فيدْفَنُ في الْأَرْضِ مِنْهُمْ ﴿كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾[3] مَحْفُوظٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَمِنَ التَّغَيُّرِ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، أَوْ حَافِظٌ لِمَا أَوْدَعَهُ وَكَتَبَ فيهِ .

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾[4]

﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾[5] إِضْرَابٌ أَتْبَعَ الْإِضْرَابَ الْأَوَّلَ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ جَاءُوا بِمَا هُوَ أَفْظَعُ مَنْ تَعَجُّبِهِمْ، وَهُوَ التَّكْذِيبُ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ النُّبُوَّةُ الثَّابِتَةُ بِالْمُعْجِزَاتِ في أَوَّلِ وَهْلَةٍ مِنْ غَيْرِ تَفَكُّرٍ وَلَا تَدَبُّرٍ ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾[6] مُضْطَرِبٌ.

يُقَالُ: مَرَجَ الْخَاتَمُ في أُصْبُعِهِ وَجُرِحَ، فيقُولُونَ تَارَةً: شَاعِرٌ، وَتَارَةً: سَاحِرٌ، وَتَارَةً: كَاهِنٌ، لَا يَثْبُتُونَ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ.

وَقُرِئَ: (لِمَا جَاءَهُمْ) بِكَسْرِ اللَّامِ وَمَا الْمَصْدَرِيَّةِ، وَاللَّامُ هِيَ الَّتِي في قَوْلِهِمْ لِخَمْسٍ خَلَوْنَ، أَيْ: عِنْدَ مَجِيئِهِ إِيَّاهُمْ.

وَقِيلَ: "الْحَقُّ": الْقُرْآنُ، وَقِيلَ: الْإِخْبَارُ بِالْبَعْثِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾[1]

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾[2] حِينَ كَفَرُوا بِالْبَعْثِ إِلَى آثَارِ قُدْرَةِ اللَّهِ فِي خَلْقِ الْعَالَمِ.

﴿بَنَيْنَاهَا﴾[3]: رَفَعْنَاهَا بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴿مِنْ فُرُوجٍ﴾[4] مِنْ فُتُوقٍ: يَعْنِي أَنَّهَا مَلْسَاءَ سَلِيمَةً مِنَ الْعُيُوبِ لَا فَتْقَ فِيهَا وَلَا صَدْعَ وَلَا خَلَلَ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾[5]]الْمُلْكُ: 3 .[3

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾[6]

﴿مَدَدْنَاهَا﴾[7]: دَحَوْنَاهَا.

﴿رَوَاسِيَ﴾[8]: جِبَالًا ثَوَابِتَ لَوْلَا هِيَ لَتَكَفَّأَتْ.

﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾[9]: مِنْ كُلِّ صِنْفٍ، ﴿بَهِيجٍ﴾[10]: يَبْتَهِجُ بِهِ لِحُسْنِهِ، ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى﴾[11] لِتُبَصِّرَ بِهِ وَتُذَكِّرَ كُلَّ ﴿عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾[12] رَاجِعٍ إِلَى رَبِّهِ، مُفَكِّرٍ فِي بَدَائِعِ خَلْقِهِ.

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .
8 سورة ، الآية .
9 سورة ، الآية .
10 سورة ، الآية .
11 سورة ، الآية .
12 سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: (تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى) بِالرَّفْعِ، أَيْ: خَلَقَهَا تَبْصِرَةً.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[1]

﴿مَاءً مُبَارَكًا﴾[2]: كَثِيرُ الْمَنَافِعِ.

﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾[3]: وَحَبَّ الزَّرْعِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحْصَدَ، وَهُوَ مَا يُقْتَاتُ بِهِ مِنْ نَحْوِ الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَغَيْرِهِمَا.

﴿بَاسِقَاتٍ﴾[4]: طِوَالًا فِي السَّمَاءِ، وَفِي قِرَاءَةِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (بَاصِقَاتٍ)، بِإِبْدَالِ السِّينِ صَادًا لِأَجْلِ الْقَافِ.

﴿نَضِيدٌ﴾[5]: مَنْضُودٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ: إِمَّا أَنْ يُرَادَ كَثْرَةُ الطَّلْعِ وَتَرَاكُمُهُ، أَوْ كَثْرَةُ مَا فِيهِ مِنَ الثَّمَرِ.

﴿رِزْقًا﴾[6] عَلَى أَنْبَتْنَاهَا رِزْقًا، لِأَنَّ الْإِنْبَاتَ فِي مَعْنَى الرِّزْقِ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ، أَيْ: أَنْبَتْنَاهَا لِنَرْزُقَهُمْ.

﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[7]: كَمَا حَيِيَتْ هَذِهِ الْبَلْدَةُ الْمَيْتَةُ، كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ أَحْيَاءً بَعْدَ مَوْتِكُمْ، وَالْكَافُ فِي مَحَلِّ الرَّفْعِ عَلَى الِابْتِدَاءِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[1]

أَرَادَ بِفِرْعَوْنَ قَوْمَهُ كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾[2]،]يُونُسُ: 83] لِأَنَّ الْمَعْطُوفَ عَلَيْهِ قَوْمُ نُوحٍ، وَالْمَعْطُوفَاتُ جَمَاعَاتٌ.

﴿كُلٌّ﴾[3]: يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَأَنْ يُرَادَ جَمِيعُهُمْ، إِلَّا أَنَّهُ وَحَّدَ الضَّمِيرَ الرَّاجِعَ إِلَيْهِ عَلَى اللَّفْظِ دُونَ الْمَعْنَى.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[4]: فَوَجَبَ وَحَلَّ وَعِيدِي، وَهُوَ كَلِمَةُ الْعَذَابِ. وَفِيهِ تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ.

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[5]

عَيِيَ بِالْأَمْرِ: إِذَا لَمْ يَهْتَدِ لِوَجْهِ عَمَلِهِ، وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّا لَمْ نَعْجَزْ كَمَا عَلِمُوا عَنِ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ، حَتَّى نَعْجَزَ عَنِ الثَّانِي، ثُمَّ قَالَ: هُمْ لَا يُنْكِرُونَ قُدْرَتَنَا عَلَى الْخَلْقِ الْأَوَّلِ، وَاعْتِرَافِهِمْ بِذَلِكَ فِي طَيِّهِ الِاعْتِرَافُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الْإِعَادَةِ

﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾[6]، أَيْ فِي خَلْطٍ وَشُبْهَةٍ. قَدْ لَبَّسَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ وَحَيَّرَهُمْ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

وَمِنْهُ قَوْلُ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –: يَا حَارُّ، إِنَّهُ لَمَلْبُوسٌ عَلَيْكَ، اعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ".

وَلَبَّسَ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِمْ: تَسْوِيلُهُ إِلَيْهِمْ أَنَّ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى أَمْرٌ خَارِجٌ عَنِ الْعَادَةِ، فَتَرَكُوا لِذَلِكَ الْقِيَاسَ الصَّحِيحَ: أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْإِنْشَاءِ كَانَ عَلَى الْإِعَادَةِ أَقْدَرُ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ نَكَّرَ الْخَلْقَ الْجَدِيدَ، وَهَلَّا عَرَفَ كَمَا عَرَفَ الْخَلْقَ الْأَوَّلَ؟

قُلْتُ: قَصَدَ فِي تَنْكِيرِهِ إِلَى خَلْقٍ جَدِيدٍ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ وَحَالٌ شَدِيدٌ. حَقَّ مِنْ سَمِعَ بِهِ أَنْ يَهْتَمَّ بِهِ وَيَخَافَ، وَيَبْحَثَ عَنْهُ وَلَا يَقْعُدَ عَلَى لَبْسٍ فِي مِثْلِهِ .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1]

الْوَسْوَسَةُ: الصَّوْتُ الْخَفِي. وَمِنْهَا: وَسْوَاسُ الْحُلِيِّ. وَوَسْوَسَةُ النَّفْسِ: مَا يَخْطُرُ بِبَالِ الْإِنْسَانِ وَيَهْجِسُ فِي ضَمِيرِهِ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ.

وَالْبَاءُ مِثْلُهَا فِي قَوْلِكَ: صَوَّتَ بِكَذَا وَهَمَسَ بِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلتَّعْدِيَةِ وَالضَّمِيرُ لِلْإِنْسَانِ، أَيْ: مَا تَجْعَلُهُ مُوَسْوِسًا، وَمَا مَصْدَرِيَّةٌ، لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: حَدَّثَ نَفْسَهُ بِكَذَا، كَمَا يَقُولُونَ: حَدَّثَتْهُ بِهِ نَفْسُهُ.

قَالَ:

وَاكْذِبِ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثْتَهَـــــــــــــــا

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾[2] مَجَازٌ، وَالْمُرَادُ: قُرْبُ عِلْمُهُ مِنْهُ، وَأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَعْلُومِهِ مِنْهُ وَمِنْ أَحْوَالِهِ تَعَلُّقًا لَا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ خَفياتِهِ، فَكَأَنَّ ذَاتُهُ قَرِيبَةً مِنْهُ، كَمَا يُقَالُ: اللَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَقَدْ جَلَّ عَنِ الْأَمْكِنَةِ. وَحَبْلُ الْوَرِيدِ: مَثَلٌ فِي فَرْطِ الْقُرْبِ، كَقَوْلِهِمْ: هُوَ مِنِّي مُقْعَدُ الْقَابِلَةِ وَمُعَقَّدُ الْإِزَارِ.

وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَالْمَوْتُ أَدْنَى لِي مِنَ الْوَرِيـــــــــــدِ

وَالْحَبْلُ: الْعِرْقُ، شُبِّهَ بِوَاحِدِ الْحِبَالِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ:

كَأَنْ وَرِيدَيْهِ رِشَآ خُلُـــــــــــــبِ

وَالْوَرِيدَانِ: عِرْقَانِ مُكْتَنِفَانِ لِصَفْحَتَيِ الْعُنُقِ فِي مَقْدَمِهِمَا مُتَّصِلَانِ بِالْوَتِينِ، يَرُدَّانِ مِنَ الرَّأْسِ إِلَيْهِ.

وَقِيلَ: سُمِّيَ وَرِيدًا لِأَنَّ الرُّوحَ تَرُدُّهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ إِضَافَةِ الْحَبْلِ إِلَى الْوَرِيدِ، وَالشَّيْءُ لَا يُضَافُ إِلَى نَفْسِهِ؟

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ الْإِضَافَةُ لِلْبَيَانِ، كَقَوْلِهِمْ: بَعِيرٌ سَانِيَةٌ.

– وَالثَّانِي: أَنْ يُرَادَ حَبْلَ الْعَاتِقِ فَيضَافُ إِلَى الْوَرِيدِ، كَمَا يُضَافُ إِلَى الْعَاتِقِ لِاجْتِمَاعِهِمَا فِي عُضْوٍ وَاحِدٍ، كَمَا لَوْ قِيلَ: حَبْلُ الْعَلْيَاءِ مَثَلًا.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1]

﴿إِذْ﴾[2] مَنْصُوبٌ بِأَقْرَبَ، وَسَاغَ ذَلِكَ، لِأَنَّ الْمَعَانِيَ تَعْمَلُ فِي الظَّرْفِ مُتَقَدِّمَةً وَمُتَأَخِّرَةً.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَطِيفٌ يَتَوَصَّلُ عِلْمُهُ إِلَى خَطِرَاتِ النَّفْسِ وَمَا لَا شَيْءَ أَخْفى مِنْهُ، وَهُوَ أَقْرَبُ مِنَ الْإِنْسَانِ مِنْ كُلِّ قَرِيبٍ حِينَ يَتَلَقَّى الْحَفيظَانِ مَا يَتَلَفَّظُ بِهِ، إِيذَانًا بِأَنَّ اسْتِحْفَاظَ الْمَلَكَيْنِ أَمْرٌ هُوَ غَنِيٌّ عَنْهُ، وَكَيْفَ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَى أَخْفى الْخَفيانِ؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِحِكْمَةٍ اقْتَضَتْ ذَلِكَ: وَهِيَ مَا فِي كَتَبَةِ الْمَلَكَيْنِ وَحِفْظِهِمَا، وَعَرْضِ صَحَائِفِ الْعَمَلِ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. وَعِلْمُ الْعَبْدِ بِذَلِكَ مَعَ عِلْمِهِ بِإِحَاطَةِ اللَّهِ بِعَمَلِهِ. مِنْ زِيَادَةِ لُطْفٍ لَهُ فِي الِانْتِهَاءِ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَالرَّغْبَةِ فِي الْحَسَنَاتِ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "أَنَّ مَقْعَدَ مَلَكَيْكَ عَلَى ثَنِيَّتَيْكَ، وَلِسَانُكَ قَلَمُهُمَا، وَرِيقُكَ مِدَادُهُمَا، وَأَنْتَ تَجْرِي فيمَا لَا يَعْنِيكَ لَا تَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ –تَعَالَى– وَلَا مِنْهُمَا".

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَلَقِّي الْمَلَكَيْنِ بَيَانًا لِلْقُرْبِ، يَعْنِي: وَنَحْنُ قَرِيبُونَ مِنْهُ مُطَّلِعُونَ عَلَى أَحْوَالِهِ مُهَيْمِنُونَ عَلَيْهِ، إِذْ حَفَظَتُنَا وَكَتَبَتُنَا مُوَكَّلُونَ بِهِ.

وَالتَّلَقِّي: التَّلَقُّنُ بِالْحِفْظِ وَالْكَتَبَةِ.

وَالْقَعِيدُ: الْقَاعِدُ، كَالْجَلِيسِ بِمَعْنَى الْمُجَالِسِ، وَتَقْدِيرُهُ: عَنِ الْيَمِينِ قَعِيدٌ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مِنَ الْمُتَلَقِّيَيْنِ، فَتَرَكَ أَحَدَهَمَا لِدَلَالَةِ الثَّانِي عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ:

... كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيًّـــــــــــا

.. ..

﴿رَقِيبٌ﴾[1] مَلَكٌ يَرْقُبُ عَمَلَهُ "عَتِيدٌ" حَاضِرٌ، وَاخْتَلَفَ فيمَا يَكْتُبُ الْمَلَكَانِ، فَقِيلَ: يَكْتُبَانِ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَنِينَهُ فِي مَرَضِهِ.

وَقِيلَ: لَا يَكْتُبَانِ إِلَّا مَا يُؤْجَرُ عَلَيْهِ أَوْ يُؤْزَرُ بِهِ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "كَاتِبُ الْحَسَنَاتِ عَلَى يَمِينِ الرَّجُلِ وَكَاتِبُ السَّيِّئَاتِ عَلَى يَسَارِ الرَّجُلِ، وَكَاتِبُ الْحَسَنَاتِ أَمِينٌ عَلَى كَاتِبِ السَّيِّئَاتِ، فَإِذَا عَمِلَ حَسَنَةً كَتَبَهَا مَلَكُ الْيَمِينِ عَشْرًا، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً قَالَ صَاحِبُ الْيَمِينِ لِصَاحِبِ الشِّمَالِ: دَعْهُ سَبْعَ سَاعَاتٍ لَعَلَّهُ يُسَبِّحُ أَوْ يَسْتَغْفِرُ".

وَقِيلَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَجْتَنِبُونَ الْإِنْسَانَ عِنْدَ غَائِطِهِ وَعِنْدَ جِمَاعِهِ.

وَقُرِئَ: (مَا يُلْفَظُ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

---

[1] سورة ، الآية .

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1]

لَمَّا ذَكَرَ إِنْكَارَهُمُ الْبَعْثَ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِوَصْفِ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ، أَعْلَمَهُمْ أَنَّ مَا أَنْكَرُوهُ وَجَحَدُوهُ هُمْ لَاقَوْهُ عَنْ قَرِيبٍ عِنْدَ مَوْتِهِمْ وَعِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَنَبَّهَ عَلَى اقْتِرَابِ ذَلِكَ بِأَنْ عَبَّرَ عَنْهُ بِلَفْظِ الْمَاضِي، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾[2] وَنُفِخَ فِي الصُّورِ، وَسَكْرَةُ الْمَوْتِ: شِدَّتُهُ الذَّاهِبَةُ بِالْعَقْلِ.

وَالْبَاءُ فِي بِالْحَقِّ لِلتَّعْدِيَةِ، يَعْنِي: وَأُحْضِرَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ الَّذِي أَنْطَقَ اللَّهُ بِهِ كُتُبَهُ وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ، أَوْ حَقِيقَةُ الْأَمْرِ وَجَلِيَّةُ الْحَالِ: مِنْ سَعَادَةِ الْمَيِّتِ وَشَقَاوَتِهِ.

وَقِيلَ: الْحَقُّ الَّذِي خُلِقَ لَهُ الْإِنْسَانُ، مِنْ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ مِثْلَهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾[3] [الْمُؤْمِنُونَ: 20] أَيْ وَجَاءَتْ مُلْتَبِسَةً بِالْحَقِّ، أَيْ: بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ، أَوْ بِالْحِكْمَةِ وَالْغَرَضِ الصَّحِيحِ، كَقَوْلِهِ – تَعَالَى –: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾[4] [الْأَنْعَامُ: 73].

وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: (سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ) عَلَى إِضَافَةِ السَّكْرَةِ إِلَى الْحَقِّ وَالدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهَا السَّكْرَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَى الْإِنْسَانِ وَأَوْجَبَتْ لَهُ، وَأَنَّهَا حِكْمَةٌ. وَالْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ، لِأَنَّهَا سَبَبُ زُهُوقِ الرُّوحِ لِشِدَّتِهَا، أَوْ لِأَنَّ الْمَوْتَ يَعْقُبُهَا، فَكَأَنَّهَا جَاءَتْ بِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: جَاءَتْ وَمَعَهَا الْمَوْتُ.

وَقِيلَ سَكْرَةُ الْحَقِّ سَكْرَةُ اللَّهِ، أُضِيفَتْ إِلَيْهِ تَفْظِيعًا لِشَأْنِهَا وَتَهْوِيلًا.

وَقُرِئَ: (سَكَرَاتُ الْمَوْتِ).

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿ذَلِكَ﴾[1] إِشَارَةٌ إِلَى الْمَوْتِ، وَالْخِطَابُ لِلْإِنْسَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ﴾[2]]الْحِجْرُ: 266] عَلَى طَرِيقِ الِالْتِفَاتِ، أَوْ إِلَى الْحَقِّ وَالْخِطَابُ لِلْفَاجِرِ.

﴿تَحِيدُ﴾[3]: تَنْفِرُ وَتَهْرُبُ.

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّهُ سَأَلَ زَيْدَ بْنَ أَسْلَمَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: الْخِطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَحَكَاهُ لِصَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا سَنَّ عَالِيَةً وَلَا لِسَانَ فَصِيحٍ وَلَا مَعْرِفَةً بِكَلَامِ الْعَرَبِ، هُوَ لِلْكَافِرِ. ثُمَّ حَكَاهُمَا لِلْحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: أُخَالِفُهُمَا جَمِيعًا: هُوَ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ.

﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾[4] عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ الْمُضَافِ، أَيْ: وَقْتُ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ، وَالْإِشَارَةُ إِلَى مَصْدَرِ نَفْخِ.

﴿سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[5] مَلَكَانِ: أَحَدُهُمَا يَسُوقُهُ إِلَى الْمَحْشَرِ، وَالْآخَرُ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِعَمَلِهِ، أَوْ مَلَكٌ وَاحِدٌ جَامِعٌ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَعَهَا مَلَكٌ يَسُوقُهَا وَيَشْهَدُ عَلَيْهَا.

وَمَحَلُّ ﴿مَعَهَا سَائِقٌ﴾[6] النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ مِنْ كُلٍّ لِتَعَرُّفِهِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا هُوَ فِي حُكْمِ الْمَعْرِفَةِ.

قُرِئَ: (لَقَدْ كُنْتِ) عَنْكَ غِطَائَكِ فَبَصَرُكِ، بِالْكَسْرِ عَلَى خِطَابِ النَّفْسِ، أَيْ: يُقَالُ لَهَا لَقَدْ كُنْتِ.

جُعِلَتِ الْغَفْلَةُ كَأَنَّهَا غِطَاءٌ غَطَّى بِهِ جَسَدَهُ كُلَّهُ أَوْ غِشَاوَةٌ غَطَّى بِهَا عَيْنَيْهِ فَهُوَ لَا يُبْصِرُ شَيْئًا، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ تَيَقَّظَ وَزَالَتِ الْغَفْلَةُ عَنْهُ وَغِطَاؤُهَا فَيُبْصِرُ مَا لَمْ يُبْصِرْهُ مِنَ الْحَقِّ. وَرَجَعَ بَصَرُهُ الْكَلِيلُ عَنِ الْإِبْصَارِ لِغَفْلَتِهِ: حَدِيدًا لِتَيَقُّظِهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾[1]

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾[2]: هُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي قَيَّضَ لَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[3]]الزُّخْرُفُ: 36] يَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾[4] ق: 27.[

﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾[5]: هَذَا شَيْءٌ لَدَيَّ وَفِي مِلْكِي عَتِيدٌ لِجَهَنَّمَ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَلَكًا يَسُوقُهُ وَآخَرُ يَشْهَدُ عَلَيْهِ، وَشَيْطَانًا مَقْرُونًا بِهِ، يَقُولُ: قَدْ أَعْتَدْتُهُ لِجَهَنَّمَ وَهَيَّأْتُهُ لَهَا بِإِغْوَائِي وَإِضْلَالِي.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ إِعْرَابُ هَذَا الْكَلَامِ؟

قُلْتُ: إِنْ جَعَلْتَ ﴿مَا﴾[6] مَوْصُوفَةً، فَعَتِيدٌ: صِفَةٌ لَهَا، وَإِنْ جَعَلْتَهَا مَوْصُولَةً، فَهُوَ بَدَلٌ، أَوْ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾[7]

﴿أَلْقِيَا﴾[8] خِطَابٌ مِنَ اللَّهِ –تَعَالَى– لِلْمَلَكَيْنِ السَّابِقَيْنِ: السَّائِقُ وَالشَّهِيدُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِلْوَاحِدِ عَلَى وَجْهَيْنِ:

– أَحَدُهُمَا قَوْلُ الْمُبَرِّدِ: إِنَّ تَثْنِيَةَ الْفَاعِلِ نَزَلَتْ مَنْزِلَةَ تَثْنِيَةِ الْفِعْلِ لِاتِّحَادِهِمَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَلْقِ أَلْقِ: لِلتَّأْكِيدِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

– وَالثَّانِي: أَنَّ الْعَرَبَ أَكْثَرُ مَا يُرَافِقُ الرَّجُلَ مِنْهُمُ اثْنَانِ، فَكَثُرَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ أَنْ يَقُولُوا: خَلِيلِيَّ وَصَاحِبَيَّ، وَقِفَا وَأَسْعِدَا، حَتَّى خَاطَبُوا الْوَاحِدَ خِطَابَ الِاثْنَيْنِ.

عَنِ الْحَجَّاجِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: يَا حَرَسِيَّ، اضْرِبَا عُنُقَهُ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: (أَلْقِينَ) بِالنُّونِ الْخَفِيفَةِ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْأَلِفُ فِي ﴿أَلْقِيَا﴾[1] بَدَلًا مِنَ النُّونِ: إِجْرَاءً لِلْوَصْلِ مَجْرَى الْوَقْفِ.

﴿عَنِيدٍ﴾[2] مُعَانِدٍ مُجَانِبٍ لِلْحَقِّ مُعَادٍ لِأَهْلِهِ.

﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾[3] كَثِيرُ الْمَنْعِ لِلْمَالِ عَلَى حُقُوقِهِ، جَعَلَ ذَلِكَ عَادَةً لَهُ لَا يَبْذُلُ مِنْهُ شَيْئًا قَطُّ، أَوْ مَنَّاعٍ لِجِنْسِ الْخَيْرِ أَنْ يَصِلَ إِلَى أَهْلِهِ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ.

قِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، كَانَ يَمْنَعُ بَنِي أَخِيهِ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ يَقُولُ: مَنْ دَخَلَ مَعَكُمْ فِيهِ لَمْ أَنْفَعْهُ بِخَيْرٍ مَا عِشْتُ.

﴿مُعْتَدٍ﴾[4] ظَالِمٌ مُتَخَطٍّ لِلْحَقِّ.

﴿مُرِيبٍ﴾[5] شَاكٍّ فِي اللَّهِ وَفِي دِينِهِ.

﴿الَّذِي جَعَلَ﴾[6] مُبْتَدَأٌ مُضَمَّنٌ مَعْنَى الشَّرْطِ، وَلِذَلِكَ أُجِيبَ بِالْفَاءِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾[7] مَنْصُوبًا بَدَلًا مِنْ ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾[8]، وَيَكُونُ ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾[9] تَكْرِيرًا لِلتَّوْكِيدِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

[9] سورة ، الآية .

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾[1]

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ أُخْلِيَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ عَنِ الْوَاوِ وَأُدْخِلَتْ عَلَى الْأُولَى؟

قُلْتُ: لِأَنَّهَا اسْتُؤْنِفَتْ كَمَا تَسْتَأْنِفُ الْجُمَلُ الْوَاقِعَةُ فِي حِكَايَةِ التَّقَاوُلِ كَمَا رَأَيْتُ فِي حِكَايَةِ الْمُقَاوَلَةِ بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَأَيْنَ التَّقَاوُلُ هَاهُنَا؟

قُلْتُ: لَمَّا قَالَ قَرِينُهُ: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾[2] وَتَبِعَهُ قَوْلُهُ: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾[3]، وَتَلَاهُ: ﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾[4]]ق: 288]، عَلِمَ أَنَّ ثُمَّ مُقَاوَلَةً مِنَ الْكَافِرِ، لَكِنَّهَا طُرِحَتْ لِمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا، كَأَنَّهُ قَالَ: رَبِّ هُوَ أَطْغَانِي، فَقَالَ قَرِينُهُ: رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ.

وَأَمَّا الْجُمْلَةُ الْأُولَى، فَوَاجِبٌ عَطْفُهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ مَعْنَاهَا وَمَعْنَى مَا قَبْلَهَا فِي الْحُصُولِ، أَعْنِي مَجِيءَ كُلِّ نَفْسٍ مَعَ الْمَلَكَيْنِ، وَقَوْلُ قَرِينِهِ مَا قَالَ لَهُ: ﴿مَا أَطْغَيْتُهُ﴾[5] مَا جَعَلْتُهُ طَاغِيًا، وَمَا أَوْقَعْتُهُ فِي الطُّغْيَانِ، وَلَكِنَّهُ طَغَى وَاخْتَارَ الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى كَقَوْلِهِ – تَعَالَى–: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[6]]إِبْرَاهِيمُ: 22].

﴿قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[7]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

﴿قَالَ لا تَخْتَصِمُوا﴾[1]: اسْتِئْنَافٌ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾[2]،]ق: 27] كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: فَمَاذَا قَالَ اللَّهُ؟ فَقِيلَ: قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا.

وَالْمَعْنَى: لَا تَخْتَصِمُوا فِي دَارِ الْجَزَاءِ وَمَوْقِفِ الْحِسَابِ، فَلَا فَائِدَةَ فِي اخْتِصَامِكُمْ وَلَا طَائِلَ تَحْتَهُ، وَقَدْ أَوْعَدْتُكُمْ بِعَذَابِي عَلَى الطُّغْيَانِ فِي كُتُبِي وَعَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِي، فَمَا تَرَكْتُ لَكُمْ حُجَّةً عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: لَا تَطْمَعُوا أَنْ أُبَدِّلَ قَوْلِي وَوَعِيدِي فَأُعْفِيكُمْ عَمَّا أَوْعَدْتُكُمْ بِهِ.

﴿وَمَا أَنَا بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[3]، فَأُعَذِّبَ مَنْ لَيْسَ بِمُسْتَوْجِبٍ لِلْعَذَابِ.

وَالْبَاءُ فِي ﴿بِالْوَعِيدِ﴾[4] مَزِيدَةٌ مِثْلُهَا فِي ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[5] أَوْ مُعَدِّيَةٌ، عَلَى أَنْ "قَدَّمَ" مُطَاوِعٌ بِمَعْنَى "تَقَدَّمَ".

وَيَجُوزُ أَنْ يَقَعَ الْفِعْلُ عَلَى جُمْلَةِ قَوْلِهِ: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[6]، وَيَكُونُ ﴿بِالْوَعِيدِ﴾[7] حَالًا، أَيْ: قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ هَذَا مُلْتَبِسًا بِالْوَعِيدِ مُقْتَرِنًا بِهِ، أَوْ قَدَّمْتُهُ إِلَيْكُمْ مُوعِدًا لَكُمْ بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ﴾[8] وَاقِعٌ مَوْقِعَ الْحَالِ مِنْ ﴿لا تَخْتَصِمُوا﴾[9]، وَالتَّقْدِيمُ بِالْوَعِيدِ فِي الدُّنْيَا وَالْخُصُومَةُ فِي الْآخِرَةِ وَاجْتِمَاعُهَا فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ وَاجِبٌ.

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: وَلَا تَخْتَصِمُوا، وَقَدْ صَحَّ عِنْدَكُمْ أَنِّي قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، وَصِحَّةُ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ فِي الْآخِرَةِ،

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَالَ: ﴿بِظَلَّامٍ﴾[10] عَلَى لَفْظِ الْمُبَالَغَةِ؟

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .
[10] سورة ، الآية .

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِكَ: هُوَ ظَالِمٌ لِعَبْدِهِ، وَظَلَّامٌ لِعَبِيدِهِ.

– وَالثَّانِي: أَنْ يُرَادَ لَوْ عَذَّبْتَ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ لَكُنْتَ ظَلَّامًا مُفْرِطَ الظُّلْمِ، فَنَفى ذَلِكَ.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾[1]

قُرِئَ: (نَقُولُ) بِالنُّونِ وَالْيَاءِ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: يَوْمَ يَقُولُ اللَّهُ لِجَهَنَّمَ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَالْحَسَنِ: يُقَالُ: وَانْتِصَابُ الْيَوْمِ بِظَلَّامٍ أَوْ بِمُضْمَرٍ، نَحْوُ: أَذْكُرُ وَأُنْذِرُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ بِنُفِخَ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ.

وَعَلَى هَذَا يُشَارُ بِذَلِكَ إِلَى يَوْمٍ نَقُولُ، وَلَا يُقَدَّرُ حَذْفُ الْمُضَافِ.

وَسُؤَالُ جَهَنَّمَ وَجَوَابُهَا مِنْ بَابِ التَّخْيِيلِ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ تَصْوِيرُ الْمَعْنَى فِي الْقَلْبِ وَتَثْبِيتُهُ، وَفِيهِ مَعْنَيَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا تَمْتَلِئُ مَعَ اتِّسَاعِهَا وَتَبَاعُدِ أَطْرَافِهَا حَتَّى لَا يَسَعَهَا شَيْءٌ وَلَا يُزَادُ عَلَى امْتِلَائِهَا، لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[2]]السَّجْدَةُ: 133]

– وَالثَّانِي: أَنَّهَا مِنَ السِّعَةِ بِحَيْثُ يَدْخُلُهَا مَنْ يَدْخُلُهَا وَفِيهَا مَوْضِعٌ لِلْمَزِيدِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾[3] اسْتِكْثَارًا لِلدَّاخِلِينَ فِيهَا وَاسْتِبْدَاعًا لِلزِّيَادَةِ عَلَيْهِمْ لِفَرْطِ كَثْرَتِهِمْ، أَوْ طَلَبًا لِلزِّيَادَةِ غَيْظًا عَلَى الْعُصَاةِ.

وَالْمَزِيدُ: إِمَّا مَصْدَرٌ كَالْمَحِيدِ وَالْمُمِيدِ، وَإِمَّا اسْمُ مَفْعُولٍ كَالْمَبِيعِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[1]

﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[2] نُصِبَ عَلَى الظَّرْفِ، أَيْ: مَكَانًا غَيْرَ بَعِيدٍ، أَوْ عَلَى الْحَالِ، وَتَذْكِيرُهُ لِأَنَّهُ عَلَى زِنَةِ الْمَصْدَرِ، كَالزَّئِيرِ وَالصَّلِيلِ، وَالْمَصَادِرُ يَسْتَوِي فِي الْوَصْفِ بِهَا الْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ، أَوْ عَلَى حَذْفِ الْمَوْصُوفِ، أَيْ: شَيْئًا غَيْرَ بَعِيدٍ.

وَمَعْنَاهُ: التَّوْكِيدُ، كَمَا تَقُولُ: هُوَ قَرِيبٌ غَيْرُ بَعِيدٍ، وَعَزِيزٌ غَيْرُ ذَلِيلٍ. وَقُرِئَ: (تُوعَدُونَ) بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ، وَهِيَ جُمْلَةٌ اعْتِرَاضِيَّةٌ.

و﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾[3] بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾[4]، بِتَكْرِيرِ الْجَارِّ كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾[5]]الْأَعْرَافُ: 75]، وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى الثَّوَابِ، أَوْ إِلَى مَصْدَرِ أُزْلِفَتْ.

وَالْأَوَّابُ: الرَّجَّاعُ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ –تَعَالَى–، وَالْحَفِيظُ: الْحَافِظُ لِحُدُودِهِ –تَعَالَى–.

وَ﴿مَنْ خَشِيَ﴾[6] بَدَلٌ بَعْدَ بَدَلٍ تَابِعٍ لِكُلِّ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا عَنْ مَوْصُوفِ أَوَّابٍ وَحَفِيظٍ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي حُكْمِ أَوَّابٍ وَحَفِيظٍ، لِأَنَّ مَنْ لَا يُوصَفُ بِهِ وَلَا يُوصَفُ مِنْ بَيْنِ الْمَوْصُولَاتِ إِلَّا بِالَّذِي وَحْدَهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُبْتَدَأً خَبَرُهُ: يُقَالُ لَهُمُ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ، لِأَنَّ ﴿مَنْ﴾[7] فِي مَعْنَى الْجَمْعِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُنَادَى كَقَوْلِهِمْ: مَنْ لَا يَزَالُ مُحْسِنًا أَحْسَنَ إِلَيَّ، وَحُذِفَ حَرْفُ النِّدَاءِ لِلتَّقْرِيبِ.

﴿بِالْغَيْبِ﴾[1] حَالٌ مِنَ الْمَفْعُولِ، أَيْ: خَشِيَهُ وَهُوَ غَائِبٌ لَمْ يَعْرِفْهُ، وَكَوْنُهُ مُعَاقِبًا إِلَّا بِطَرِيقِ الِاسْتِدْلَالِ، أَوْ صِفَةٍ لِمَصْدَرِ خَشِيَ، أَيْ: خَشِيَهُ خَشْيَةً مُلْتَبِسَةً بِالْغَيْبِ، حَيْثُ خَشِيَ عِقَابَهُ وَهُوَ غَائِبٌ، أَوْ خَشْيَةً بِسَبَبِ الْغَيْبِ الَّذِي أَوْعَدَهُ بِهِ مِنْ عَذَابِهِ.

وَقِيلَ: فِي الْخَلْوَةِ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَرَنَ بِالْخَشْيَةِ اسْمَهُ الدَّالَّ عَلَى سِعَةِ الرَّحْمَةِ؟

قُلْتُ: لِلثَّنَاءِ الْبَلِيغِ عَلَى الْخَاشِي وَهُوَ خَشْيَتُهُ، مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ الْوَاسِعُ الرَّحْمَةِ. كَمَا أَثْنَى عَلَيْهِ بِأَنَّهُ خَاشٍ، مَعَ أَنَّ الْمُخْشَى مِنْهُ غَائِبٌ، وَنَحْوُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[2]]الْمُؤْمِنُونَ: 600]، فَوَصَفَهُمْ بِالْوَجَلِ مَعَ كَثْرَةِ الطَّاعَاتِ. وَصَفَ الْقَلْبَ بِالْإِنَابَةِ، وَهِيَ الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ -تَعَالَى-، لِأَنَّ الِاعْتِبَارَ بِمَا ثَبَتَ مِنْهَا فِي الْقَلْبِ.

يُقَالُ لَهُمْ: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾[3]، أَيْ: سَالِمِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَزَوَالِ النِّعَمِ، أَوْ مُسَلَّمًا عَلَيْكُمْ يُسَلِّمُ عَلَيْكُمُ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ.

﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾[4]، أَيْ: يَوْمَ تَقْدِيرِ الْخُلُودِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[5]،]الزُّمَرُ: 73] أَيْ: مُقَدِّرِينَ الْخُلُودَ.

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[6] هُوَ مَا لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِمْ وَلَمْ تَبْلُغْهُ أَمَانِيهِمْ، حَتَّى يَشَاءُوهُ.

وَقِيلَ: إِنَّ السَّحَابَ تَمُرُّ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ فَتُمْطِرُهُمُ الْحُورُ، فَتَقُولُ: نَحْنُ الْمَزِيدُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾[1]

﴿فَنَقَّبُوا﴾[2]، وَقُرِئَ بِالتَّخْفِيفِ: فَخَرَقُوا فِي الْبِلَادِ وَدَوَّخُوا.

وَالتَّنْقِيبُ: التَّنْقِيرُ عَنِ الْأَمْرِ وَالْبَحْثِ وَالطَّلَبِ.

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ حِلِّزَةَ:

نَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ مِنْ حَذَرِ الْمَوْ تِ وَجَالُوا فِي الْأَرْضِ كُلَّ مَجَالِ

وَدَخَلَتِ الْفَاءُ لِلتَّسْبِيبِ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾[3]، أَيْ: شِدَّةُ بَطْشِهِمْ أَبْطَرَتْهُمْ وَأَقْدَرَتْهُمْ عَلَى التَّنْقِيبِ وَقَوَّتْهُمْ عَلَيْهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: فَنَقَّبَ أَهْلُمَكَّةَ فِي أَسْفَارِهِمْ وَمَسَايِرِهِمْ فِي بِلَادِ الْقُرُونِ، فَهَلْ رَأَوْا لَهُمْ مَحِيصًا حَتَّى يُؤَمِّلُوا مِثْلَهُ لِأَنْفُسِهِمْ؟

وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّتِهِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: (فَنَقِّبُوا) عَلَى الْأَمْرِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾[4]]التَّوْبَةُ: 2].

وَقُرِئَ بِكَسْرِ الْقَافِ مُخَفَّفَةً مِنَ النَّقْبِ، وَهُوَ أَنْ يَتَنَقَّبَ خُفَّ الْبَعِيرِ.

قَالَ:

مَا مَسَّهَا مِنْ نَقَبٍ وَلَا دَبَـــــــــــــــرْ

وَالْمَعْنَى: فَنَقَبَتْ أَخْفَافُ إِبِلِهِمْ، أَوْ: حَفِيتْ أَقْدَامُهُمْ وَنَقَبَتْ، كَمَا تُنَقَّبُ أَخْفَافُ الْإِبِلِ لِكَثْرَةِ طَوْفِهِمْ فِي الْبِلَادِ.

﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾[5] مِنَ اللَّهِ، أَوْ مِنَ الْمَوْتِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1]

﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[2]، أَيْ: قَلْبٍ وَاعٍ، لِأَنَّ مَنْ لَا يَعِي قَلْبُهُ فَكَأَنَّهُ لَا قَلْبَ لَهُ.

وَإِلْقَاءُ السَّمْعِ: الْإِصْغَاءُ.

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[3]، أَيْ: حَاضِرٌ بِفِطْنَتِهِ، لِأَنَّ مَنْ لَا يَحْضُرُ ذِهْنُهُ فَكَأَنَّهُ غَائِبٌ، وَقَدْ مَلِحَ الْإِمَامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ في قَوْلِهِ لِبَعْضِ مَنْ يَأْخُذُ عَنْهُ:

مَا شِئْتَ مِنْ زَهْزَهَةٍ وَالْفَتَى بِمُصْطَلَاباذٍ لِسَقْيِ الزُّرُوعِ

أَوْ: وَهُوَ مُؤْمِنٌ شَاهِدٌ عَلَى صِحَّتِهِ وَأَنَّهُ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ، أَوْ وَهُوَ بَعْضُ الشُّهَدَاءِ في قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[4].]الْبَقَرَةُ: 143]

وَعَنْ قَتَادَةَ وَهُوَ شَاهِدٌ عَلَى صِدْقِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لِوُجُودِ نَعْتِهِ عِنْدَهُ وَقَرَأَ السُّدِّيُّ وَجَمَاعَةٌ: (أُلْقِيَ السَّمْعُ)، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

وَمَعْنَاهُ: لِمَنْ أَلْقَى غَيْرَهُ السَّمْعَ وَفَتَحَ لَهُ أُذُنَهُ فَحَسْبُ وَلَمْ يَحْضُرْ ذِهْنُهُ وَهُوَ حَاضِرُ الذِّهْنِ مُتَفَطِّنٌ. وَقِيلَ: أَلْقَى سَمْعَهُ أَوِ السَّمْعَ مِنْهُ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾[5]

اللُّغُوبُ: الْإِعْيَاءُ، وَقُرِئَ بِالْفَتْحِ بِزِنَةِ الْقَبُولِ وَالْوُلُوعِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

قِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ –لُعِنَتْ– تَكْذِيبًا لِقَوْلِهِمْ: خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، أَوَّلُهَا الْأَحَدُ، وَآخِرُهَا الْجُمُعَةُ، وَاسْتَرَاحَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَاسْتَلْقَى عَلَى الْعَرْشِ، وَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي وَقَعَ مِنَ التَّشْبِيهِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِنَّمَا وَقَعَ مِنَ الْيَهُودِ، وَمِنْهُمْ أَخَذَ.

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍيَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾[1]

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾[2]، أَيِ الْيَهُودُ وَيَأْتُونَ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّشْبِيهِ. وَقِيلَ: فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ، فَإِنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ الْعَالَمِ قَدَرَ عَلَى بَعْثِهِمْ وَالِانْتِقَامِ مِنْهُمْ.

وَقِيلَ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ. وَقِيلَ: الصَّبْرُ مَأْمُورٌ بِهِ فِي كُلِّ حَالٍ.

﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[3] حَامِدًا رَبَّكَ، وَالتَّسْبِيحُ مَحْمُولٌ عَلَى ظَاهِرِهِ أَوْ عَلَى الصَّلَاةِ، فَالصَّلَاةُ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾[4] الْفَجْرُ، ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾[5] الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ، ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾[6] الْعِشَاآنِ.

وَقِيلَ: التَّهَجُّدُ.

﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾[7]: التَّسْبِيحُ فِي آثَارِ الصَّلَوَاتِ، وَالسُّجُودُ وَالرُّكُوعُ يُعَبَّرُ بِهِمَا عَنِ الصَّلَاةِ.

وَقِيلَ: النَّوَافِلُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَاتِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

وَعَنْ –عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: الرَّكْعَتَانِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ.

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ صَلَّى بَعْدَ الْمَغْرِبِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ كُتِبَتْ صَلَاتُهُ فِي عِلِّيِّينَ".

وَعَن ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: الْوِتْرُ بَعْدَ الْعَشَاءِ. وَالْأَدْبَارُ: جَمْعُ دُبُرٍ.

وَقُرِئَ: (وَأَدْبَارَ) مِنْ أَدْبَرَتِ الصَّلَاةُ إِذَا انْقَضَتْ وَتَمَّتْ.

وَمَعْنَاهُ: وَوَقْتُ انْقِضَاءِ السُّجُودِ، كَقَوْلِهِمْ: آتِيكَ خُفُوقَ النَّجْمِ.

﴿وَاسْتَمِعْ﴾[1]: يَعْنِي وَاسْتَمِعْ لِمَا أَخْبَرَكَ بِهِ مِنْ حَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَفِي ذَلِكَ تَهْوِيلٌ وَتَعْظِيمٌ لِشَأْنِ الْمُخْبَرِ بِهِ وَالْمُحَدَّثِ عَنْهُ، كَمَا يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ قَالَ سَبْعَةُ أَيَّامٍ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: "يَا مُعَاذُ اسْمَعْ مَا أَقُولُ لَكَ"، ثُمَّ حَدَّثَهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ انْتَصَبَ الْيَوْمَ؟

قُلْتُ: بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾[2]، أَيْ: يَوْمُ يُنَادِي الْمُنَادِي يُخْرَجُونَ مِنَ الْقُبُورِ.

وَيَوْمَ يَسْمَعُونَ: بَدَلٌ مِنْ ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾[3]، وَ﴿الْمُنَادِ﴾ [4]إِسْرَافِيلُ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَيُنَادِي: أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ وَالْأَوْصَالُ الْمُنْقَطِعَةُ وَاللُّحُومُ الْمُتَمَزِّقَةُ وَالشُّعُورُ الْمُتَفَرِّقَةُ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُنَّ أَنْ تَجْتَمِعْنَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ.

وَقِيلَ: إِسْرَافِيلُ يَنْفُخُ وَجِبْرِيلُ يُنَادِي بِالْحَشْرِ ﴿مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾[5] مِنْ صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَهِيَ أَقْرَبُ الْأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ بِاثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا، وَهِيَ وَسَطُ الْأَرْضِ.

وَقِيلَ: مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِهِمْ. وَقِيلَ: مِنْ مَنَابِتِ شُعُورِهِمْ يُسْمَعُ مِنْ كُلِّ شَعْرَةٍ: أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ،

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَ﴿الصَّيْحَةَ﴾[1]: النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ ﴿بِالْحَقِّ﴾[2] مُتَعَلِّقٌ بِالصَّيْحَةِ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْبَعْثُ وَالْحَشْرُ لِلْجَزَاءِ.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[3]

وَقُرِئَ: (تَشَقَّقُ) وَتَشَّقُّقُ بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الشِّينِ، وَتُشَقَّقُ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، وَتَنْشَقُّ ﴿سِرَاعًا﴾[4] حَالٌ مِنَ الْمَجْرُورِ.

﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[5] تَقْدِيمُ الظَّرْفِ يَدُلُّ عَلَى الِاخْتِصَاصِ، يَعْنِي: لَا يَتَيَسَّرُ مِثْلُ ذَلِكَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ إِلَّا عَلَى الْقَادِرِ الذَّاتِ الَّذِي لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[6]]لُقْمَانُ: 28 .[

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾[7]

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾[8]: تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَتَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

﴿بِجَبَّارٍ﴾[1] كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾[2]، [الْغَاشِيَةُ: 22] حَتَّى تَقْسِرَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، إِنَّمَا أَنْتَ دَاعٍ وَبَاعِثٌ.

وَقِيلَ: أُرِيدَ التَّحَلُّمُ عَنْهُمْ وَتَرْكُ الْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ جَبْرِهِ عَلَى الْأَمْرِ بِمَعْنَى أَجْبَرَهُ عَلَيْهِ، أَيْ: مَا أَنْتَ بِوَالٍ عَلَيْهِمْ تُجْبِرُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ.

وَعَلَى بِمَنْزِلَتِهِ فِي قَوْلِكَ: هُوَ عَلَيْهِمْ، إِذَا كَانَ وَالِيهِمْ وَمَالُكُ أَمْرِهِمْ ﴿مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾[3] كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾[4]،]النَّازِعَاتُ: 45] لِأَنَّهُ لَا يَنْفَعُ إِلَّا فِيهِ دُونَ الْمُصِرِّ عَلَى الْكُفْرِ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ق هَوَّنَ اللَّهُ عَلَيْهِ تَارَّاتِ الْمَوْتِ وَسَكَرَاتِهِ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

سورة الذاريات

مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا 60
[نَزَلَتْ بَعْدَ الْأَحْقَافِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا
إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾[1]

﴿وَالذَّرِيَاتِ﴾[2] الرِّيَاحُ، لِأَنَّهَا تَذْرُو التُّرَابَ وَغَيْرَهُ. قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى-: ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾[3]]الْكَهْفُ: 45].

وَقُرِئَ بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الذَّالِ.

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾[4] السَّحَابُ، لِأَنَّهَا تَحْمِلُ الْمَطَرَ.

وَقُرِئَ: (وَقْرًا) بِفَتْحِ الْوَاوِ عَلَى تَسْمِيَةِ الْمَحْمُولِ بِالْمَصْدَرِ، أَوْ عَلَى إِيقَاعِهِ مَوْقِعَ حَمْلًا.

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾[5] الْفُلْكُ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .

وَمَعْنَى ﴿يُسْرًا﴾[1]: جَرْيًا ذَا يُسْرٍ، أَيْ: ذَا سُهُولَةٍ.

﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾[2] الْمَلَائِكَةُ، لِأَنَّهَا تُقَسِّمُ الْأُمُورَ مِنَ الْأَمْطَارِ وَالْأَرْزَاقِ وَغَيْرِهَا، أَوْ تَفْعَلُ التَّقْسِيمَ مَأْمُورَةً بِذَلِكَ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: تَتَوَلَّى تَقْسِيمَ أَمْرِ الْعِبَادِ :جِبْرِيلُ لِلْغِلْظَةِ، وَمِيكَائِيلُ لِلرَّحْمَةِ، وَمَلَكُ الْمَوْتِ لَقَبْضِ الْأَرْوَاحِ، وَإِسْرَافِيلُ لِلنَّفْخِ.

وَعَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: سَلُونِي قَبْلَ أَنْ لَا تَسْأَلُونِي، وَلَنْ تَسْأَلُوا بَعْدِي مِثْلِي، فَقَامَ ابْنُ الْكَوَّاءِ، فَقَالَ: مَا الذَّرِيَاتُ ذَرْوًا؟ قَالَ: الرِّيَاحُ. قَالَ: فَالْحَامِلَاتُ وِقْرًا؟ قَالَ السَّحَابُ. قَالَ: فَالْجَارِيَاتُ يُسْرًا؟ قَالَ: الْفُلْكُ. قَالَ فَالْمُقَسِّمَاتُ أَمْرًا؟ قَالَ: الْمَلَائِكَةُ وَكَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: (الْمُقَسِّمَاتُ): السَّحَابُ، يُقَسِّمُ اللَّهُ بِهَا أَرْزَاقَ الْعِبَادِ، وَقَدْ حُمِلَتْ عَلَى الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: الرِّيَاحُ لَا غَيْرُ، لِأَنَّهَا تُنْشِئُ السَّحَابَ وَتُقِلُّهُ وَتَصْرِفُهُ، وَتَجْرِي فِي الْجَوِّ جَرْيًا سَهْلًا، وَتُقَسِّمُ الْأَمْطَارَ بِتَصْرِيفِ السَّحَابِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى الْفَاءِ عَلَى التَّفْسِيرَيْنِ؟

قُلْتُ: أَمَّا عَلَى الْأَوَّلِ فَمَعْنَى التَّعْقِيبِ فِيهَا أَنَّهُ –تَعَالَى– أَقْسَمَ بِالرِّيَاحِ، فَبِالسَّحَابِ الَّذِي تَسُوقُهُ، فَبِالْفُلْكِ الَّتِي تُجْرِيهَا بِهُبُوبِهَا، فَبِالْمَلَائِكَةِ الَّتِي تُقَسِّمُ الْأَرْزَاقَ بِإِذْنِ اللَّهِ مِنَ الْأَمْطَارِ وَتِجَارَاتِ الْبَحْرِ وَمَنَافِعِهِ.

وَأَمَّا عَلَى الثَّانِي، فَلِأَنَّهَا تَبْتَدِئُ بِالْهُبُوبِ، فَتَذْرُوا التُّرَابَ وَالْحَصْبَاءَ، فَتَنْقُلُ السَّحَابَ، فَتَجْرِي فِي الْجَوِّ بَاسِطَةً لَهُ فَتُقَسِّمَ الْمَطَرَ.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾[3]: جَوَابُ الْقَسَمِ، وَمَا مَوْصُولَةٌ أَوْ مَصْدَرِيَّةٌ، وَالْمَوْعُودُ: الْبَعْثُ.

وَوَعْدٌ صَادِقٌ: كَعِيشَةٍ رَاضِيَةٍ. وَالدِّينُ: الْجَزَاءُ. وَالْوَاقِعُ: الْحَاصِلُ.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾[1]

الْحُبُكِ" الطَّرَائِقِ، مِثْلُ حَبَكَ الرَّمْلَ وَالْمَاءَ: إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ، وَكَذَلِكَ حَبَكَ الشَّعْرَ: آثَارٌ تُثْنِيهِ وَتَكْسِرُهُ.

قَالَ زُهَيْرُ:

مُكَلَّلٌ بِأُصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ رِيحٌ خَرِيقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حُبُكُ

وَالدِّرْعُ مَحْبُوكَةٌ، لِأَنَّ حَلْقَهَا مُطْرِقٌ طَرَائِقَ.

وَيُقَالُ: إِنَّ خَلْقَهُ السَّمَاءَ كَذَلِكَ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: حَبَكَهَا نُجُومُهَا. وَالْمَعْنَى: أَنَّهَا تُزَيِّنُهَا كَمَا تُزَيِّنُ الْمُوَشَّى طَرَائِقَ الْوَشْيِ.

وَقِيلَ: حَبْكُهَا صِفَاتُهَا وَإِحْكَامُهَا، مِنْ قَوْلِهِمْ: فَرَسٌ مَحْبُوكُ الْمَعَاقِمِ، أَيْ: مُحْكِمُهَا. وَإِذَا أَجَادَ الْحَائِكُ الْحِيَاكَةَ قَالُوا: مَا أَحْسَنَ حَبْكَهُ، وَهُوَ جَمْعُ حِبَاكٍ، كَمِثَالٍ وَمَثَلٍ، أَوْ حَبِيكَةٍ، كَطَرِيقَةٍ وَطُرُقٍ.

وَقُرِئَ: (الْحُبْكِ) بِوَزْنِ الْقُفْلِ. وَالْحِبْكُ، بِوَزْنِ السِّلْكِ. وَالْحَبَكُ، بِوَزْنِ الْجَبَلِ. وَالْحَبْكُ بِوَزْنِ الْبَرْقِ. وَالْحِبَكُ بِوَزْنِ النِّعَمِ. وَالْحِبِكُ بِوَزْنِ الْإِبِلِ.

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾[2] قَوْلُهُمْ فِي الرَّسُولِ: سَاحِرٌ وَشَاعِرٌ وَمَجْنُونٌ، وَفِي الْقُرْآنِ: شِعْرٌ وَسِحْرٌ وَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

وَعَنِ الضَّحَّاكِ: قَوْلُ الْكَفَرَةِ لَا يَكُونُ مُسْتَوِيًا، إِنَّمَا هُوَ مُتَنَاقِضٌ مُخْتَلِفٌ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: مِنْكُمْ مُصَدِّقٌ وَمُكَذِّبٌ، وَمُقِرٌّ وَمُنْكِرٌ.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾[3]: الضَّمِيرُ لِلْقُرْآنِ وَلِلرَّسُولِ، أَيْ: يَصْرِفُ عَنْهُ، مِنْ صَرَفَ الصَّرْفَ الَّذِي لَا صَرْفَ أَشَدَّ مِنْهُ وَأَعْظَمَ، كَقَوْلِهِ: لَا يَهْلَكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: يَصْرِفُ عَنْهُ مَنْ صَرَفَ في سَابِقِ عِلْمِ اللَّهِ، أَيْ: عِلْمٌ فيمَا لَمْ يَزَلْ أَنَّهُ مَأْفُوكٌ عَنِ الْحَقِّ لَا يَرْعَوِي.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ لِمَا تُوعِدُونَ أَوْ لِلدِّينِ: أَقْسَمَ بِالذَّارِيَاتِ عَلَى أَنَّ وُقُوعَ أَمْرِ الْقِيَامَةِ حَقٌّ، ثُمَّ أَقْسَمَ بِالسَّمَاءِ عَلَى أَنَّهُمْ في قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ في وُقُوعِهِ، فَمِنْهُمْ شَاكٌّ، وَمِنْهُمْ جَاحِدٌ. ثُمَّ قَالَ: يُؤْفَكُ عَنِ الْإِقْرَارِ بِأَمْرِ الْقِيَامَةِ مَنْ هُوَ الْمَأْفُوكُ.

وَوَجْهٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنْ يَرْجِعَ الضَّمِيرُ إِلَى قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ وَعَنْ مِثْلِهِ في قَوْلِهِ:

يَنْهَوْنَ عَنْ أَكْلٍ وَعَنْ شُـــــــــرْبِ

أَيْ: يَتَنَاهَوْنَ في السَّمْنِ بِسَبَبِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ.

وَحَقِيقَتُهُ: يَصْدُرُ تَنَاهِيهِمْ في السَّمْنِ عَنْهُمَا، وَكَذَلِكَ يَصْدُرُ إِفْكُهُمْ عَنِ الْقَوْلِ الْمُخْتَلِفِ.

وَقَرَأَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ (يُؤْفَكُ عَنْهُ) مَنْ أُفِكَ، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ. أَيْ: مِنْ أَفِكَ النَّاسُ عَنْهُ وَهُمْ قُرَيْشٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الْحَيَّ كَانُوا يَبْعَثُونَ الرَّجُلَ ذَا الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ لِيَسْأَلَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فيقُولُونَ لَهُ: احْذَرْهُ، فيرْجِعُ فيخْبِرُهُمْ.

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ: يَأْفِكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ، أَيْ: يَصْرِفُ النَّاسَ عَنْهُ مَنْ هُوَ مَأْفُوكٌ في نَفْسِهِ. وَعَنْهُ أَيْضًا: يَأْفِكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ، أَيْ: يَصْرِفُ النَّاسَ عَنْهُ مَنْ هُوَ أَفَّاكٌ كَذَّابٌ.

وَقُرِئَ: (يُؤْفَنُ عَنْهُ مِنْ أُفِنَ) أَيْ: يَحْرِمُهُ مَنْ حُرِمَ، مِنْ أَفِنَ الضَّرْعُ إِذَا نَهَكَهُ حَلْبًا.

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾[1]

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾[2]: دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾[3]، [عَبَسَ: 17] وَأَصْلُهُ الدُّعَاءُ بِالْقَتْلِ وَالْهَلَاكِ، ثُمَّ جَرَى مَجْرَى: لَعَنَ وَقَبَّحَ .

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَالْخَرَّاصُونَ: الْكَذَّابُونَ الْمُقَدِّرُونَ مَا لَا يَصِحُّ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْمُخْتَلِفِ، وَاللَّامُ إِشَارَةٌ إِلَيْهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: قُتِلَ هَؤُلَاءِ الْخَرَّاصُونَ.

وَقُرِئَ: (قَتَلَ الْخَرَّاصِينَ)، أَيْ: قَتَلَ اللَّهُ.

﴿فِي غَمْرَةٍ﴾[1]: في جَهْلٍ يَغْمُرُهُمْ.

﴿سَاهُونَ﴾[2]: غَافِلُونَ عَمَّا أُمِرُوا بِهِ.

﴿يُسْئَلُونَ﴾[3] فيقُولُونَ: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾[4]، أَيْ: مَتَى يَوْمُ الْجَزَاءِ؟

وَقُرِئَ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَهِيَ لُغَةٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ وَقَعَ أَيَّانَ ظَرْفًا لِلْيَوْمِ، وَإِنَّمَا تَقَعُ الْأَحْيَانُ ظُرُوفًا لِلْحِدْثَانِ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: أَيَّانَ وُقُوعُ يَوْمِ الدِّينِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَبِمَ انْتَصَبَ الْيَوْمُ الْوَاقِعُ فِي الْجَوَابِ؟

قُلْتُ: بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ دَلَّ عَلَيْهِ السُّؤَالُ، أَيْ: يَقَعُ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْتُوحًا لِإِضَافَتِهِ إِلَى غَيْرِ مُتَمَكِّنٍ وَهِيَ الْجُمْلَةُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَحَلُّهُ مَفْتُوحًا؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَحَلَّهُ نَصْبًا بِالْمُضْمَرِ الَّذِي هُوَ يَقَعُ، وَرَفْعًا عَلَى هُوَ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ.

وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عَبْلَةَ بِالرَّفْعِ (يُفْتَنُونَ) يَحْرُقُونَ وَيُعَذَّبُونَ. وَمِنْهُ الْفِتِينِ: وَهِيَ الْحُرَّةُ، لِأَنَّ حِجَارَتَهَا كَأَنَّهَا مُحْرِقَةٌ.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾[5] في مَحَلِّ الْحَالِ، أَيْ: مَقُولًا لَهُمْ هَذَا الْقَوْلَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿هَذَا﴾[1] مُبْتَدَأٌ، وَ﴿الَّذِي﴾[2] خَبَرُهُ، أَيْ: هَذَا الْعَذَابُ هُوَ الَّذِي ﴿كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾[3].

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿هَذَا﴾[4] بَدَلًا مِنْ ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾[5]، أَيْ: ذُوقُوا هَذَا الْعَذَابَ.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[6]

﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾[7]: قَابِلِينَ لِكُلِّ مَا أَعْطَاهُمْ رَاضِينَ بِهِ، يَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ فِيمَا آتَاهُمْ إِلَّا مَا هُوَ مُلْتَقَى بِالْقَبُولِ مُرْضًى غَيْرَ مَسْخُوطٍ، لِأَنَّ جَمِيعَهُ حَسَنٌ طَيِّبٌ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾[8]،]التَّوْبَةُ: 1044] أَيْ يَقْبَلُهَا وَيَرْضَاهَا.

﴿مُحْسِنِينَ﴾[9] قَدْ أَحْسَنُوا أَعْمَالَهُمْ، وَتَفْسِيرُ إِحْسَانِهِمْ مَا بَعْدَهُ ﴿مَا﴾[10] مَزِيدَةٌ.

وَالْمَعْنَى: كَانُوا يَهْجَعُونَ فِي طَائِفَةٍ قَلِيلَةٍ مِنَ اللَّيْلِ إِنْ جَعَلْتَ قَلِيلًا ظَرْفًا، وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَهُ صِفَةً لِلْمَصْدَرِ، أَيْ: كَانُوا يَهْجَعُونَ هُجُوعًا قَلِيلًا.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .
[10] سورة ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ ﴿مَا﴾[1] مَصْدَرِيَّةً أَوْ مَوْصُولَةً، عَلَى: كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ هُجُوعُهُمْ، أَوْ مَا يَهْجَعُونَ فِيهِ، وَارْتِفَاعُهُ بِـ ﴿قَلِيلًا﴾[2] عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ. وَفِيهِ مُبَالَغَاتُ لَفْظِ الْهُجُوعِ، وَهُوَ الْفِرَارُ مِنَ النَّوْمِ.

قَالَ:

قَدْ حَصَتِ الْبَيْضَةُ رَأْسِي فَمَا أَطْعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعِ

وَقَوْلُهُ: ﴿قَلِيلًا﴾[3] وَ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾[4]، لِأَنَّ اللَّيْلَ وَقْتُ السُّبَاتِ وَالرَّاحَةِ، وَزِيَادَةُ ﴿مَا﴾[5] الْمُؤَكِّدَةِ لِذَلِكَ: وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ يُحْيُونَ اللَّيْلَ مُتَهَجِّدِينَ، فَإِذَا أَسْحَرُوا أَخَذُوا فِي الِاسْتِغْفَارِ، كَأَنَّهُمْ أَسْلَفُوا فِي لَيْلِهِمُ الْجَرَائِمَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[6] فِيهِ أَنَّهُمْ هُمُ الْمُسْتَغْفِرُونَ الْأَحِقَّاءُ بِالِاسْتِغْفَارِ دُونَ الْمُصِرِّينَ، فَكَأَنَّهُمُ الْمُخْتَصُّونَ بِهِ لِاسْتِدَامَتِهِمْ لَهُ وَإِطْنَابِهِمْ فِيهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَا نَافِيَةً كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ، وَأَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ لَا يَهْجَعُونَ مِنَ اللَّيْلِ قَلِيلًا، وَيُحْيُونَهُ كُلَّهُ؟

قُلْتُ: لَا، لِأَنَّ مَا النَّافِيَةَ لَا يَعْمَلُ مَا بَعْدَهَا فِيمَا قَبْلَهَا. تَقُولُ: زَيْدًا لَمْ أَضْرِبْ، وَلَا تَقُولُ: زَيْدًا مَا ضَرَبْتُ: السَّائِلُ: الَّذِي يَسْتَجْدِي.

﴿وَالْمَحْرُومِ﴾[7] الَّذِي يَحْسَبُ غَنِيًّا فَيَحْرَمُ الصَّدَقَةَ لِتَعَفُّفِهِ.

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ الْأَكْلَةُ وَالْأَكْلَتَانِ وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ"، قَالُوا: فَمَا هُوَ؟، قَالَ: "الَّذِي لَا يَجِدُ وَلَا يُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ". وَقِيلَ: الَّذِي لَا يُنَمَّى لَهُ مَالٌ.

وَقِيلَ: الْمَحَارِفُ الَّذِي لَا يَكَادُ يَكْسِبُ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[1]

﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ﴾[2] تَدُلُّ عَلَى الصَّانِعِ وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ حَيْثُ هِيَ مَدْحُوَّةٌ كَالْبِسَاطِ لِمَا فَوْقَهَا، كَمَا قَالَ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾[3]،]طه: 53] وَفِيهَا الْمَسَالِكُ وَالْفِجَاجُ لِلْمُتَقَلِّبِينَ فِيهَا وَالْمَاشِينَ فِي مَنَاكِبِهَا، وَهِيَ مُجَزَّأَةٌ: فَمِنْ سَهْلٍ وَجَبَلٍ وَبَرٍّ وَبَحْرٍ: وَقِطَعٍ مُتَجَاوِرَاتٍ: مِنْ صَلْبَةٍ وَرَخْوَةٍ، وَعَذَاةٍ وَسَبْخَةٍ، وَهِيَ كَالطَّرُوقَةِ تُلَقِّحُ بِأَلْوَانِ النَّبَاتَ وَأَنْوَاعِ الْأَشْجَارِ بِالثِّمَارِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾[4]،]الرَّعْدُ: 44] وَكُلُّهَا مُوَافِقَةٌ لِحَوَائِجِ سَاكِنِيهَا وَمَنَافِعِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ فِي صِحَّتِهِمْ وَاعْتِلَالِهِمْ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ الْمُتَفَجِّرَةِ وَالْمَعَادِنِ الْمُفَنِّنَةِ وَالدَّوَابِّ الْمُنْبَثَّةِ فِي بَرِّهَا وَبَحْرِهَا الْمُخْتَلِفَةِ الصُّوَرِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَفْعَالِ: مِنَ الْوَحْشِيِّ وَالْإِنْسِيِّ وَالْهَوَامِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

﴿لِلْمُوقِنِينَ﴾[5] الْمُوَحِّدِينَ الَّذِينَ سَلَكُوا الطَّرِيقَ السَّوِيَّ الْبُرْهَانِيَّ الْمُوصِلَ إِلَى الْمَعْرِفَةِ، فَهُمْ نَظَّارُونَ بِعُيُونٍ بَاصِرَةٍ وَأَفْهَامٍ نَافِذَةٍ، كُلَّمَا رَأَوْا آيَةً عَرَفُوا وَجْهَ تَأَمُّلِهَا، فَازْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ، وَإِيقَانًا إِلَى إِيقَانِهِمْ.

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾[6] فِي حَالِ ابْتِدَائِهَا وَتَنَقُّلِهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَفِي بَوَاطِنِهَا وَظَوَاهِرِهَا مِنْ عَجَائِبِ الْفِطَرِ وَبَدَائِعِ الْخَلْقِ: مَا تَتَحَيَّرُ فِيهِ الْأَذْهَانُ، وَحَسْبُكَ بِالْقُلُوبِ وَمَا رُكِّزَ فِيهَا مِنَ الْعُقُولِ وَخُصَّتْ بِهِ مِنْ أَصْنَافِ الْمَعَانِي، وَبِالْأَلْسُنِ، وَالنُّطْقِ، وَمَخَارِجِ الْحُرُوفِ، وَمَا فِي تَرْكِيبِهَا وَتَرْتِيبِهَا وَلَطَائِفِهَا: مِنَ الْآيَاتِ السَّاطِعَةِ وَالْبَيِّنَاتِ الْقَاطِعَةِ عَلَى حِكْمَةِ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

الْمُدَبِّرِ، دَعِ الْأَسْمَاعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَطْرَافَ وَسَائِرَ الْجَوَارِحِ وَتَأْتِيهَا لِمَا خُلِقَتْ لَهُ، وَمَا سَوَّى فِي الْأَعْضَاءِ مِنَ الْمَفَاصِلِ لِلِانْعِطَافِ وَالتَّثَنِّي. فَإِنَّهُ إِذَا جَسَا شَيْءٌ مِنْهَا جَاءَ الْعَجْزُ، وَإِذَا اسْتَرْخَى أَنَاخَ الذُّلَّ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾[1]

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾[2] هُوَ الْمَطَرُ، لِأَنَّهُ سَبَبُ الْأَقْوَاتِ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: هُوَ الثَّلْجُ وَكُلُّ عَيْنٍ دَائِمَةٍ مِنْهُ.

وَعَنِ الْحَسَنِ :أَنَّهُ كَانَ إِذَا رَأَى السَّحَابَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: فِيهِ وَاللَّهِ رِزْقُكُمْ، وَلَكِنَّكُمْ تُحْرَمُونَهُ لِخَطَايَاكُمْ

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾[3] الْجَنَّةُ: هِيَ عَلَى ظَهْرِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ تَحْتَ الْعَرْشِ، أَوْ أَرَادَ: أَنَّ مَا تُرْزَقُونَهُ فِي الدُّنْيَا وَمَا تُوعَدُونَ بِهِ فِي الْعُقْبَى كُلُّهُ مَكْتُوبٌ فِي السَّمَاءِ. قُرِئَ: (مَثَلُ مَا) بِالرَّفْعِ صِفَةٌ لِلْحَقِّ، أَيْ: حَقٌّ مِثْلُ نُطْقِكُمْ، وَبِالنَّصْبِ عَلَى: إِنَّهُ لَحَقَّ حَقًّا مِثْلَ نُطْقِكُمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فَتْحًا لِإِضَافَتِهِ إِلَى غَيْرِ مُتَمَكِّنٍ. وَمَا مَزِيدَةٌ بِنَصِّ الْخَلِيلِ، وَهَذَا كَقَوْلِ النَّاسِ: إِنَّ هَذَا لَحَقٌّ، كَمَا أَنَّكَ تَرَى وَتَسْمَعُ، وَمِثْلَ مَا إِنَّكَ هَاهُنَا.

وَهَذَا الضَّمِيرُ إِشَارَةٌ إِلَى مَا ذَكَرَ مِنْ أَمْرِ الْآيَاتِ وَالرِّزْقِ وَأَمْرِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، أَوْ إِلَى مَا تُوعَدُونَ.

وَعَنِ الْأَصْمَعِيِّ: أَقْبَلْتُ مِنْ جَامِعِ الْبَصْرَةِ فَطَلَعَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قُعُودٍ لَهُ فَقَالَ: مِمَّنِ الرَّجُلُ؟ قُلْتُ: مَنْ بَنِي أَصْمَعَ. قَالَ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قُلْتُ: مِنْ مَوْضِعٍ يُتْلَى فِيهِ كَلَامُ الرَّحْمَنِ. فَقَالَ: اتْلُ عَلَيَّ، فَتَلَوْتُ ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾[4]. فَلَمَّا بَلَغْتُ قَوْلَهُ –تَعَالَى–:

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾[1]، قَالَ: حَسْبُكَ، فَقَامَ إِلَى نَاقَتِهِ فَنَحَرَهَا وَوَزَّعَهَا عَلَى مَنْ أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، وَعَمَدَ إِلَى سَيْفِهِ وَقَوْسِهِ فَكَسَرَهُمَا وَوَلَّى. فَلَمَّا حَجَجْتُ مَعَ الرَّشِيدِ طَفِقْتُ أَطُوفُ، فَإِذَا أَنَا بِمَنْ يَهْتِفُ بِي بِصَوْتٍ دَقِيقٍ، فَالْتَفَتَ فَإِذَا أَنَا بِالْأَعْرَابِيِّ قَدْ نَحَلَ وَاصْفَرَّ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ وَاسْتَقْرَأَ السُّورَةَ. فَلَمَّا بَلَغَتِ الْآيَةُ صَاحَ وَقَالَ: قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، ثُمَّ قَالَ: وَهَلْ غَيْرُ هَذَا؟ فَقَرَأْتُ: فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ، فَصَاحَ وَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ، مَنْ ذَا الَّذِي أَغْضَبَ الْجَلِيلَ حَتَّى حَلَفَ، لَمْ يُصَدِّقُوهُ بِقَوْلِهِ حَتَّى أَلْجَئُوهُ إِلَى الْيَمِينِ، قَالَهَا ثَلَاثًا وَخَرَجَتْ مَعَهَا نَفْسُهُ.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾[2]

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾[3] تَفْخِيمٌ لِلْحَدِيثِ وَتَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مَنْ عِلْمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّمَا عَرَّفَهُ بِالْوَحْيِ. وَالضَّيْفُ لِلْوَاحِدِ وَالْجَمَاعَةِ كَالزُّورِ وَالصَّوْمِ، لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ ضَافَهُ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ مَلِكًا. وَقِيلَ: تِسْعَةٌ عَاشِرُهُمْ جِبْرِيلُ.

وَقِيلَ ثَلَاثَةٌ: جِبْرِيلُ، وَمِيكَائِيلُ، وَمَلَكٌ مَعَهُمَا. وَجَعَلَهُمْ ضَيْفًا، لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي صُورَةِ الضَّيْفِ: حَيْثُ أَضَافَهُمْ إِبْرَاهِيمُ، أَوْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي حُسْبَانِهِ كَذَلِكَ.

وَإِكْرَامُهُمْ: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَدَمَهُمْ بِنَفْسِهِ، وَأَخْدَمَهُمُ امْرَأَتُهُ، وَعَجَّلَ لَهُمُ الْقِرَى أَوْ أَنَّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مُكَرَّمُونَ. قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾[4]]الْأَنْبِيَاءُ: 26.[

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿ إِذْ دَخَلُوا﴾[1] نُصِبَ بِالْمُكَرَّمِينَ إِذَا فَسَّرَ بِإِكْرَامِ إِبْرَاهِيمَ لَهُمْ، وَإِلَّا فَبِمَا فِي ضَيْفٍ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ، أَوْ بِإِضْمَارِ أَذْكُرُ "سَلَامًا" مَصْدَرٌ سَادٌّ مَسَدَّ الْفِعْلِ مُسْتَغْنًى بِهِ عَنْهُ.

وَأَصْلُهُ: نُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ سَلَامًا، وَأَمَّا "سَلَامٌ" فَمَعْدُولٌ بِهِ إِلَى الرَّفْعِ عَلَى الِابْتِدَاءِ. وَخَبَرُهُ مَحْذُوفٌ، مَعْنَاهُ: عَلَيْكُمْ سَلَامٌ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى ثَبَاتِ السَّلَامِ، كَأَنَّهُ قَصَدَ أَنْ يُحَيِّيَهُمْ بِأَحْسَنِ مِمَّا حَيَّوْهُ بِهِ، أَخْذًا بِأَدَبِ اللَّهِ تَعَالَى. وَهَذَا أَيْضًا مِنْ إِكْرَامِهِ لَهُمْ. وَقُرِئَا مَرْفُوعَيْنِ.

وَقُرِئَ: (سَلَامًا قَالَ سَلْمًا) وَالسِّلْمَ: السَّلَامُ. وَقُرِئَ: (سَلَامًا قَالَ سَلْمٌ.

﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾[2]: أَنْكَرَهُمْ لِلسَّلَامِ الَّذِي هُوَ عِلْمُ الْإِسْلَامِ، أَوْ أَرَادَ: أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ مَعَارِفِهِ أَوْ مِنْ جِنْسِ النَّاسِ الَّذِينَ عَهِدَهُمْ، كَمَا لَوْ أَبْصَرَ الْعَرَبُ قَوْمًا مِنَ الْخَزَرِ أَوْ رَأَى لَهُمْ حَالًا وَشَكْلًا خِلَافَ حَالِ النَّاسِ وَشَكْلِهِمْ، أَوْ كَانَ هَذَا سُؤَالًا لَهُمْ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَنْتُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ، فَعَرِّفُونِي مَنْ أَنْتُمْ.

﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾[3] فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ فِي خُفْيَةٍ مِنْ ضُيُوفِهِ، وَمِنْ أَدَبِ الْمُضِيفِ أَنْ يُخْفِيَ أَمْرَهُ، وَأَنْ يُبَادِرَهُ بِالْقِرَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ الضَّيْفُ، حَذَرًا مِنْ أَنْ يَكُفَّهُ وَيَعْذُرَهُ.

قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ عَامَّةُ مَالِ نَبِيِّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ: الْبَقَرُ، ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[4].

وَالْهَمْزَةُ فِي ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾[5] لِلْإِنْكَارِ: أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَرْكَ الْأَكْلِ، أَوْ حَثَّهُمْ عَلَيْهِ "فَأَوْجَسَ" فَأَضْمَرَ. وَإِنَّمَا خَافَهُمْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَحَرَّمُوا بِطَعَامِهِ فَظَنَّ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ بِهِ سُوآ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ أُرْسِلُوا لِلْعَذَابِ.

وَعَنْ عَوْنِ بْنِ شَدَّادٍ: مَسَحَ جِبْرِيلُ الْعِجْلَ بِجَنَاحِهِ فَقَامَ يَدْرِجُ حَتَّى لَحِقَ بِأُمِّهِ.

﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[6]، أَيْ يَبْلُغُ وَيَعْلَمُ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: عَلِيمٌ: نَبِيٌّ، وَالْمُبَشَّرُ بِهِ إِسْحَاقُ، وَهُوَ أَكْثَرُ الْأَقَاوِيلِ وَأَصَحُّهَا، لِأَنَّ الصِّفَةَ صِفَةُ سَارَّةَ لَا هَاجَرَ، وَهِيَ امْرَأَةُ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ بِعْلُهَا.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: هُوَ إِسْمَاعِيلُ ﴿فِي صَرَّةٍ﴾[1] فِي صَيْحَةٍ، مِنْ: صَرَّ الْجُنْدُبُ، وَصَرَّ الْقَلَمُ وَالْبَابُ، وَمَحَلُّهُ النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ، أَيْ: فَجَاءَتْ صَارَّةً.

قَالَ الْحَسَنُ: أَقْبَلَتْ إِلَى بَيْتِهَا وَكَانَتْ فِي زَاوِيَةٍ تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، لِأَنَّهَا وَجَدَتْ حَرَارَةَ الدَّمِ فَلَطَمَتْ وَجْهَهَا مِنَ الْحَيَاءِ.

وَقِيلَ: فَأَخَذَتْ فِي صَرَّةٍ، كَمَا تَقُولُ: أَقْبَلَ يَشْتُمُنِي. وَقِيلَ: صَرَّتْهَا قَوْلُهَا: أَوَّهْ. وَقِيلَ: يَا وَيْلَتَا.

وَعَنْ عِكْرِمَةَ: رَنَّتُهَا.

﴿فَصَكَّتْ﴾[2] فَلَطَمَتْ بِبَسْطِ يَدَيْهَا. وَقِيلَ: فَضَرَبَتْ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهَا جَبْهَتَهَا فِعْلُ الْمُتَعَجِّبِ.

﴿عَجُوزٌ﴾[3]: أَنَا عَجُوزٌ، فَكَيْفَ أَلِدُ ﴿كَذَلِكِ﴾[4] مِثْلُ ذَلِكَ الَّذِي قُلْنَا وَأَخْبَرَنَا بِهِ؟

﴿قَالَ رَبُّكِ﴾[5]، أَيْ: إِنَّمَا نُخْبِرُكَ عَنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَا تَسْتَبْعِدِينَ.

وَرُوِيَ أَنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لَهَا: انْظُرِي إِلَى سَقْفِ بَيْتِكِ، فَنَظَرَتْ فَإِذَا جُذُوعُهُ مُورِقَةٌ مُثْمِرَةٌ.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[6]

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ وَأَنَّهُمْ لَا يَنْزِلُونَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ رُسُلًا في بَعْضِ الْأُمُورِ، ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾[1]، أَيْ: فَمَا شَأْنُكُمْ وَمَا طَلَبُكُمْ.

﴿إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾[2]: إِلَى قَوْمِ لُوطٍ.

﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾[3]، يُرِيدُ: السِّجِّيلَ، وَهُوَ طِينٌ طُبِخَ كَمَا يُطْبَخُ الْآجُرُّ، حَتَّى صَارَ في صَلَابَةِ الْحِجَارَةِ.

﴿مُسَوَّمَةً﴾[4] مُعَلَّمَةً، مِنَ السُّومَةِ، وَهِيَ الْعَلَامَةُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا اسْمُ مَنْ يَهْلَكُ بِهِ. وَقِيلَ: أَعْلَمْتُ بِأَنَّهَا مِنْ حِجَارَةِ الْعَذَابِ.

وَقِيلَ: بِعَلَامَةٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ حِجَارَةِ الدُّنْيَا. سَمَّاهُمْ مُسْرِفِينَ، كَمَا سَمَّاهُمْ عَادِينَ، لِإِسْرَافِهِمْ وَعُدْوَانِهِمْ في عَمَلِهِمْ: حَيْثُ لَمْ يَقْنَعُوا بِمَا أُبِيحَ لَهُمْ.

الضَّمِيرُ في ﴿فيها﴾[5] لِلْقَرْيَةِ، وَلَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ لِكَوْنِهَا مَعْلُومَةً. وَفيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ وَاحِدٌ، وَأَنَّهُمَا صِفَتَا مَدْحٍ.

قِيلَ: هُمْ لُوطٌ وَابْنَتَاهُ. وَقِيلَ: كَانَ لُوطُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ الَّذِينَ نَجَوْا ثَلَاثَةَ عَشْرَةَ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: لَوْ كَانَ فيها أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ لَأَنْجَاهُمْ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْإِيمَانَ مَحْفُوظٌ لَا ضَيْعَةَ عَلَى أَهْلِهِ عِنْدَ اللَّهِ.

﴿آيَةً﴾[6] عَلَامَةً يَعْتَبِرُ بِهَا الْخَائِفُونَ دُونَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ.

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: هِيَ صَخْرٌ مَنْضُودٌ فيها. وَقِيلَ: مَاءٌ أَسْوَدُ مُنْتِنٌ.

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[7]

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .

﴿وَفِي مُوسَى﴾[1] عَطِفَ عَلَى ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ﴾[2] أَوْ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾[3] عَلَى مَعْنَى: وَجَعَلْنَا في مُوسَى آيَةً كَقَوْلِهِ:

عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا

... .

﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾[4] فَازْوَرَّ، وَأَعْرَضَ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾[5]]فُصِّلَتْ: 51].

وَقِيلَ: فَتَوَلَّى بِمَا كَانَ يَتَقَوَّى بِهِ مِنْ جُنُودِهِ وَمُلْكِهِ.

وَقُرِئَ: (بِرُكْنِهِ)، بِضَمِّ الْكَافِ.

﴿وَقَالَ سَاحِرٌ﴾[6]، أَيْ هُوَ سَاحِرٌ.

﴿مُلِيمٌ﴾[7]: آتٍ بِمَا يُلَامُ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرِهِ وَعِنَادِهِ، وَالْجُمْلَةُ مَعَ الْوَاوِ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ في فَأَخَذْنَاهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ وُصِفَ نَبِيُّ اللَّهِ يُونُسُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمَا وُصِفَ بِهِ فِرْعَوْنُ في قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[8]]الصَّافَّاتُ: 1422]؟

قُلْتُ: مُوجِبَاتُ اللَّوْمِ تَخْتَلِفُ وَعَلَى حَسَبِ اخْتِلَافِهِمَا تَخْتَلِفُ مَقَادِيرُ اللَّوْمِ، فَرَاكِبُ الْكَبِيرَةِ مَلُومٌ عَلَى مِقْدَارِهَا، وَكَذَلِكَ مُقْتَرِفُ الصَّغِيرَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾[1]هُودٌ: 59[، ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾[2]،]طَه: 121[لِأَنَّ الْكَبِيرَةَ وَالصَّغِيرَةَ يَجْمَعُهُمَا اسْمُ الْعِصْيَانِ، كَمَا يَجْمَعُهُمَا اسْمُ الْقَبِيحِ وَالسَّيِّئَةِ.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾[3]

﴿الْعَقِيمَ﴾[4] الَّتِي لَا خَيْرَ فيها مِنْ إِنْشَاءِ مَطَرٍ أَوْ إِلْقَاحِ شَجَرٍ، وَهِيَ رِيحُ الْهَلَاكِ.

وَاخْتُلِفَ فيها: فَعَنْ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: النَّكْبَاءُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الدَّبُورُ. وَعَنِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ: الْجَنُوبُ.

الرَّمِيمُ: كُلُّ مَا رُمَّ أَيْ: بَلِيَ وَتَفَتَّتَ مِنْ عَظْمٍ أَوْ نَبَاتٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾[5]

﴿حَتَّى حِينٍ﴾[6]، تَفْسِيرُهُ: قَوْلُهُ: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾[7]،]هُودٌ: 65[﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾[8]، فَاسْتَكْبَرُوا عَنِ امْتِثَالِهِ.

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .
8 سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: (الصَّعْقَةُ)، وَهِيَ الْمَرَّةُ، مِنْ مَصْدَرِ صَعَقَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ: وَالصَّاعِقَةُ النَّازِلَةُ نَفْسُهَا.

﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾[1] كَانَتْ نَهَارًا يُعَايِنُونَهَا.

وَرُوِيَ أَنَّ الْعَمَالِقَةَ كَانُوا مَعَهُمْ فِي الْوَادِي يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ وَمَا ضَرَّتْهُمْ.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾[2] كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[3]]الْعَنْكَبُوتُ: 377].

وَقِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ: مَا يَقُومُ بِهِ، إِذَا عَجَزَ عَنْ دَفْعِهِ "مُنْتَصِرِينَ" مُمْتَنِعِينَ مِنَ الْعَذَابِ.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[4]

﴿وَقَوْمَ﴾[5]، قُرِئَ: بِالْجَرِّ عَلَى مَعْنَى: وَفِي قَوْمِ نُوحٍ وَتُقَوِّيهِ قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ: وَفِي قَوْمِ نُوحٍ.

وَبِالنَّصْبِ عَلَى مَعْنَى: وَأَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ، لِأَنَّ مَا قَبْلَهُ يَدُلُّ عَلَيْهِ، أَوْ وَاذْكُرْ قَوْمَ نُوحٍ.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾[6]

﴿بِأَيْدٍ﴾[7]: بِقُوَّةٍ. وَالْأَيْدُ وَالْآدُ. الْقُوَّةُ. وَقَدْ آدَ يَئِيدُ، وَهُوَ أَيَّدَ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[1]: لَقَادِرُونَ، مِنَ الْوُسْعِ وَهُوَ الطَّاقَةُ.

وَالْمُوَسَّعُ: الْقُوَى عَلَى الْإِنْفَاقِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: لَمُوسِّعُونَ الرِّزْقَ بِالْمَطَرِ. وَقِيلَ: جَعَلْنَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ سِعَةً.

﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾[2]: فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ نَحْنُ.

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3]

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾[4]، أَيْ: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْحَيَوَانِ.

﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[5]: ذَكَرًا وَأُنْثَى.

وَعَنِ الْحَسَنِ :السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ، وَالْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ، فَعَدَّدَ أَشْيَاءَ وَقَالَ: كُلُّ اثْنَيْنِ مِنْهَا زَوْجٌ، وَاللَّهُ –تَعَالَى– فَرْدٌ لَا مِثْلَ لَهُ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[6]، أَيْ: فَعَلْنَا ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ بِنَاءِ السَّمَاءِ وَفَرْشِ الْأَرْضِ وَخَلْقِ الْأَزْوَاجِ إِرَادَةَ أَنْ تَتَذَكَّرُوا فَتَعْرِفُوا الْخَالِقَ وَتَعْبُدُوهُ.

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[7]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[1]، أَيْ إِلَى طَاعَتِهِ وَثَوَابِهِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ وَعِقَابِهِ، وَوَحِّدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَكَرَّرَ قَوْلَهُ: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[2] عِنْدَ الْأَمْرِ بِالطَّاعَةِ وَالنَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ، لِيَعْلَمَ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَنْفَعُ إِلَّا مَعَ الْعَمَلِ، كَمَا أَنَّ الْعَمَلَ لَا يَنْفَعُ إِلَّا مَعَ الْإِيمَانِ، وَأَنَّهُ لَا يَفُوزُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا الْجَامِعُ بَيْنَهُمَا.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانُهَا خَيْرًا﴾[3].]الْأَنْعَامُ: 158]

وَالْمَعْنَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ :فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[4]

﴿كَذَلِكَ﴾[5] الْأَمْرُ، أَيْ: مِثْلُ ذَلِكَ، وَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى تَكْذِيبِهِمُ الرَّسُولَ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَتَسْمِيَتُهُ سَاحِرًا وَمَجْنُونًا.

ثُمَّ فَسَّرَ مَا أَجْمَلَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا أَتَى﴾[6] وَلَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ الْكَافُ مَنْصُوبَةً بِأَتَى، لِأَنَّ مَا النَّافِيَةَ لَا يَعْمَلُ مَا بَعْدَهَا فِيمَا قَبْلَهَا.

وَلَوْ قِيلَ: لَمْ يَأْتِ، لَكَانَ صَحِيحًا، عَلَى مَعْنَى: مِثْلَ ذَلِكَ الْإِتْيَانِ لَمْ يَأْتِ مِنْ قَبْلِهِمْ رَسُولٌ إِلَّا قَالُوا: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾[7] الضَّمِيرُ لِلْقَوْلِ، يُعْنَى: أَتَوَاصَى الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ بِهَذَا الْقَوْلِ حَتَّى قَالُوهُ جَمِيعًا مُتَّفِقِينَ عَلَيْهِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[1]، أَيْ: لَمْ يَتَوَاصَوْا بِهِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَلَاقَوْا فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ، بَلْ جَمَعَتْهُمُ الْعِلَّةُ الْوَاحِدَةُ وَهِيَ الطُّغْيَانُ، وَالطُّغْيَانُ هُوَ الْحَامِلُ عَلَيْهِ.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾[2]، فَأَعْرَضَ عَنِ الَّذِينَ كُرِّرَتْ عَلَيْهِمُ الدَّعْوَةُ فَلَمْ يُجِيبُوا، وَعَرَفْتَ عَنْهُمُ الْعِنَادَ وَاللَّجَاجَ، فَلَا لَوْمَ عَلَيْكَ فِي إِعْرَاضِكَ بَعْدَ مَا بَلَّغْتَ الرِّسَالَةَ وَبَذَلْتَ مَجْهُودَكَ فِي الْبَلَاغِ وَالدَّعْوَةِ، وَلَا تَدَعِ التَّذْكِيرَ وَالْمَوْعِظَةَ بِأَيَّامِ اللَّهِ.

﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، أَيْ تُؤَثِّرُ فِي الَّذِينَ عَرَفَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ فِي الْإِيمَانِ، أَوْ يَزِيدُ الدَّاخِلِينَ فِيهِ إِيمَانًا.

وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾[4] حَزِنَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِهِ، وَرَأَوْا أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ وَأَنَّ الْعَذَابَ قَدْ حَضَرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ .وَذَكَّرَ .

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[5]

أَيْ: وَمَا خُلِقَتِ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِلَّا لِأَجْلِ الْعِبَادَةِ، وَلَمْ أُرِدْ مِنْ جَمِيعِهِمْ إِلَّا إِيَّاهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: لَوْ كَانَ مُرِيدًا لِلْعِبَادَةِ مِنْهُمْ لَكَانُوا كُلُّهُمْ عِبَادًا؟

قُلْتُ: إِنَّمَا أَرَادَ مِنْهُمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ مُخْتَارِينَ لِلْعِبَادَةِ لَا مُضْطَرِّينَ إِلَيْهَا، لِأَنَّهُ خَلَقَهُمْ مُمَكَّنِينَ، فَاخْتَارَ بَعْضُهُمْ تَرْكَ الْعِبَادَةِ كَوْنُهُ مُرِيدًا لَهَا، وَلَوْ أَرَادَهَا عَلَى الْقَسْرِ وَالْإِلْجَاءِ لَوُجِدَتْ مِنْ جَمِيعِهِمْ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .

﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[1]

يُرِيدُ: أَنَّ شَأْنِي مَعَ عِبَادِي لَيْسَ كَشَأْنِ السَّادَةِ مَعَ عَبِيدِهِمْ، فَإِنَّ مُلَّاكَ الْعَبِيدِ إِنَّمَا يَمْلِكُونَهُمْ لِيَسْتَعِينُوا بِهِمْ فِي تَحْصِيلِ مَعَايِشِهِمْ وَأَرْزَاقِهِمْ، فَإِمَّا مُجَهَّزٌ فِي تِجَارَةٍ لِيَفِي رِبْحًا، أَوْ مُرَتَّبٌ فِي فِلَاحَةٍ لِيَغْتَلَّ أَرْضًا، أَوْ مُسَلِّمٌ فِي حِرْفَةٍ لِيَنْتَفِعَ بِأُجْرَتِهِ، أَوْ مُحْتَطِبٌ، أَوْ مُحْتَشٌّ، أَوْ طَابِخٌ، أَوْ خَابِزٌ.

وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْمِهَنِ الَّتِي هِيَ تُصْرَفُ فِي أَسْبَابِ الْمَعِيشَةِ وَأَبْوَابِ الرِّزْقِ.

فَأَمَّا مَالِكٌ مَلَكَ الْعَبِيدَ وَقَالَ لَهُمْ: اشْتَغِلُوا بِمَا يُسْعِدُكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَصْرِفَكُمْ فِي تَحْصِيلِ رِزْقِي وَلَا رِزْقِكُمْ، وَأَنَا غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَعَنْ مَرَافِقِكُمْ، وَمُتَفَضِّلٌ عَلَيْكُمْ بِرِزْقِكُمْ وَبِمَا يُصْلِحُكُمْ وَيُعَيِّشُكُمْ مِنْ عِنْدِي، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنَا وَحْدِي.

﴿الْمَتِينُ﴾[2] الشَّدِيدُ الْقُوَّةِ. قُرِئَ بِالرَّفْعِ صِفَةً لِذُو، وَبِالْجَرِّ صِفَةً لِلْقُوَّةِ عَلَى تَأْوِيلِ الِاعْتِذَارِ وَالْمَعْنَى فِي صِفَةٍ بِالْقُوَّةِ الْمَتَانَةُ أَنَّهُ الْقَادِرُ الْبَلِيغُ الِاقْتِدَارِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وَقُرِئَ: (الرَّازِقُ) وَفِي قِرَاءَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنِّي أَنَا الرَّازِقُ).

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾[3]

الذَّنُوبُ: الدَّلْوُ الْعَظِيمَةُ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ، أَصْلُهُ فِي السُّقَاةِ يَتَقَسَّمُونَ الْمَاءَ فَيَكُونُ لِهَذَا ذَنُوبٌ وَلِهَذَا ذَنُوبٌ.

قَالَ:

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُمْ ذَنُوبٌ فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَلَمَّا قَالَ عَمْرُو بْنُ شَاسٍ:

وَفِى كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتُ بِنِعْمَةٍ فَحُقَّ لشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

قَالَ الْمَلِكُ: نَعَمْ وَأَذْنَبَهُ.

وَالْمَعْنَى: فَإِنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِالتَّكْذِيبِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِثْلَ نَصِيبِ أَصْحَابِهِمْ وَنُظَرَائِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: سَجْلًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِثْلَ سَجْلِ أَصْحَابِهِمْ.

﴿مِنْ يَوْمِهِمُ﴾[1] مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقِيلَ: مِنْ يَوْمِ بَدْرٍ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ وَالذَّارِيَاتِ أَعْطَاهُ اللَّهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ كُلِّ رِيحٍ هَبَّتْ وَجَرَتْ فِي الدُّنْيَا".

[1] سورة ، الآية .

سورة الطور

سورة الطور

مكية،
وهي تسع وأربعون، وقيل: ثمان وأربعون آية
[نزلت بعد السجدة]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا﴾[1]

﴿وَالطُّورِ﴾[2]: الْجَبَلُ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى وَهُوَ بِمَدْيَنَ.

وَالْكِتَابُ الْمَسْطُورُ في الرِّقِّ الْمَنْشُورِ، وَالرِّقُّ: الصَّحِيفَةُ.

وَقِيلَ: الْجِلْدُ الَّذِي يُكْتَبُ فيهِ الْكِتَابُ الَّذِي يُكْتَبُ فيهِ الْأَعْمَالُ.

قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى-: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾[3]. [الْإِسْرَاءُ: 13]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: هُوَ مَا كَتَبَهُ اللَّهُ لِمُوسَى وَهُوَ يَسْمَعُ صَرِيرَ الْقَلَمِ. وَقِيلَ: اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ. وَقِيلَ الْقُرْآنُ، وَنُكِّرَ لِأَنَّهُ كِتَابٌ مَخْصُوصٌ مِنْ بَيْنِ جِنْسِ الْكُتُبِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾[1]الشَّمْسُ: 7.[

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾[2]: الضِّرَاحُ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ. وَعُمْرَانُهُ: كَثْرَةُ غَاشِيَتِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

وَقِيلَ :الْكَعْبَةُ لِكَوْنِهَا مَعْمُورَةً بِالْحُجَّاجِ وَالْعُمَّارِ وَالْمُجَاوِرِينَ.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾[3] السَّمَاءِ.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾[4] الْمَمْلُوءِ. وَقِيلَ: الْمَوْقَدُ، مِنْ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[5].]التَّكْوِيرُ: 66]

وَرُوِيَ أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– يَجْعَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْبِحَارَ كُلَّهَا نَارًا تُسْجَرُ بِهَا نَارُ جَهَنَّمَ.

وَعَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ سَأَلَ يَهُودِيًّا: أَيْنَ مَوْضِعُ النَّارِ فِي كِتَابِكُمْ؟ قَالَ: فِي الْبَحْرِ.

قَالَ عَلِيٌّ: مَا أَرَاهُ إِلَّا صَادِقًا، لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾[6].

﴿لَوَاقِعٌ﴾[7]: لَنَازِلٌ. قَالَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أُكَلِّمُهُ فِي الْأَسَارَى فَأَلْفَيْتُهُ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ يَقْرَأُ سُورَةَ الطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾[8] أَسْلَمْتُ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَنْزِلَ الْعَذَابُ.

﴿تَمُورُ السَّمَاءُ﴾[9] تَضْطَرِبُ وَتَجِيءُ وَتَذْهَبُ.

وَقِيلَ: الْمَوْرُ تَحَرُّكٌ فِي تَمَوُّجٍ، وَهُوَ الشَّيْءُ يَتَرَدَّدُ فِي عَرْضٍ كَالدَّاغِصَةِ فِي الرِّكْبَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]

غَلَبَ الْخَوْضُ فِي الِانْدِفَاعِ فِي الْبَاطِلِ وَالْكَذِبِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾[2]]الْمُدَّثِّرُ: 45[، ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾[3]]التَّوْبَةُ: 69 [الدَّعُّ: الدَّفْعُ الْعَنِيفُ، وَذَلِكَ أَنَّ خَزَنَةَ النَّارِ يَغِلُّونَ أَيْدِيَهُمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ، وَيَجْمَعُونَ نَوَاصِيَهُمْ إِلَى أَقْدَامِهِمْ، وَيَدْفَعُونَهُمْ إِلَى النَّارِ دَفْعًا عَلَى وُجُوهِهِمْ وَزَخًّا فِي أَقْفِيَتِهِمْ.

وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ: (يَدْعُونَ) مِنَ الدُّعَاءِ أَيْ يُقَالُ لَهُمْ: هَلُمُّوا إِلَى النَّارِ، وَادْخُلُوا النَّارَ ﴿دَعًّا﴾[4] مَدْعُوعِينَ، يُقَالُ لَهُمْ: هَذِهِ النَّارُ.

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾[5]، يَعْنِي كُنْتُمْ تَقُولُونَ لِلْوَحْيِ هَذَا سِحْرٌ، أَفَسِحْرٌ هَذَا؟ يُرِيدُ: أَهَذَا الْمُصَدِّقُ أَيْضًا سِحْرٌ؟ وَدَخَلَتِ الْفَاءُ لِهَذَا الْمَعْنَى.

﴿أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾[6] كَمَا كُنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ فِي الدُّنْيَا، يَعْنِي: أَمْ أَنْتُمْ عُمْيٌ عَنِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ كَمَا كُنْتُمْ عُمْيًا عَنِ الْخَبَرِ، وَهَذَا تَقْرِيعٌ وَتَهَكُّمٌ.

﴿سَوَاءٌ﴾[7] خَبَرٌ مَحْذُوفٌ، أَيْ: سَوَاءٌ عَلَيْكُمُ الْأَمْرَانِ: الصَّبْرُ وَعَدَمُه.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ عَلَّلَ اسْتِوَاءُ الصَّبْرِ وَعَدَمَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[8]؟

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

قُلْتُ: لِأَنَّ الصَّبْرَ إِنَّمَا يَكُونُ لَهُ مَزِيَّةً عَلَى الْجَزَعِ، لِنَفْعِهِ فِي الْعَاقِبَةِ بِأَنْ يُجَازَى عَلَيْهِ الصَّابِرُ جَزَاءَ الْخَيْرِ.

فَأَمَّا الصَّبْرُ عَلَى الْعَذَابِ الَّذِي هُوَ الْجَزَاءُ وَلَا عَاقِبَةَ لَهُ وَلَا مَنْفَعَةَ، فَلَا مَزِيَّةَ لَهُ عَلَى الْجَزَعِ.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾[1]

﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾[2] في آيَةِ جَنَّاتٍ وَأَيِّ نَعِيمٍ، بِمَعْنَى الْكَمَالِ في الصِّفَةِ، أَوْ في جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ مَخْصُوصَةٌ بِالْمُتَّقِينَ خُلِقَتْ لَهُمْ خَاصَّةً.

وَقُرِئَ: (فَاكِهِينَ) (فَكِهِينَ) وَ(فَاكِهُونَ): مَنْ نَصَبَهُ حَالًا جَعَلَ الظَّرْفَ مُسْتَقِرًّا، وَمَنْ رَفَعَهُ خَبَرًا جَعَلَ الظَّرْفَ لَغْوًا، أَيْ: مُتَلَذِّذِينَ ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: عَلَامَ عَطَفَ قَوْلَهُ: ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾[4]؟

قُلْتُ: عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾[5] أَوْ عَلَى ﴿آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾[6] عَلَى أَنْ تَجْعَلَ مَا مَصْدَرِيَّةً. وَالْمَعْنَى: فَاكِهِينَ بِإِيتَائِهِمْ رَبَّهُمْ وَوِقَايَتِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْوَاوُ لِلْحَالِ وَقَدْ بَعْدَهَا مُضْمَرَةٌ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

يُقَالُ لَهُمْ:﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾[1] أَكْلًا وَشُرْبًا، ﴿هَنِيئًا﴾[2] أَوْ طَعَامًا وَشَرَابًا هَنِيئًا، وَهُوَ الَّذِي لَا تَنْغِيصَ فِيهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ فِي قَوْلِهِ:

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ

أَعْنِي: صِفَةٌ اسْتُعْمِلَتِ اسْتِعْمَالَ الْمَصْدَرِ الْقَائِمِ مَقَامَ الْفِعْلِ مُرْتَفِعًا بِهِ مَا اسْتَحَلَّتْ كَمَا يَرْتَفِعُ بِالْفِعْلِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَنَاءُ عِزَّةَ الْمُسْتَحِلِّ مِنْ أَعْرَاضِنَا؛ وَكَذَلِكَ مَعْنَى ﴿هَنِيئًا﴾[3] هَاهُنَا: هَنَّاءَكُمُ الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ، أَوْ هَنَّاءَكُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، أَيْ: جَزَاءُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

وَالْبَاءُ مَزِيدَةٌ كَمَا فِي ﴿كَفَى بِاللَّهِ﴾[4]]الرَّعْدُ: 43]وَالْبَاءُ مُتَعَلِّقَةٌ بِكُلُوا وَاشْرَبُوا إِذَا جَعَلْتَ الْفَاعِلَ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ.

وَقُرِئَ: (بِعَيْسِ عَيْنٍ).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾[5]

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[6]: مَعْطُوفٌ عَلَى (حُورٌ عِينٌ)، أَيْ: قَرَنَّاهُمْ بِالْحَوَرِ وَبِالَّذِينَ آمَنُوا، أَيْ: بِالرُّفَقَاءِ وَالْجُلَسَاءِ مِنْهُمْ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾][7]الْحِجْرُ: 47]، فيتَمَتَّعُونَ تَارَةً بِمُلَاعَبَةِ الْحُورِ، وَتَارَةً بِمُؤَانَسَةِ الْإِخْوَانِ الْمُؤْمِنِينَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾[1]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِ في دَرَجَتِهِ، وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ لِتَقَرَّ بِهِمْ عَيْنُهُ"، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ. فيجْمَعُ اللَّهُ لَهُمْ أَنْوَاعَ السُّرُورِ بِسَعَادَتِهِمْ في أَنْفُسِهِمْ، وَمُزَاوَجَةِ الْحَوَرِ الْعَيْنِ، وَبِمُؤَانَسَةِ الْإِخْوَانِ الْمُؤْمِنِينَ، وَباجْتِمَاعِ أَوْلَادِهِمْ وَنَسْلِهِمْ بِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[2]، أَيْ بِسَبَبِ إِيمَانٍ عَظِيمٍ رَفِيعِ الْمَحَلِّ، وَهُوَ إِيمَانُ الْآبَاءِ أَلْحَقْنَا بِدَرَجَاتِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ، وَإِنْ كَانُوا لَا يَسْتَأْهِلُونَهَا، تَفَضُّلًا عَلَيْهِمْ وَعَلَى آبَائِهِمْ، لِنُتِمَّ سُرُورَهُمْ وَنُكْمِلَ نَعِيمَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى تَنْكِيرِ الْإِيمَانِ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُ إِيمَانٌ خَاصٌّ عَظِيمُ الْمَنْزِلَةِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: إِيمَانُ الذُّرِّيَّةِ الدَّانِي الْمَحَلِّ، كَأَنَّهُ قَالَ: بِشَيْءٍ مِنَ الْإِيمَانِ لَا يُؤَهِّلُهُمْ لِدَرَجَةِ الْآبَاءِ أَلْحَقْنَاهُمْ بِهِمْ.

وَقُرِئَ: (وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ)، وَ(أَتْبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ). وَ(ذُرِّيَاتُهُمْ). وَقُرِئَ: (ذُرِّيَّاتِهِمْ) بِكَسْرِ الذَّالِ.

وَوَجْهٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[3] مُبْتَدَأً خَبَرُهُ ﴿بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[4]، وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ، ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ﴾[5]: وَمَا نَقَصْنَاهُمْ، يَعْنِي: وَفَّرْنَا عَلَيْهِمْ جَمِيعَ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الثَّوَابِ وَالتَّفَضُّلِ، وَمَا نَقَصْنَاهُمْ مِنْ ثَوَابِ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ.

وَقِيلَ مَعْنَاهُ: وَمَا نَقَصْنَاهُمْ مِنْ ثَوَابِهِمْ شَيْئًا نُعْطِيهِ الْأَبْنَاءَ حَتَّى يَلْحَقُوا بِهِمْ، إِنَّمَا أَلْحَقْنَاهُمْ بِهِمْ عَلَى سَبِيلِ التَّفَضُّلِ.

قُرِئَ: (أَلَتْنَاهُمْ) وَهُوَ مِنْ بَابَيْنِ: مَنْ أَلَتَ يَأْلِتُ، وَمِنْ أَلَاتَ يَلِيتُ، كَأَمَاتَ يُمِيتُ. وَآلَتْنَاهُمْ، مِنْ آلَتَ يُؤْلِتُ، كَآمَنَ يُؤْمِنُ. وَلَتْنَاهُمْ، مِنْ لَاتَ يَلِيتُ. وَوَلَتْنَاهُمْ، مِنْ وَلَتَّ يَلِتُّ. وَمَعْنَاهُنَّ وَاحِدٌ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[1]، أَيْ: مَرْهُونٌ، كَأَنَّ نَفْسَ الْعَبْدِ رَهْنٌ عِنْدَ اللَّهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي هُوَ مُطَالَبٌ بِهِ، كَمَا يَرْهَنُ الرَّجُلُ عَبْدَهُ بِدَيْنٍ عَلَيْهِ، فَإِنَّ عَمِلَ صَالِحًا فَكَّهَا وَخَلَّصَهَا، وَإِلَّا أَوْبَقَهَا.

﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ﴾[2]: وَزِدْنَاهُمْ فِي وَقْتٍ بَعْدَ وَقْتٍ.

﴿يَتَنَازَعُونَ﴾[3] يَتَعَاطَوْنَ وَيَتَعَاوَرُونَ هُمْ وَجُلَسَاؤُهُمْ مِنْ أَقْرِبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ.

﴿كَأْسًا﴾[4]: خَمْرًا، ﴿لا لَغْوٌ فِيهَا﴾[5] فِي شُرْبِهَا، ﴿وَلا تَأْثِيمٌ﴾[6]، أَيْ لَا يَتَكَلَّمُونَ فِي أَثْنَاءِ الشُّرْبِ بِسَقْطِ الْحَدِيثِ وَمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ كَفِعْلِ الْمُتَنَادِمِينَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الشَّرَابِ فِي سَفَهِهِمْ وَعَرْبَدَتِهِمْ، وَلَا يَفْعَلُونَ مَا يُؤْثَمُ بِهِ فَاعِلُهُ، أَيْ: يُنْسَبُ إِلَى الْإِثْمِ لَوْ فَعَلَهُ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ مِنَ الْكَذِبِ وَالشَّتْمِ وَالْفَوَاحِشِ. وَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُونَ بِالْحُكْمِ وَالْكَلَامِ الْحَسَنِ مُتَلَذِّذِينَ بِذَلِكَ، لِأَنَّ عُقُولَهُمْ ثَابِتَةٌ غَيْرُ زَائِلَةٍ، وَهُمْ حُكَمَاءُ عُلَمَاءُ.

وَقُرِئَ: (لَا لَغْوٌ فيها وَلَا تَأْثِيمٌ).

﴿غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾[7]، أَيْ مَمْلُوكُونَ لَهُمْ مَخْصُوصُونَ بِهِمْ.

﴿مَكْنُونٌ﴾[8] فِي الصَّدَفِ، لِأَنَّهُ رَطْبًا أَحْسَنَ وَأَصْفَى، أَوْ مَخْزُونٌ، لِأَنَّهُ لَا يُخَزَّنُ إِلَّا الثَّمِينُ الْغَالِي الْقِيمَةَ.

وَقِيلَ لِقَتَادَةَ: هَذَا الْخَادِمُ فَكَيْفَ الْمَخْدُومُ؟ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ فَضْلَ الْمَخْدُومِ عَلَى الْخَادِمِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ".

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً مَنْ يُنَادِي الْخَادِمَ مِنْ خُدَّامِهِ فيجِيبُهُ أَلِفُّ بِبَابِهِ: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ".

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾[1]

﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾[2] يَتَحَادَثُونَ وَيَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْ أَحْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ، وَمَا اسْتَوْجَبَ بِهِ نَيْلَ مَا عِنْدَ اللَّهِ.

﴿مُشْفِقِينَ﴾[3] أَرِقَّاءُ الْقُلُوبِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.

وَقُرِئَ: (وَوَقَّانَا) بِالتَّشْدِيدِ.

﴿عَذَابَ﴾[4] عَذَابُ النَّارِ وَوَهَجُهَا وَلَفْحُهَا.

وَالسَّمُومُ: الرِّيحُ الْحَارَّةُ الَّتِي تَدْخُلُ الْمَسَامَّ، فَسُمِّيَتْ بِهَا نَارُ جَهَنَّمَ، لِأَنَّهَا بِهَذِهِ الصِّفَةِ.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾[5] مِنْ قَبْلِ لِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْمَصِيرِ إِلَيْهِ، يَعْنُونَ في الدُّنْيَا.

﴿نَدْعُوهُ﴾[6]: نَعْبُدُهُ وَنَسْأَلُهُ الْوِقَايَةَ.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾[7]: الْمُحْسِنُ.

﴿الرَّحِيمُ﴾[8]: الْعَظِيمُ الرَّحْمَةِ الَّذِي إِذَا عَبَدَ أَثَابَ، وَإِذَا سُئِلَ أَجَابَ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: (أَنَّهُ) بِالْفَتْحِ، بِمَعْنَى: لِأَنَّهُ.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ
وَلا مَجْنُونٍ﴾[1]

﴿فَذَكِّرْ﴾[2] فَاثْبَتْ عَلَى تَذْكِيرِ النَّاسِ وَمَوْعِظَتِهِمْ، وَلَا يُثَبِّطْنَّكَ قَوْلُهُمْ: كَاهِنٌ أَوْ مَجْنُونٌ، وَلَا تُبَالِ بِهِ فَإِنَّهُ قَوْلٌ بَاطِلٌ مُتَنَاقِضٌ، لِأَنَّ الْكَاهِنَ يَحْتَاجُ في كَهَانَتِهِ إِلَى فِطْنَةٍ وَدِقَّةِ نَظَرٍ، وَالْمَجْنُونُ مُغَطًّى عَلَى عَقْلِهِ.

وَمَا أَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَإِنْعَامِهِ عَلَيْكَ بِصِدْقِ النُّبُوَّةِ وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ أَحَدَ هَذَيْنِ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ
سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3]

وَقُرِئَ: (يَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونَ)، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ. وَرَيْبَ الْمَنُونِ. مَا يُقْلِقُ النُّفُوسَ وَيُشَخِّصُ بِهَا مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ.

قَالَ:

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبِهِ أَتَوَجَّعُ؟

وَقِيلَ: الْمَنُونُ الْمَوْتُ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ فَعَوْلٌ، مِنْ مَنِهَ إِذَا قَطَعَهُ، لِأَنَّ الْمَوْتَ قُطُوعٌ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ شُعُوبٌ قَالُوا: نَنْتَظِرُ بِهِ نَوَائِبَ الزَّمَانِ فَيُهْلِكُ كَمَا هَلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الشُّعَرَاءِ: زُهَيْرُ وَالنَّابِغَةُ.

﴿مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾[1] أَتَرَبَّصُ هَلَاكَكُمْ كَمَا تَتَرَبَّصُونَ هَلَاكِي.

﴿أَحْلَامُهُمْ﴾[2] عُقُولُهُمْ وَأَلْبَابُهُمْ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَحْلَامُ عَادٍ.

وَالْمَعْنَى: أَتَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا التَّنَاقُضِ فِي الْقَوْلِ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: كَاهِنٌ وَشَاعِرٌ، مَعَ قَوْلِهِمْ مَجْنُونٌ. وَكَانَتْ قُرَيْشٌ يَدْعُونَ أَهْلَ الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[3] مُجَاوِزُونَ الْحَدَّ فِي الْعِنَادِ مَعَ ظُهُورِ الْحَقِّ لَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى كَوْنِ الْأَحْلَامِ آمِرَةً؟

قُلْتُ: هُوَ مَجَازٌ لِأَدَائِهَا إِلَى ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[4]،]هُودٌ: 87] وَقُرِئَ: (بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ).

﴿تَقَوَّلَهُ﴾[5] اخْتَلَقَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ.

﴿بَلْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[6]: فَلِكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ يَرْمُونَ بِهَذِهِ الْمَطَاعِنِ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِبُطْلَانِ قَوْلِهِمْ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِمُتَقَوَّلٍ لِعَجْزِ الْعَرَبِ عَنْهُ، وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا وَاحِدٌ مِنَ الْعَرَبِ.

وَقُرِئَ: (بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ) عَلَى الْإِضَافَةِ، وَالضَّمِيرُ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

.

وَمَعْنَاهُ: أَنَّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي فَصَاحَتِهِ لَيْسَ بِمُعْوِزٍ فِي الْعَرَبِ، وَإِنَّ قَدْرَ مُحَمَّدٍ عَلَى نَظْمِهِ كَانَ مِثْلُهُ قَادِرًا عَلَيْهِ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثِ ذَلِكَ الْمَثَلِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿أَمْ خُلِقُوا﴾[1]: أَمْ أَحْدَثُوا وَقَدَّرُوا التَّقْدِيرَ الَّذِي عَلَيْهِ فِطْرَتُهُمْ ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾[2]: مِنْ غَيْرِ مُقَدِّرٍ.

﴿أَمْ هُمُ﴾[3] الَّذِينَ خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ حَيْثُ لَا يَعْبُدُونَ الْخَالِقَ؛ ﴿بَلْ لا يُوقِنُونَ﴾[4]، أَيْ: إِذَا سُئِلُوا مَنْ خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قَالُوا: اللَّهُ، وَهُمْ شَاكُّونَ فيمَا يَقُولُونَ، لَا يُوقِنُونَ.

وَقِيلَ: أَخُلِقُوا مِنْ أَجْلِ لَا شَيْءٍ مِنْ جَزَاءٍ وَلَا حِسَابٍ؟ وَقِيلَ: أَخُلِقُوا مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَأُمٍّ؟

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ﴾[5] الرِّزْقُ حَتَّى يُرْزَقُوا النُّبُوَّةَ مَنْ شَاءُوا. أَوْ: أَعِنْدَهُمْ خَزَائِنُ عِلْمِهِ حَتَّى يَخْتَارُوا لَهَا مِنَ اخْتِيَارِهِ حِكْمَةً وَمَصْلَحَةً؟

﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾[6] الْأَرْبَابُ الْغَالِبُونَ، حَتَّى يُدَبِّرُوا أَمْرَ الرُّبُوبِيَّةِ وَيَبْنُوا الْأُمُورَ عَلَى إِرَادَتِهِمْ وَمَشِيئَتِهِمْ؟

وَقُرِئَ: (الْمُصَيْطِرُونَ) بِالصَّادِ.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾[7] مَنْصُوبٌ إِلَى السَّمَاءِ يَسْتَمِعُونَ صَاعِدِينَ فيهِ إِلَى كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ وَمَا يُوحَى إِلَيْهِمْ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ حَتَّى يَعْلَمُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مَنْ تَقَدُّمِ هَلَاكِهِ عَلَى هَلَاكِهِمْ وَظَفْرِهِمْ فِي الْعَاقِبَةِ دُونَهُ كَمَا يَزْعُمُونَ؟

﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[8]: بِحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ تَصْدُقُ اسْتِمَاعَ مُسْتَمِعِهِمْ .

الْمُغْرَمُ: أَنْ يَلْتَزِمَ الْإِنْسَانُ مَا لَيْسَ عَلَيْهِ، أَيْ: لَزِمَهُمْ مُغْرَمٌ ثَقِيلٌ فَدَحَّهُمْ فَزَهَّدَهُمْ ذَلِكَ فِي أَتْبَاعِكَ؟

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾[1]، أَيِ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾[2] مَا فِيهِ حَتَّى يَقُولُوا لَا نُبْعَثُ، وَإِنَّ بُعِثْنَا لَمْ نُعَذَّبْ.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾[3]، وَهُوَ كَيْدُهُمْ فِي دَارِ النَّدْوَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَبِالْمُؤْمِنِينَ.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾[4]: إِشَارَةٌ إِلَيْهِمْ أَوْ أُرِيدَ بِهِمْ كُلُّ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾[5]: هُمُ الَّذِينَ يَعُودُ عَلَيْهِمْ وَبَالُ كَيْدِهِمْ وَيَحِيقُ بِهِمْ مَكْرُهُمْ. وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ، أَوِ الْمَغْلُوبُونَ فِي الْكَيْدِ، مَنْ كَايَدْتُهُ فَكِدْتُهُ.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[6]

الْكِسَفَ: الْقِطْعَةُ، وَهُوَ جَوَابُ قَوْلِهِمْ: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾[7]،]الْإِسْرَاءُ: 92] يُرِيدُ: أَنَّهُمْ لِشِدَّةِ طُغْيَانِهِمْ وَعِنَادِهِمْ لَوْ أَسْقَطْنَاهُ عَلَيْهِمْ، لَقَالُوا: هَذَا سَحَابٌ مَرْكُومٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ يُمْطِرُنَا، وَلَمْ يُصَدِّقُوا أَنَّهُ كِسَفٌ سَاقِطٌ لِلْعَذَابِ. وَقُرِئَ: (حَتَّى يَلْقُوا) وَ (يَلْقُوا).

﴿يُصْعَقُونَ﴾: يَمُوتُونَ.

وَقُرِئَ: (يَصْعَقُونَ). يُقَالُ: صَعَقَهُ فَصُعِقَ، وَذَلِكَ عِنْدَ النَّفْخَةِ الْأُولَى نَفْخَةِ الصَّعْقِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[1]: وَإِنَّ لِهَؤُلَاءِ الظَّلَمَةِ، ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾[2] دُونَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: وَهُوَ الْقَتْلُ بِبَدْرٍ، وَالْقَحْطُ سَبْعُ سِنِينَ، وَعَذَابُ الْقَبْرِ.

وَفِي مُصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ: دُونَ ذَلِكَ قَرِيبًا.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾[3]

﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[4]: بِإِمْهَالِهِمْ وَمَا يُلْحِقُكَ فِيهِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْكُلْفَةِ.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[5] مَثَلٌ، أَيْ: بِحَيْثُ نَرَاكَ وَنَكْلَؤُكَ. وَجَمْعُ الْعَيْنِ، لِأَنَّ الضَّمِيرَ بِلَفْظِ ضَمِيرِ الْجَمَاعَةِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[6]]طه: 39[؟

وَقُرِئَ: (بِأَعْيُنَّا)، بِالْإِدْغَامِ.

﴿حِينَ تَقُومُ﴾[7] مِنْ أَيِّ مَكَانٍ قُمْتَ. وَقِيلَ: مِنْ مَنَامِكَ.

﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾[8]: وَإِذَا أَدْبَرَتِ النُّجُومُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ.

وَقُرِئَ: (وَأَدْبَارَ)، بِالْفَتْحِ بِمَعْنَى فِي أَعْقَابِ النُّجُومِ وَآثَارِهَا إِذَا غَرَبَتْ، وَالْمُرَادُ الْأَمْرُ بِقَوْلِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ.

وَقِيلَ التَّسْبِيحُ: الصَّلَاةُ إِذَا قَامَ مِنْ نَوْمِهِ، وَمِنَ اللَّيْلِ: صَلَاةُ الْعِشَاءَيْنِ، وَأَدْبَارُ النُّجُومِ: صَلَاةُ الْفَجْرِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الطُّورِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُؤَمِّنَهُ مِنْ عَذَابِهِ وَأَنْ يُنَعِّمَهُ في جَنَّتِهِ".

سُورَةُ الْجِنِّ

سُورَةُ النَّجْمِ

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا آيَةُ 32 فَمَدِينَةٌ]
وَآيَاتُهَا 62 وَقِيلَ 61 آيَةً
[نَزَلَتْ بَعْدَ الْإِخْلَاصِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[1]

﴿النَّجْمُ﴾[2]: الثُّرَيَّا، وَهُوَ اسْمٌ غَالِبٌ لَهَا.

قَالَ:

إِذَا طَلَعَ النَّجْمُ عِشَاءً ابْتَغَى الرَّاعِي كِسَاءَ

أَوْ جِنْسُ النُّجُومِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

قَالَ:

فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ فِي مُسْتَحِيـــــــــــرَةٍ

يُرِيدُ النُّجُومَ.

﴿إِذَا هَوَى﴾[1] إِذَا غَرَبَ أَوِ انْتَثَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَوِ النَّجْمِ الَّذِي يُرْجَمُ بِهِ إِذَا هَوَى: إِذَا انْقَضَّ، أَوِ النَّجْمُ مِنْ نُجُومِ الْقُرْآنِ، وَقَدْ نَزَلَ مُنَجَّمًا فِي عِشْرِينَ سَنَةٍ، إِذَا هَوَى: إِذَا نَزَلَ، أَوِ النَّبَاتُ إِذَا هَوَى: إِذَا سَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ.

وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ: أَنَّ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ وَكَانَتْ تَحْتَهُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَرَادَ الْخُرُوجَ إِلَى الشَّامِ، فَقَالَ: لَآتِيَنَّ مُحَمَّدًا فَلَأُوذِيَنَّهُ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هُوَ كَافِرٌ بِالنَّجْمِ إِذَا هَوَى، وَبِالَّذِي دَنَا فَتَدَلَّى، ثُمَّ تَفَلَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَدَّ عَلَيْهِ ابْنَتَهُ وَطَلَّقَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ"، وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ حَاضِرًا، فَوَجَمَ لَهَا وَقَالَ: مَا كَانَ أَغْنَاكَ يَا ابْنَ أَخِي عَنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ! فَرَجَعَ عُتْبَةُ إِلَى أَبِيهِ، فَأَخْبَرَهُ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى الشَّامِ فَنَزَلُوا مَنْزِلًا، فَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ رَاهِبٌ مِنَ الدَّيْرِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ هَذِهِ أَرْضٌ مَسْبَعَةٌ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ لِأَصْحَابِهِ: أَغِيثُونَا يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، فَإِنِّي أَخَافُ عَلَى ابْنِي دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ، فَجَمَعُوا حِمَالَهُمْ وَأَنَاخُوهَا حَوْلَهُمْ، وَأَحْدَقُوا بِعُتْبَةَ، فَجَاءَ الْأَسَدُ يَتَشَمَّمُ وُجُوهَهُمْ، حَتَّى ضَرَبَ عُتْبَةَ فَقَتَلَهُ.

وَقَالَ حَسَّانُ:

مَنْ يَرْجِعُ الْعَامَ إِلَى أَهْلِهِ فَمَا أَكِيلُ السَّبْعِ بِالرَّاجِعِ

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾[2] يَعْنِي مُحَمَّدًا –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَالْخِطَابُ لِقُرَيْشٍ، وَهُوَ جَوَابُ الْقَسَمِ، وَالضَّلَالُ: نَقِيضُ الْهُدَى، وَالْغَيُّ نَقِيضُ الرُّشْدِ، أَيْ: هُوَ مُهْتَدٍ رَاشِدٌ وَلَيْسَ كَمَا تَزْعُمُونَ مِنْ نِسْبَتِكُمْ إِيَّاهُ إِلَى الضَّلَالِ وَالْغَيِّ، وَمَا أَتَاكُمْ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ لَيْسَ بِمَنْطِقٍ يَصْدُرُ عَنْ هَوَاهُ وَرَأْيِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ وَحْيٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُوحِي إِلَيْهِ.

وَيَحْتَجُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ لَا يَرَى الِاجْتِهَادَ لِلْأَنْبِيَاءِ، وَيُجَابُ بِأَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– إِذَا سَوَّغَ لَهُمُ الِاجْتِهَادَ، كَانَ الِاجْتِهَادُ وَمَا يَسْتَنِدُ إِلَيْهِ كُلَّهُ وَحْيًا لَا نُطْقًا عَنِ الْهَوَى.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾[1] مَلَكٌ شَدِيدٌ قُوَاهُ، وَالْإِضَافَةُ غَيْرُ حَقِيقِيَّةٍ، لِأَنَّهَا إِضَافَةُ الصِّفَةِ الْمُشَبَّهَةِ إِلَى فَاعِلِهَا، وَهُوَ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وَمِنْ قُوَّتِهِ أَنَّهُ اقْتَلَعَ قُرَى قَوْمِ لُوطٍ مِنَ الْمَاءِ الْأَسْوَدِ، وَحَمَلَهَا عَلَى جَنَاحِهِ، وَرَفَعَهَا إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَلَبَهَا، وَصَاحَ صَيْحَةً بِثَمُودِ فَأَصْبَحُوا جَاثِمِينَ، وَكَانَ هُبُوطُهُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَصُعُودُهُ فِي أَوْحَى مِنْ رَجْعَةِ الطَّرْفِ، وَرَأَى إِبْلِيسَ يُكَلِّمُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى بَعْضِ عِقَابِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَنَفَحَهُ بِجَنَاحِهِ نَفْحَةً فَأَلْقَاهُ فِي أَقْصَى جَبَلٍ بِالْهِنْدِ.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾[2]: ذُو حَصَافَةٍ فِي عَقْلِهِ وَرَأْيِهِ وَمَتَانَةٍ فِي دِينِهِ.

﴿فَاسْتَوَى﴾[3] فَاسْتَقَامَ عَلَى صُورَةِ نَفْسِهِ الْحَقِيقِيَّةِ دُونَ الصُّورَةِ الَّتِي كَانَ يَتَمَثَّلُ بِهَا كُلَّمَا هَبَطَ بِالْوَحْيِ، وَكَانَ يَنْزِلُ فِي صُورَةِ دَحْيَةَ، وَذَلِكَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَحَبَّ أَنْ يَرَاهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي جُبِلَ عَلَيْهَا، فَاسْتَوَى لَهُ فِي الْأُفُقِ الْأَعْلَى وَهُوَ أُفُقُ الشَّمْسِ فَمَلَأَ الْأُفُقَ.

وَقِيلَ: مَا رَآهُ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي صُورَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ غَيْرَ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً فِي الْأَرْضِ، وَمَرَّةً فِي السَّمَاءِ.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾[4] مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ﴿فَتَدَلَّى﴾[5]: فَتَعَلَّقَ عَلَيْهِ فِي الْهَوَاءِ. وَمِنْهُ: تَدَلَّتِ الثَّمَرَةُ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ مِنَ السَّرِيرِ.

وَالدَّوَالِي: الثَّمَرُ الْمُعَلَّقُ.

قَالَ:

تَدَلَّى عَلَيْهَا بَيْنَ سِبٍّ وَخِيطَـــــةٍ

وَيُقَالُ: هُوَ مِثْلُ الْقَرْلَى: إِنْ رَأَى خَيْرًا تَدَلَّى، وَإِنْ لَمْ يَرَهُ تَوَلَّى.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾[1]: مِقْدَارُ قَوْسَيْنِ عَرَبِيَّتَيْنِ: وَالْقَابُ وَالْقِيبُ، وَالْقَادُ وَالْقِيدُ، وَالْقَيْسُ: الْمِقْدَارُ.

وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ: قَادَ.

وَقُرِئَ: (قِيدَ) وَ(قَدِرَ).

وَقَدْ جَاءَ التَّقْدِيرُ بِالْقَوْسِ وَالرُّمْحِ، وَالسَّوْطِ، وَالذِّرَاعِ، وَالْبَاعِ، وَالْخُطْوَةِ، وَالشِّبْرِ، وَالْفِتْرِ، وَالْأُصْبُعِ.

وَمِنْهُ: "لَا صَلَاةَ إِلَى أَنْ تَرْتَفِعَ الشَّمْسُ مِقْدَارَ رُمْحَيْنِ".

وَفِي الْحَدِيثِ: "لَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَوْضِعَ قَدِّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا".

وَالْقَدُّ: السَّوْطُ. وَيُقَالُ: بَيْنَهُمَا خُطُوَاتٌ يَسِيرَةٌ.

وَقَالَ:

وَقَدْ جَعَلَتْنِي مِنْ حَزِيمَةَ أُصْبُعًـــــا

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَقْدِيرُ قَوْلِهِ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾[2]؟

قُلْتُ: تَقْدِيرُهُ فَكَانَ مِقْدَارَ مَسَافَةِ قُرْبِهِ مِثْلَ قَابَ قَوْسَيْنِ، فَحُذِفَتْ هَذِهِ الْمُضَافَاتُ كَمَا قَالَ أَبُو عَلِيٍّ فِي قَوْلِهِ:

وَقَدْ جَعَلَتْنِي مِنْ حَزِيمَةَ أُصْبُعًا

أَيْ: ذَا مِقْدَارِ مَسَافَةِ أُصْبُعٍ، ﴿أَوْ أَدْنَى﴾[3]، أَيْ: عَلَى تَقْدِيرِكُمْ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾[4]]الصَّافَّاتُ: 147.[

﴿إِلَى عَبْدِهِ﴾[5]: إِلَى عَبْدِ اللَّهِ، وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لِاسْمِهِ عَزَّ وَجَلَّ ذِكْرٌ، لِأَنَّهُ لَا يَلْبَسُ، كَقَوْلِهِ: ﴿عَلَى ظَهْرِهَا﴾[6]]فَاطِرٌ: 45.[

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿مَا أَوْحَى﴾[1]: تَفْخِيمٌ لِلْوَحْيِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْهِ: قِيلَ أُوحِيَ إِلَيْهِ: "إِنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى تَدْخُلَهَا وَعَلَى الْأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتُكَ".

﴿مَا كَذَبَ﴾[2] فُؤَادُ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا رَآهُ بِبَصَرِهِ مِنْ صُورَةِ جِبْرِيلَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، أَيْ: مَا قَالَ فُؤَادُهُ لِمَا رَآهُ: لَمْ أَعْرِفْكَ، وَلَوْ قَالَ ذَلِكَ لَكَانَ كَاذِبًا، لِأَنَّهُ عَرَفَهُ، يَعْنِي: أَنَّهُ رَآهُ بِعَيْنِهِ وَعَرَفَهُ بِقَلْبِهِ، وَلَمْ يَشُكَّ فِي أَنَّ مَا رَآهُ حَقٌّ.

وَقُرِئَ: (مَا كَذَبَ)، أَيْ: صَدَّقَهُ وَلَمْ يَشُكَّ أَنَّهُ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِصُورَتِهِ.

﴿أَفَتُمَارُونَهُ﴾[3] مِنَ الْمِرَاءِ وَهُوَ الْمُلَاحَاةُ وَالْمُجَادَلَةُ وَاشْتِقَاقُهُ مِنْ مَرَى النَّاقَةَ، كَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَجَادِلِينَ يَمْرِي مَا عِنْدَ صَاحِبِهِ.

وَقُرِئَ: (أَفَتَمْرُونَهُ): أَفَتُغَلِّبُونَهُ فِي الْمِرَاءِ، مَنْ مَارَيْتُهُ فَمَرَيْتُهُ، وَلِمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْغَلَبَةِ عَدَّى بِعَلَى، كَمَا تَقُولُ: غَلَبْتُهُ عَلَى كَذَا.

وَقِيلَ: أَفَتَمْرُونَهُ: أَفَتَجِدُونَهُ.

وَأَنْشَدُوا:

لَئِنْ هَجَوْتَ أَخَا صِدْقٍ وَمَكْرُمَةٍ لَقَدْ مَرَيْتَ أَخًا مَا كَانَ يَمْرِيكَا

وَقَالُوا: يُقَالُ مَرَيْتُهُ حَقَّهُ إِذَا جَحَدْتَهُ، وَتَعْدِيَتُهُ بِعَلَى لَا تَصِحُّ إِلَّا عَلَى مَذْهَبِ التَّضْمِينِ.

﴿نَزْلَةً أُخْرَى﴾[4]: مَرَّةً أُخْرَى مِنَ النُّزُولِ، نُصِبَتِ النَّزْلَةُ نَصْبَ الظَّرْفِ الَّذِي هُوَ مَرَّةٌ، لِأَنَّ الْفِعْلَةَ اسْمٌ لِلْمَرَّةِ مِنَ الْفِعْلِ، فَكَانَتْ فِي حُكْمِهَا، أَيْ: نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- نَزْلَةً أُخْرَى فِي صُورَةِ نَفْسِهِ، فَرَآهُ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ.

قِيلَ: فِي سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى: هِيَ شَجَرَةُ نَبْقٍ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ: ثَمَرُهَا كَقِلَالِ هَجَرٍ، وَوَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيولِ، تَنْبُعُ مِنْ أَصْلِهَا الْأَنْهَارُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا سَبْعِينَ عَامًا لَا يَقْطَعُهَا.

وَالْمُنْتَهَى: بِمَعْنَى مَوْضِعِ الِانْتِهَاءِ، أَوِ الِانْتِهَاءِ، كَأَنَّهَا فِي مُنْتَهَى الْجَنَّةِ وَآخِرِهَا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: لَمْ يُجَاوِزْهَا أَحَدٌ، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي عِلْمُ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا وَرَاءَهَا. وَقِيلَ: تَنْتَهِي إِلَيْهَا أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ.

﴿جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾[1]: الْجَنَّةُ الَّتِي يَصِيرُ إِلَيْهَا الْمُتَّقُونَ: عَنِ الْحَسَنِ.

وَقِيلَ: تَأْوَى إِلَيْهَا أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ.

وَقَرَأَ عَلِيٌّ وَابْنُ الزُّبَيْرِ وَجَمَاعَةٌ: (جَنَّةُ الْمَأْوَى) أَيْ: سَتَرَهُ بِظِلَالِهِ وَدَخَلَ فِيهِ.

وَعَنْ عَائِشَةَ: أَنَّهَا أَنْكَرَتْهُ وَقَالَتْ: مَنْ قَرَأَ بِهِ فَأَجْنِهِ اللَّهُ.

﴿مَا يَغْشَى﴾[2]: تَعْظِيمٌ وَتَكْثِيرٌ لِمَا يَغْشَاهَا، فَقَدْ عَلِمَ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ أَنَّ مَا يَغْشَاهَا مِنَ الْخَلَائِقِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ وَجَلَالِهِ: أَشْيَاءُ لَا يَكْتَنِهُهَا النَّعْتُ وَلَا يُحِيطُ بِهَا الْوَصْفُ. وَقَدْ قِيلَ: يَغْشَاهَا الْجَمُّ الْغَفِيرُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَعْبُدُونَ اللَّهَ عِنْدَهَا.

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "رَأَيْتُ عَلَى كُلِّ وَرَقَةٍ مِنْ وَرَقِهَا مَلَكًا قَائِمًا يُسَبِّحُ اللَّهَ".

وَعَنْهُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "يَغْشَاهَا رَفْرَفٌ مِنْ طَيْرٍ خُضْرٍ".

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِ: يَغْشَاهَا فِرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ.

﴿ مَا زَاغَ﴾[3] بَصَرُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

﴿وَمَا طَغَى﴾[4]، أَيْ أَثْبَتَ مَا رَأَى إِثْبَاتًا مُسْتَيْقِنًا صَحِيحًا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيغَ بَصَرُهُ عَنْهُ أَوْ يَتَجَاوَزَهُ، أَوْ مَا عَدَلَ عَنْ رُؤْيَةِ الْعَجَائِبِ الَّتِي أَمَرَ بِرُؤْيَتِهَا وَمَكَّنَ مِنْهَا، وَمَا طَغَى: وَمَا جَاوَزَ مَا أَمَرَ بِرُؤْيَتِهِ.

﴿لَقَدْ رَأَى﴾[5]: وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَى، ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ﴾[6]: الْآيَاتِ الَّتِي هِيَ كُبْرَاهَا وَعُظْمَاهَا، يَعْنِي: حِينَ رُقِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ فَأُرِيَ عَجَائِبَ الْمَلَكُوتِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾[1]

﴿اللاَّتَ وَالْعُزَّى﴾[2]: أَصْنَامٌ كَانَتْ لَهُمْ، وَهِيَ مُؤَنَّثَاتٌ، فَاللَّاتُ كَانَتْ لِثَقِيفٍ بِالطَّائِفِ.

وَقِيلَ: كَانَتْ بِنَخْلَةٍ تَعْبُدُهَا قُرَيْشٌ، وَهِيَ فِعْلَةٌ مِنْ لَوَى، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَلْوُونَ عَلَيْهَا وَيَعْكُفُونَ لِلْعِبَادَةِ، أَوْ يَلْتَوُونَ عَلَيْهَا: أَيْ يَطُوفُونَ.

وَقُرِئَ: (اللَّاتَّ) بِالتَّشْدِيدِ. وَزَعَمُوا أَنَّهُ سُمِّيَ بِرَجُلٍ كَانَ يَلِتُّ عِنْدَهُ السَّمْنَ بِالزَّيْتِ وَيُطْعِمُهُ الْحَاجَّ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: كَانَ رَجُلًا يَلِتُّ السَّوِيقَ بِالطَّائِفِ، وَكَانُوا يَعْكُفُونَ عَلَى قَبْرِهِ، فَجَعَلُوهُ وَثَنًا، وَالْعُزَّى كَانَتْ لِغَطَفَانَ وَهِيَ سَمُرَةٌ، وَأَصْلُهَا تَأْنِيثُ الْأَعَزِّ. وَبَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَقَطَعَهَا، فَخَرَجَتْ مِنْهَا شَيْطَانَةٌ نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا دَاعِيَةٌ وَيْلَهَا، وَاضِعَةٌ يَدِهَا عَلَى رَأْسِهَا، فَجَعَلَ يَضْرِبُهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا، وَهُوَ يَقُولُ:

يَا عُزَّ كُفْرَانَكَ لَا سُبْحَانَكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ

وَرَجَعَ فَأَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: تِلْكَ الْعُزَّى وَلَنْ تُعْبَدَ أَبَدًا.

وَمَنَاةُ: صَخْرَةٌ كَانَتْ لِهُذَيْلَ وَخُزَاعَةَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: لِثَقِيفٍ.

وَقُرِئَ: (وَمَنَاءَةَ) وَكَأَنَّهَا سُمِّيَتْ مَنَاةً، لِأَنَّ دِمَاءَ النَّسَائِكِ كَانَتْ تُمَنَّى عِنْدَهَا، أَيْ: تُرَاقُ، وَمَنَاءَةُ مَفْعَلَةٌ مِنَ النَّوْءِ، كَأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَمْطِرُونَ عِنْدَهَا الْأَنْوَاءَ تَبَرُّكًا بِهَا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَ﴿الْأُخْرَى﴾[1] ذَمٌّ، وَهِيَ الْمُتَأَخِّرَةُ الْوَضِيعَةُ الْمِقْدَارِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ﴾[2]،]الْأَعْرَافُ: 388] أَيْ: وُضَعَاؤُهُمْ لِرُؤَسَائِهِمْ وَأَشْرَافِهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْأَوَّلِيَّةُ وَالتَّقَدُّمُ عِنْدَهُمْ لِلَّاتَ وَالْعُزَّى. كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ وَهَذِهِ الْأَصْنَامَ بَنَاتُ اللَّهِ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُفَعَاؤُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ -تَعَالَى- مَعَ وَأْدِهِمُ الْبَنَاتِ، فَقِيلَ لَهُمْ: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى﴾[3].

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: أَنَّ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ إِنَاثٌ، وَقَدْ جَعَلْتُمُوهُنَّ لِلَّهِ شُرَكَاءَ، وَمِنْ شَأْنِكُمْ أَنْ تَحْتَقِرُوا الْإِنَاثَ وَتَسْتَنْكِفُوا مِنْ أَنْ يُولَدْنَ لَكُمْ وَيُنْسَبْنَ إِلَيْكُمْ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ هَؤُلَاءِ الْإِنَاثَ أَنْدَادًا لِلَّهِ وَتُسَمُّونَهُنَّ آلِهَةً؟!

﴿قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[4] جَائِرَةٌ، مِنْ ضَازَهُ يَضِيزُهُ إِذَا ضَامَهُ، وَالْأَصْلُ: ضُوزَى. فَفُعِلَ بِهَا مَا فُعِلَ بِبَيْضٍ، لِتُسَلِّمَ الْيَاءَ.

وَقَدْ قُرِئَ: (ضِئْزَى) مِنْ ضَأَزَهُ بِالْهَمْزِ.

وَضِيزَى: بِفَتْحِ الضَّادِ "هِيَ" ضَمِيرُ الْأَصْنَامِ، أَيْ: مَا هِيَ ﴿إِلا أَسْمَاءٌ﴾[5] لَيْسَ تَحْتَهَا فِي الْحَقِيقَةِ مُسَمَّيَاتٌ، لِأَنَّكُمْ تَدَّعُونَ الْإِلَهِيَّةَ لِمَا هُوَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مِنْهَا وَأَشَدُّهُ مُنَافَاةً لَهَا.

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾[6]] يُوسُفُ: 400] أَوْ ضَمِيرُ الْأَسْمَاءِ وَهِيَ قَوْلُهُمْ، اللَّاتُ وَالْعُزَّى وَمَنَاةُ، وَهُمْ يَقْصِدُونَ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْآلِهَةَ، يَعْنِي: مَا هَذِهِ الْأَسْمَاءُ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا بِهَوَاكُمْ وَشَهْوَتِكُمْ، لَيْسَ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَلَى صِحَّةِ تَسْمِيَتِهَا بُرْهَانٌ تَتَعَلَّقُونَ بِهِ.

وَمَعْنَى: ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾[7] سُمِّيتُمْ بِهَا، يُقَالُ: سَمَّيْتُهُ زَيْدًا، وَسَمَّيْتُهُ بِزَيْدٍ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾[1]، وَقُرِئَ بِالتَّاءِ، ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾[2]: إِلَّا تَوَهَّمَ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ حَقٌّ، وَأَنَّ آلِهَتَهُمْ شُفَعَاؤُهُمْ، وَمَا تَشْتَهِيهِ أَنْفُسُهُمْ، وَيَتْرُكُونَ مَا جَاءَهُمْ مِنَ الْهُدَى وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ دِينَهُمْ بَاطِلٌ.

﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾[3]

﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾[4] هِيَ أَمِ الْمُنْقَطِعَةُ وَمَعْنَى الْهَمْزَةِ فيها الْإِنْكَارُ، أَيْ: لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى، وَالْمُرَادُ طَمَعُهُمْ في شَفَاعَةِ الْآلِهَةِ، وَهُوَ تَمَنٍّ عَلَى اللَّهِ في غَايَةِ الْبُعْدِ.

وَقِيلَ: هُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾[5].]فُصِّلَتْ: 50]

وَقِيلَ: هُوَ قَوْلُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ.

﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[6]، وَقِيلَ هُوَ تَمَنِّي بَعْضُهُمْ أَنْ يَكُونَ هُوَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأَوْلَى أَيْ هُوَ مَالِكُهُمَا، فَهُوَ يُعْطِي مِنْهُمَا مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَحَكَّمَ عَلَيْهِ في شَيْءٍ مِنْهُمَا.

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[7]

يَعْنِي: أَنَّ أَمْرَ الشَّفَاعَةِ ضَيِّقٌ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ مَعَ قُرْبَتِهِمْ وَزُلْفَاهُمْ وَكَثْرَتِهِمْ وَاغْتِصَاصِ السَّمَوَاتِ بِجُمُوعِهِمْ لَوْ شَفَعُوا بِأَجْمَعِهِمْ لِأَحَدٍ لَمْ تُغْنِ شَفَاعَتُهُمْ عَنْهُ شَيْئًا قَطُّ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

وَلَمْ تَنْفَعْ، إِلَّا إِذَا شَفَعُوا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الشَّفَاعَةِ لِمَنْ يَشَاءُ الشَّفَاعَةَ لَهُ وَيَرْضَاهُ وَيَرَاهُ أَهْلًا، لِأَنْ يَشْفَعَ لَهُ، فَكَيْفَ تَشْفَعُ الْأَصْنَامُ إِلَيْهِ بِعَبَدَتِهِمْ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾[1]

﴿لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ﴾[2]، أَيْ: كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، ﴿تَسْمِيَةَ الأُنْثَى﴾[3]، لِأَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، فَقَدْ سَمُّوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِنْتًا وَهِيَ تَسْمِيَةُ الْأُنْثَى.

﴿بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾[4]، أَيْ: بِذَلِكَ وَبِمَا يَقُولُونَ.

وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيٍّ: (بِهَا)، أَيْ: بِالْمَلَائِكَةِ، أَوِ التَّسْمِيَةُ.

﴿لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[5]، يَعْنِي: إِنَّمَا يُدْرِكُ الْحَقَّ الَّذِي هُوَ حَقِيقَةُ الشَّيْءِ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ بِالْعِلْمِ وَالتَّيَقُّنِ لَا بِالظَّنِّ وَالتَّوَهُّمِ.

﴿فَأَعْرَضَ﴾[6] عَنْ دَعْوَةِ مَنْ رَأَيْتُهُ مُعْرِضًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الْآخِرَةِ، وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الدُّنْيَا، وَلَا تَتَهَالَكُ عَلَى إِسْلَامِهِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾[7]، أَيْ: إِنَّمَا يَعْلَمُ اللَّهُ مَنْ يُجِيبُ مِمَّنْ لَا يُجِيبُ، وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ، فَخَفِّضْ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا تُتْعِبْهَا، فَإِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ، وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ.

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .

وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾[1]: اعْتِرَاضٌ أَوْ فَأَعْرِضْ عَنْهُ وَلَا تُقَابِلْهُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالضَّالِّ وَالْمُهْتَدِي، وَهُوَ مُجَازِيهِمَا بِمَا يَسْتَحِقَّانِ مِنَ الْجَزَاءِ.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[2]

قُرِئَ: (لِيَجْزِيَ) وَ(يُجْزَى)، بِالْيَاءِ وَالنُّونِ فِيهِمَا.

وَمَعْنَاهُ: أَنَّ اللَّهَ –عَزَّ وَجَلَّ– إِنَّمَا خَلَقَ الْعَالَمَ وَسَوَّى هَذَا الْمَلَكُوتَ لِهَذَا الْغَرَضِ، وَهُوَ أَنْ يُجَازِيَ الْمُحْسِنَ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ وَالْمُسِيءَ مِنْهُمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾[3]، لِأَنَّ نَتِيجَةَ الْعِلْمِ بِالضَّالِّ وَالْمُهْتَدِي جَزَاؤُهُمَا، ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾[4]: بِعِقَابِ مَا عَمِلُوا مِنَ السُّوءِ.

وَ﴿بِالْحُسْنَى﴾[5] بِالْمَثُوبَةِ الْحُسْنَى، وَهِيَ الْجَنَّةُ، أَوْ بِسَبَبِ مَا عَمِلُوا مِنَ السُّوءِ وَبِسَبَبِ الْأَعْمَالِ الْحُسْنَى.

﴿كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾[6]، أَيِ: الْكَبَائِرُ مِنَ الْإِثْمِ، لِأَنَّ الْإِثْمَ جِنْسٌ يَشْتَمِلُ عَلَى كَبَائِرَ وَصَغَائِرَ.

وَالْكَبَائِرُ: الذُّنُوبُ الَّتِي لَا يَسْقُطُ عِقَابُهَا إِلَّا بِالتَّوْبَةِ.

وَقِيلَ: الَّتِي يَكْبُرُ عِقَابُهَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى ثَوَابِ صَاحِبِهَا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾[1]: مَا فَحُشَ مِنَ الْكَبَائِرِ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَالْفَوَاحِشُ مِنْهَا خَاصَّةً.

وَقُرِئَ: (كَبِيرُ الْإِثْمِ) أَيِ: النَّوْعُ الْكَبِيرُ مِنْهُ، وَقِيلَ: هُوَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ.

وَاللَّمَمُ: مَا قَلَّ وَصَغُرَ. وَمِنْهُ: اللَّمَمُ الْمَسُّ مِنَ الْجُنُونِ، وَاللَّوْثَةُ مِنْهُ. وَأَلَمَّ بِالْمَكَانِ إِذَا قَلَّ فِيهِ لُبْثُهُ. وَأَلَمَّ بِالطَّعَامِ: قَلَّ مِنْهُ أَكْلُهُ، وَمِنْهُ:

لِقَاءُ أَخِلَّاءِ الصَّفَا لِمَـــــــــــــــــامُ

وَالْمُرَادُ الصَّغَائِرُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَلَا يَخْلُو قَوْلُهُ تَعَالَى :إِلا اللَّمَمَ مِنْ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءً مُنْقَطِعًا أَوْ صِفَةً، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ﴾[2]،]الْأَنْبِيَاءُ: 22] كَأَنَّهُ قِيلَ: كَبَائِرُ الْإِثْمِ غَيْرُ اللَّمَمِ، وَآلِهَةٌ غَيْرُ اللَّهِ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: اللَّمَمُ هِيَ النَّظْرَةُ، وَالْغَمْزَةُ، وَالْقُبْلَةُ.

وَعِنْدَ السُّدِّيِّ: الْخَطِرَةُ مِنَ الذَّنْبِ.

وَعَنِ الْكَلْبِيِّ: كُلُّ ذَنْبٍ لَمْ يُذْكَرِ اللَّهُ عَلَيْهِ حَدًّا وَلَا عَذَابًا.

وَعَنْ عَطَاءٍ: عَادَةُ النَّفْسِ الْحِينُ بَعْدَ الْحِينِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾[3]، حَيْثُ يُكَفِّرُ الصَّغَائِرَ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ، وَالْكَبَائِرَ بِالتَّوْبَةِ.

﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾[4]: فَلَا تَنْسِبُوهَا إِلَى زَكَاءِ الْعَمَلِ وَزِيَادَةِ الْخَيْرِ وَعَمَلِ الطَّاعَاتِ، أَوْ إِلَى الزَّكَاءِ وَالطَّهَارَةِ مِنَ الْمَعَاصِي، وَلَا تُثْنُوا عَلَيْهَا وَاهْضِمُوهَا، فَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ الزَّكِيَّ مِنْكُمْ وَالتَّقِيَّ أَوَّلًا وَآخِرًا قَبْلَ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ، وَقَبْلَ أَنْ تَخْرُجُوا مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ.

وَقِيلَ: كَانَ نَاسٌ يَعْمَلُونَ أَعْمَالًا حَسَنَةً ثُمَّ يَقُولُونَ: صَلَاتُنَا وَصِيَامُنَا وَحَجُّنَا، فَنَزَلَتْ.

وَهَذَا إِذَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ الْإِعْجَابِ أَوِ الرِّيَاءِ: فَأَمَّا مَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ مَا عَمِلَهُ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنَ اللَّهِ وَبِتَوْفِيقِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَلَمْ يَقْصِدْ بِهِ التَّمَدُّحَ، لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُزَكِّينَ أَنْفُسَهُمْ، لِأَنَّ الْمَسَرَّةَ بِالطَّاعَةِ طَاعَةٌ، وَذِكْرُهَا شُكْرٌ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلا وَأَكْدَى أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾[1]

﴿وَأَكْدَى﴾[2] قَطَعَ عَطِيَّتَهُ وَأَمْسَكَ، وَأَصْلُهُ: إِكْدَاءُ الْحَافِرِ، وَهُوَ أَنْ تَلْقَاهُ كُدْيَةٌ: وَهِيَ صَلَابَةٌ كَالصَّخْرَةِ فيمْسِكُ عَنِ الْحَفْرِ، وَنَحْوُهُ: أُجْبِلَ الْحَافِرُ، ثُمَّ اسْتُعِيرَ، فَقِيلَ: أَجْبَلَ الشَّاعِرُ إِذَا أَفْحَمَ.

رُوِيَ: أَنَّ عُثْمَانَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– كَانَ يُعْطِي مَالَهُ في الْخَيْرِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ –وَهُوَ أَخُوهُ مِنَ الرَّضَاعَةِ–: يُوشِكُ أَنْ لَا يُبْقِي لَكَ شَيْءٌ، فَقَالَ عُثْمَانُ: إِنَّ لِي ذُنُوبًا وَخَطَايَا، وَإِنِّي أَطْلُبُ بِمَا أَصْنَعُ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى– وَأَرْجُو عَفْوَهُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَعْطِنِي نَاقَتَكَ بِرَحْلِهَا وَأَنَا أَتَحَمَّلُ عَنْكَ ذُنُوبَكَ كُلَّهَا، فَأَعْطَاهُ وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ وَأَمْسَكَ عَنِ الْعَطَاءِ. فَنَزَلَتْ.

وَمَعْنَى ﴿تَوَلَّى﴾[3]: تَرَكَ الْمَرْكَزَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَعَادَ عُثْمَانُ إِلَى أَحْسَنَ مِنْ ذَلِكَ وَأَجْمَلَ.

﴿فَهُوَ يَرَى﴾[4]: فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ مَا قَالَهُ لَهُ أَخُوهُ مِنَ احْتِمَالِ أَوْزَارِهِ حَقٌّ.

﴿وَفي﴾[5] قُرِئَ مُخَفَّفًا وَمُشَدَّدًا، وَالتَّشْدِيدُ مُبَالَغَةٌ في الْوَفَاءِ، أَوْ بِمَعْنَى: وَفَّرَ وَأَتَمَّ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾[6] [الْبَقَرَةُ: 124]، وَإِطْلَاقُهُ لِيَتَنَاوَلَ كُلَّ وَفَاءٍ وَتَوْفِيةٍ، مِنْ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

ذَلِكَ: تَبْلِيغُهُ الرِّسَالَةَ، وَاسْتِقْلَالُهُ بِأَعْبَاءِ النُّبُوَّةِ، وَالصَّبْرُ عَلَى ذَبْحِ وَلَدِهِ وَعَلَى نَارِ نَمْرُوذَ، وَقِيَامُهُ بِأَضْيَافِهِ وَخِدْمَتُهُ إِيَّاهُمْ بِنَفْسِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَخْرُجُ كُلَّ يَوْمٍ فيمْشِي فَرْسَخًا يَرْتَادُ ضَيْفًا، فَإِنْ وَافَقَهُ أَكْرَمَهُ، وَإِلَّا نَوَى الصَّوْمَ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِشَيْءٍ إِلَّا وَفى بِهِ.

وَعَنِ الْهُزَيْلِ بْنِ شُرَحْبِيلَ: كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَبَيْنَ إِبْرَاهِيمَ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ بِجَرِيرَةِ غَيْرِهِ، وَيُقْتَلُ بِأَبِيهِ وَابْنِهِ وَعَمِّهِ وَخَالِهِ، وَالزَّوْجُ بِامْرَأَتِهِ، وَالْعَبْدُ بِسَيِّدِهِ، فَأَوَّلُ مَنْ خَالَفَهُمْ إِبْرَاهِيمُ.

وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ: عَهِدَ أَنْ لَا يَسْأَلَ مَخْلُوقًا، فَلَمَّا قُذِفَ فِي النَّارِ قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ: أَمَّا إِلَيْكُمَا فَلَا.

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "وَفى عَمَلَهُ كُلَّ يَوْمٍ بِأَرْبَعِ رَكَعَاتٍ فِي صَدْرِ النَّهَارِ"، وَهِيَ صَلَاةُ الضُّحَى.

وَرَوَى: أَلَا أُخْبِرُكُمْ لِمَ سَمَّى اللَّهُ خَلِيلَهُ: ﴿الَّذِي وَفَّى﴾[1]؟ كَانَ يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ وَأَمْسَى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾[2] إِلَى ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾[3].]الرُّومُ: 17- 18[

وَقِيلَ: وَفى سِهَامِ الْإِسْلَامِ: وَهِيَ ثَلَاثُونَ: عَشْرَةٌ فِي التَّوْبَةِ: ﴿التَّائِبُونَ﴾[4]، [التَّوْبَةُ: 112] وَعَشْرَةٌ فِي الْأَحْزَابِ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾[5]،]الْأَحْزَابُ: 35] وَعَشْرَةٌ فِي الْمُؤْمِنِينَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[6].

وَقُرِئَ: (فى صُحُفِ)، بِالتَّخْفِيفِ.

﴿أَلا تَزِرُ﴾[7]: أَنْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا تَزِرُ، وَالضَّمِيرُ ضَمِيرُ الشَّأْنِ، وَمَحَلُّ أَنْ وَمَا بَعْدَهَا: الْجَرُّ بَدَلًا مِنْ مَا في صُحُفِ مُوسَى، أَوِ الرَّفْعُ عَلَى: هُوَ أَنْ لَا تَزِرْ، كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: وَمَا في صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ، فَقِيلَ: أَنْ لَا تَزِرَ ﴿إلا مَا سَعَى﴾[1] إِلَّا سَعْيَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا صَحَّ في الْأَخْبَارِ: الصَّدَقَةُ عَنِ الْمَيِّتِ، وَالْحَجُّ عَنْهُ، وَلَهُ الْإِضْعَافُ؟

قُلْتُ: فيهِ جَوَابَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنَّ سَعْيَ غَيْرِهِ لَمَّا لَمْ يَنْفَعْهُ إِلَّا مَبْنِيًّا عَلَى سَعْيِ نَفْسِهِ –وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا صَالِحًا، وَكَذَلِكَ الْإِضْعَافُ– كَأَنَّ سَعْيَ غَيْرِهِ كَأَنَّهُ سَعْيُ نَفْسِهِ، لِكَوْنِهِ تَابِعًا لَهُ وَقَائِمًا بِقِيَامِهِ.

– وَالثَّانِي: أَنَّ سَعْيَ غَيْرِهِ لَا يَنْفَعُهُ إِذَا عَمِلَهُ لِنَفْسِهِ، وَلَكِنْ إِذَا نَوَاهُ بِهِ، فَهُوَ بِحُكْمِ الشَّرْعِ كَالنَّائِبِ عَنْهُ وَالْوَكِيلِ الْقَائِمِ مَقَامَهُ.

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾[2]: ثُمَّ يَجْزِي الْعَبْدَ سَعْيَهُ، يُقَالُ: أَجْزَاهُ اللَّهُ عَمَلَهُ وَجَزَاهُ عَلَى عَمَلِهِ، بِحَذْفِ الْجَارِّ وَإِيصَالِ الْفِعْلِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ لِلْجَزَاءِ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾[3] أَوْ أَبْدَلَهُ عَنْهُ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[4]]الْأَنْبِيَاءُ: 3[.

﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾[5]، قُرِئَ بِالْفَتْحِ عَلَى مَعْنَى: أَنَّ هَذَا كُلَّهُ في الصُّحُفِ، وَبِالْكَسْرِ عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَكَذَلِكَ مَا بَعْدَهُ.

وَالْمُنْتَهَى: مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الِانْتِهَاءِ، أَيْ: يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْخَلْقُ وَيَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[6]]فَاطِرٌ: 18.[

﴿ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾[7]: خَلَقَ قُوَّتَيِ الضَّحِكَ وَالْبُكَاءَ.

﴿إِذَا تُمْنَى﴾[8] إِذَا تَدَفَّقَ في الرَّحِمِ، يُقَالُ: مَنَّى وَأَمْنَى.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

وَعَنِ الْأَخْفَشِ: تُخْلَقُ مِنْ مَنِيِّ الْمَانِي، أَيْ: قَدَّرَ الْمُقَدِّرُ.

قُرِئَ: (النَّشْأَةَ) وَ(النَّشَاءَةَ) بِالْمَدِّ.

وَقَالَ: ﴿عَلَيْهِ﴾[1]، لِأَنَّهَا وَاجِبَةٌ عَلَيْهِ فِي الْحِكْمَةِ، لِيُجَازِيَ عَلَى الْإِحْسَانِ وَالْإِسَاءَةِ.

﴿وَأَقْنَى﴾[2] وَأَعْطَى الْقُنْيَةَ، وَهِيَ الْمَالُ الَّذِي تَأَثَّلْتَهُ وَعَزَمْتَ أَنْ لَا تُخْرِجَهُ مِنْ يَدِكَ.

﴿الشِّعْرَى﴾[3] مَرْزَمُ الْجَوْزَاءِ: وَهِيَ الَّتِي تَطْلُعُ وَرَاءَهَا، وَتُسَمَّى كَلْبَ الْجَبَّارِ، وَهُمَا شِعْرِيَّانِ الْغُمَيْصَاءُ وَالْعُبُورُ وَأَرَادَ الْعُبُورَ. وَكَانَتْ خُزَاعَةُ تَعْبُدُهَا، سَنَّ لَهُمْ ذَلِكَ أَبُو كَبْشَةَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أَبُو كَبْشَةَ، تَشْبِيهًا لَهُ بِهِ لِمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهُمْ فِي دِينِهِمْ، يُرِيدُ: أَنَّهُ رَبُّ مَعْبُودِهِمْ هَذَا.

عَادٌ الْأُولَى: قَوْمُ هُودٍ، وَعَادٌ الْأُخْرَى: إِرَمُ.

وَقِيلَ: الْأُولَى الْقُدَمَاءُ، لِأَنَّهُمْ أَوَّلُ الْأُمَمِ هَلَاكًا بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ، أَوِ الْمُتَقَدِّمُونَ فِي الدُّنْيَا الْأَشْرَافُ.

وَقُرِئَ: (عَادًا لُّولَى) وَ (عَادَ لُولَى)، بِإِدْغَامِ التَّنْوِينِ فِي اللَّامِ وَطَرْحِ هَمْزَةِ أُولَى وَنَقْلِ ضَمَّتِهَا إِلَى لَامِ التَّعْرِيفِ.

﴿وَثَمُودًا﴾[4]، وَقُرِئَ: (وَثَمُودُ).

﴿أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾[5]، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُؤْذُونَهُ وَيَضْرِبُونَهُ حَتَّى لَا يَكُونَ بِهِ حِرَاكٌ، وَيَنْفِرُونَ عَنْهُ حَتَّى كَانُوا يُحَذِّرُونَ صِبْيَانَهُمْ أَنْ يَسْمَعُوا مِنْهُ، وَمَا أَثَّرَ فِيهِمْ دُعَاؤُهُ قَرِيبًا مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾[6]: وَالْقُرَى الَّتِي ائْتَفِكَتْ بِأَهْلِهَا، أَيِ: انْقَلَبَتْ، وَهُمْ قَوْمُ لُوطٍ، يُقَالُ: أَفَكَهُ فَائْتَفَكَ. وَقُرِئَ: (وَالْمُؤْتَفِكَاتُ).

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿أَهْوَى﴾[1]: رَفَعَهَا إِلَى السَّمَاءِ عَلَى جَنَاحِ جِبْرِيلَ، ثُمَّ أَهْوَاهَا إِلَى الْأَرْضِ، أَيْ: أَسْقَطَهَا.

﴿مَا غَشَّى﴾[2]: تَهْوِيلٌ وَتَعْظِيمٌ لِمَا صُبَّ عَلَيْهَا مِنَ الْعَذَابِ وَأَمْطَرَ عَلَيْهَا مِنَ الصَّخْرِ الْمَنْضُودِ.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى أَزِفَتِ الآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[3]

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾[4]: تَتَشَكَّكُ، وَالْخِطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أَوْ لِلْإِنْسَانِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَقَدْ عَدَّدَ نِعَمًا وَنِقَمًا وَسَمَّاهَا كُلَّهَا آلَاءً مِنْ قِبَلِ مَا فِي نِقْمَةٍ مِنَ الْمَزَاجِرِ وَالْمَوَاعِظِ لِلْمُعْتَبِرِينَ.

﴿هَذَا﴾[5] الْقُرْآنُ ﴿نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾[6]، أَيْ: إِنْذَارٌ مِنْ جِنْسِ الْإِنْذَارَاتِ الْأُولَى الَّتِي أَنْذَرَ بِهَا مَنْ قَبْلَكُمْ، أَوْ هَذَا الرَّسُولُ مُنْذِرٌ مِنَ الْمُنْذِرِينَ الْأَوَّلِينَ، وَقَالَ: الْأُولَى عَلَى تَأْوِيلِ الْجَمَاعَةِ.

﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾[7] قُرِّبَتِ الْمَوْصُوفَةُ بِالْقُرْبِ مِنْ قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾[8]]الْقَمَرُ: 1[.

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .
8 سورة ، الآية .

﴿لَيْسَ لَهَا﴾[1] نَفْسٌ ﴿كَاشِفَةٌ﴾[2]، أَيْ: مُبَيِّنَةٌ مَتَى تَقُومُ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ﴾[3]]الْأَعْرَافُ: 1877] أَوْ لَيْسَ لَهَا نَفْسٌ كَاشِفَةٌ، أَيْ: قَادِرَةٌ عَلَى كَشْفِهَا إِذَا وَقَعَتْ إِلَّا اللَّهُ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَكْشِفُهَا، أَوْ لَيْسَ لَهَا الْآنَ نَفْسٌ كَاشِفَةٌ بِالتَّأْخِيرِ.

وَقِيلَ الْكَاشِفَةُ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْكَشْفِ: كَالْعَافِيةِ.

وَقَرَأَ طَلْحَةُ: (لَيْسَ لَهَا مِمَّا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ، وَهِيَ عَلَى الظَّالِمِينَ سَاءَتِ الْغَاشِيَةُ).

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾[4]

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ﴾[5]، وَهُوَ الْقُرْآنُ.

﴿تَعْجَبُونَ﴾[6]: إِنْكَارًا، ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾[7]: اسْتِهْزَاءً، ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾[8]، وَالْبُكَاءُ وَالْخُشُوعُ حَقٌّ عَلَيْكُمْ.

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "أَنَّهُ لَمْ يُرَ ضَاحِكًا بَعْدَ نُزُولِهَا".

وَقُرِئَ: (تَعْجَبُونَ تَضْحَكُونَ)، بِغَيْرِ وَاوٍ.

﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾[9]: شَامِخُونَ مُبَرْطِمُونَ.

وَقِيلَ: لَاهُونَ لَاعِبُونَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِجَارِيَتِهِ: اسْمُدِي لَنَا، أَيْ: غَنِّي لَنَا.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾[1]: وَلَا تَعْبُدُوا الْآلِهَةَ.

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النَّجْمِ أَعْطَاهُ اللَّهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بِمُحَمَّدٍ وَجَحَدَ بِهِ بِمَكَّةَ".

[1] سورة ، الآية .

سورة القمر

سورة القمر

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا الْآيَاتِ 44 و 45 و 46 فَمَدَنِيَّةٌ]
وَآيَاتُهَا 55
[نَزَلَتْ بَعْدَ الطَّارِقِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾[1]

انْشِقَاقُ الْقَمَرِ مِنْ آيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَمُعْجِزَاتِهِ النَّيِّرَةِ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَنَّ الْكُفَّارَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– آيَةً فَانْشَقَّ الْقَمَرُ مَرَّتَيْنِ.

وَكَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: انْفَلَقَ فِلْقَتَيْنِ فِلْقَةً ذَهَبَتْ وَفِلْقَةً بَقِيَتْ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: رَأَيْتُ حِرَاءَ بَيْنَ فِلْقَتَيِ الْقَمَرِ.

وَعَنْ بَعْضِ النَّاسِ: أَنَّ مَعْنَاهُ يَنْشَقُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾[1] يَرُدُّهُ، وَكَفى بِهِ رَادًّا، وَفى قِرَاءَةِ حُذَيْفَةَ: (وَقَدِ انْشَقَّ الْقَمَرُ) أَيِ: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ، وَقَدْ حَصَلَ مِنْ آيَاتِ اقْتِرَابِهَا أَنَّ الْقَمَرَ قَدِ انْشَقَّ، كَمَا تَقُولُ: أَقْبَلَ الْأَمِيرُ وَقَدْ جَاءَ الْمُبَشِّرُ بِقُدُومِهِ.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ خَطَبَ بِالْمَدَائِنِ ثُمَّ قَالَ: أَلَا إِنَّ السَّاعَةَ قَدِ اقْتَرَبَتْ وَإِنَّ الْقَمَرَ قَدِ انْشَقَّ عَلَى عَهْدِ نَبِيِّكُمْ. مُسْتَمِرٌّ: دَائِمٌ مُطَّرِدٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَدِ انْقَادَتْ طَرِيقَتُهُ وَدَامَتْ حَالُهُ.

قِيلَ فيهِ: قَدِ اسْتَمَرَّ. لَمَّا رَأَوْا تَتَابُعَ الْمُعْجِزَاتِ وَتَرَادُفَ الْآيَاتِ، قَالُوا: هَذَا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ. وَقِيلَ: مُسْتَمِرُّ قَوِيٌّ مُحْكَمٌ، مِنْ قَوْلِهِمْ: اسْتَمَرَّ مَرِيرُهُ. وَقِيلَ: هُوَ مِنِ اسْتَمَرَّ الشَّيْءُ إِذَا اشْتَدَّتْ مَرَارَتُهُ، أَيْ: مُسْتَبْشِعٌ عِنْدَنَا، مَرَّ عَلَى لَهَوَاتِنَا، لَا نَقْدِرُ أَنَّ نُسِيغَهُ كَمَا لَا يُسَاغُ الْمُرُّ الْمُمْقِرُ. وَقِيلَ: مُسْتَمِرُّ مَارٌّ، ذَاهِبٌ يَزُولُ وَلَا يَبْقَى، تَمْنِيَةً لِأَنْفُسِهِمْ وَتَعْلِيلًا.

وَقُرِئَ: (وَإِنْ يَرَوْا).

﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[2]: وَمَا زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مِنْ دَفْعِ الْحَقِّ بَعْدَ ظُهُورِهِ، ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾[3]، أَيْ: كُلُّ أَمْرٍ لَا بُدَّ أَنْ يَصِيرَ إِلَى غَايَةٍ يَسْتَقِرُّ عَلَيْهَا، وَإِنَّ أَمْرَ مُحَمَّدٍ سَيَصِيرُ إِلَى غَايَةٍ يَتَبَيَّنُ عِنْدَهَا أَنَّهُ حَقٌّ، أَوْ بَاطِلٌ وَسَيَظْهَرُ لَهُمْ عَاقِبَتُهُ، أَوْ وَكُلُّ أَمْرٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَأَمْرِهِ مُسْتَقِرٌّ، أَيْ: سَيَثْبُتُ وَيَسْتَقِرُّ عَلَى حَالَةِ خِذْلَانٍ أَوْ نُصْرَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَشَقَاوَةٍ أَوْ سَعَادَةٍ فِي الْآخِرَةِ.

وَقُرِئَ: بِفَتْحِ الْقَافِ، يَعْنِي: ﴿كُلَّ أَمْرٍ ذُو مُسْتَقَرٍّ﴾[4]، أَيْ: ذُو اسْتِقْرَارٍ، أَوْ ذُو مَوْضِعِ اسْتِقْرَارٍ، أَوْ زَمَانِ اسْتِقْرَارٍ.

وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ: "مُسْتَقِرٌّ" بِكَسْرِ الْقَافِ وَالْجَرِّ عَطْفًا عَلَى السَّاعَةِ، أَيِ: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ، وَاقْتَرَبَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ يَسْتَقِرُّ وَيَتَبَيَّنُ حَالُهُ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[1]

﴿مِنَ الأَنْبَاءِ﴾[2]: مِنَ الْقُرْآنِ الْمُوَدَعِ أَنْبَاءُ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ أَوْ أَنْبَاءِ الْآخِرَةِ، وَمَا وَصَفَ مِنْ عَذَابِ الْكُفَّارِ.

﴿مُزْدَجَرٌ﴾[3]: ازْدِجَارٌ أَوْ مَوْضِعُ ازْدِجَارٍ.

وَالْمَعْنَى: هُوَ فِي نَفْسِهِ مَوْضِعُ الِازْدِجَارِ وَمَظِنَّةٌ لَهُ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[4]،]الْأَحْزَابُ: 211] أَيْ: هُوَ أُسْوَةٌ.

وَقُرِئَ: (مُزَّجَرٌ) بِقَلْبِ تَاءِ الِافْتِعَالِ زَايًا وَإِدْغَامِ الزَّايِ فِيهَا.

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾[5] بَدَلٌ مِنْ مَاءٍ، أَوْ عَلَى: هُوَ حِكْمَةٌ.

وَقُرِئَ بِالنَّصْبِ حَالًا مِنْ مَا.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنْ كَانَتْ ﴿مَا﴾[6] مَوْصُولَةً سَاغَ لَكَ أَنْ تَنْصِبَ ﴿حِكْمَةً﴾[7] حَالًا، فَكَيْفَ تَعْمَلُ إِنْ كَانَتْ مَوْصُوفَةً؟ وَهُوَ الظَّاهِرُ.

قُلْتُ: تُخَصِّصُهَا الصِّفَةُ، فَيَحْسُنُ نَصْبُ الْحَالِ عَنْهَا ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾[8] نَفْيٌ أَوْ إِنْكَارٌ.

وَ﴿مَا﴾[9] مَنْصُوبَةٌ، أَيْ: فَأَيُّ غِنَاءٍ تُغْنِي النُّذُرُ، ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾[10] لِعِلْمِكَ أَنَّ الْإِنْذَارَ لَا يُغْنِي فِيهِمْ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .
[10] سورة ، الآية .

نُصِبَ ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾[1] بِيَخْرُجُونَ، أَوْ بِإِضْمَارِ اذْكُرْ.

وَقُرِئَ: بِإِسْقَاطِ الْيَاءِ اكْتِفَاءً بِالْكَسْرَةِ عَنْهَا، وَالدَّاعِي إِسْرَافِيلُ أَوْ جِبْرِيلُ، كَقَوْلِهِ – تَعَالَى–: ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾[2]]ق: 41.

﴿إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾[3] مُنْكَرٌ فَظِيعٌ تُنْكِرُهُ النُّفُوسُ، لِأَنَّهَا لَمْ تَعْهَدْ بِمِثْلِهِ، وَهُوَ هَوْلُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَقُرِئَ: (نُكْرٌ) بِالتَّخْفِيفِ، وَنُكُرٌ بِمَعْنَى أَنْكَرَ.

﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾[4] حَالٌ مِنَ الْخَارِجِينَ فَعَلَ لِلْأَبْصَارِ وَذَكَرَ، كَمَا تَقُولُ: يَخْشَعُ أَبْصَارَهُمْ.

وَقُرِئَ: (خَاشِعَةً) عَلَى: تَخْشَعُ أَبْصَارُهُمْ. وَ(خُشَّعًا) عَلَى: يَخْشَعْنَ أَبْصَارَهُمْ، وَهِيَ لُغَةُ مَنْ يَقُولُ: أَكَلُونِي الْبَرَاغِيثُ، وَهُمْ طَيِّءٌ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي ﴿خُشَّعًا﴾[5] ضَمِيرُهُمْ، وَتَقَعُ "أَبْصَارُهُمْ" بَدَلًا عَنْهُ.

وَقُرِئَ: (خَشَعَ أَبْصَارُهُمْ)، عَلَى الِابْتِدَاءِ وَالْخَبَرِ، وَمَحَلُّ الْجُمْلَةِ النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ.

كَقَوْلِهِ:

وَجَدْتُهُ حَاضِرَاهُ الْجُودُ وَالْكَـــــــرَمُ

وَخُشُوعُ الْأَبْصَارِ: كِنَايَةٌ عَنِ الذِّلَّةِ وَالِانْخِزَالِ، لِأَنَّ ذِلَّةَ الذَّلِيلِ وَعِزَّةَ الْعَزِيزِ تَظْهَرَانِ فِي عُيُونِهِمَا.

وَقُرِئَ: (يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ) مِنَ الْقُبُورِ، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾[6] الْجَرَادُ مَثَلٌ فِي الْكَثْرَةِ وَالتَّمَوُّجِ.

يُقَالُ فِي الْجَيْشِ الْكَثِيرِ الْمَائِجِ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ: جَاءُوا كَالْجَرَادِ، وَكَالدَّبَا مُنْتَشِرٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ لِكَثْرَتِهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾[1]: مُسْرِعِينَ مَادِّي أَعْنَاقَهُمْ إِلَيْهِ.

وَقِيلَ: نَاظِرِينَ إِلَيْهِ لَا يُقْلِعُونَ بِأَبْصَارِهِمْ.

قَالَ:

تَعَبَّدَنِي نِمْرُ بْنُ سَعْدٍ وَقَدْ أَرَى وَنِمْرُ بْنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ وَمُهْطِعُ

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[2]

﴿قَبْلَهُمْ﴾[3]: قَبْلَ أَهْلِ مَكَّةَ، ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾[4]، يَعْنِي نُوحًا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿فَكَذَّبُوا﴾[5] بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿كَذَّبَتْ﴾[6]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: كَذَّبُوا فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا، أَيْ: كَذَّبُوهُ تَكْذِيبًا عَلَى عَقِبِ تَكْذِيبٍ. كُلَّمَا مَضَى مِنْهُمْ قَرْنٌ مُكَذِّبٌ تَبِعَهُ قَرْنٌ مُكَذِّبٌ، أَوْ كَذَّبَتْ قَوْمَ نُوحٍ الرُّسُلُ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا، أَيْ: لَمَّا كَانُوا مُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ جَاحِدِينَ لِلنُّبُوَّةِ رَأْسًا كَذَّبُوا نُوحًا، لِأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الرُّسُلِ.

﴿مَجْنُونٍ﴾[7] هُوَ مَجْنُونٌ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

﴿وَازْدُجِرَ﴾[1]: وَانْتَهَرُوهُ بِالشَّتْمِ وَالضَّرْبِ وَالْوَعِيدِ بِالرَّجْمِ في قَوْلِهِمْ: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾[2].]الشُّعَرَاءُ: 1166]

وَقِيلَ: هُوَ مِنْ جُمْلَةِ قِيلِهِمْ، أَيْ: قَالُوا هُوَ مَجْنُونٌ، وَقَدِ ازْدَجَرَتْهُ الْجِنُّ وَتَخَبَّطَتْهُ وَذَهَبَتْ بِلُبِّهِ وَطَارَتْ بِقَلْبِهِ.

قُرِئَ: (أَنِّي) بِمَعْنَى: فَدَعَا بِأَنِّي مَغْلُوبٌ، وَإِنِّي: عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ، فَدَعَا، فَقَالَ: إِنِّي مَغْلُوبٌ غَلَبَنِي قَوْمِي، فَلَمْ يَسْمَعُوا مِنِّي وَاسْتَحْكَمَ الْيَأْسُ مِنْ إِجَابَتِهِمْ لِي.

﴿فَانْتَصِرْ﴾[3] فَانْتَقِمْ مِنْهُمْ بِعَذَابٍ تَبْعَثُهُ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا دَعَا بِذَلِكَ بَعْدَ مَا طَمَّ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَبَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَا، فَقَدْ رَوَى: أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْ أُمَّتِهِ كَانَ يَلْقَاهُ فيخْنُقُهُ حَتَّى يَخِرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ. فيفيقُ، وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

وَقُرِئَ: (فَفَتَحْنَا) مُخَفَّفًا وَمُشَدَّدًا، وَكَذَلِكَ وَفَجَّرْنَا "مْنْهَمِرٍ" مَنْصَبٌّ في كَثْرَةٍ وَتَتَابُعٍ لَمْ يَنْقَطِعْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾[4]: وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ كُلَّهَا كَأَنَّهَا عُيُونٌ تَتَفَجَّرُ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِكَ: وَفَجَّرْنَا عُيُونَ الْأَرْضِ وَنَظِيرُهُ في النَّظْمِ، ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[5]]مَرْيَمُ: 4.[

﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾[6]، يَعْنِي مِيَاهَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

وَقُرِئَ: (الْمَآنِ)، أَيِ: النَّوْعَانِ مِنَ الْمَاءِ السَّمَاوِيِّ وَالْأَرْضِيِّ.

وَنَحْوُهُ قَوْلُكَ: عِنْدِي تَمْرَانِ، تُرِيدُ: صَرْبَانِ مِنَ التَّمْرِ: بَرْنِيٌّ وَمَعْقِلِيٌّ.

قَالَ:

لَنَا إِبِلَانِ فيهِمَا مَا عَلِمْتُـــــــــــــــــمُ

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: (الْمَاوَانِ)، بِقَلْبِ الْهَمْزَةِ وَاوًا، كَقَوْلِهِمْ: عِلْبَاوَانِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[1]: عَلَى حَالٍ قَدَّرَهَا اللَّهُ كَيْفَ شَاءَ.

وَقِيلَ: عَلَى حَالٍ جَاءَتْ مُقَدَّرَةً مُسْتَوِيَةً: وَهِيَ أَنَّ قَدْرَ مَا أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ كَقَدْرِ مَا أَخْرَجَ مِنَ الْأَرْضِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ.

وَقِيلَ: عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ فِي اللَّوْحِ أَنَّهُ يَكُونُ، وَهُوَ هَلَاكُ قَوْمِ نُوحٍ بِالطُّوفَانِ.

﴿عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾[2] أَرَادَ السَّفِينَةَ، وَهِيَ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تَقُومُ مَقَامَ الْمَوْصُوفَاتِ، فَتَنُوبَ مَنَابَهَا وَتَوَدِّي مُؤَدَّاهَا. بِحَيْثُ لَا يَفْصِلُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا.

وَنَحْوُهُ:

....

وَلَكِنْ نَ قَمِيصِي مَسْرُودَةٌ مِنْ حَدِيـــدِ

أَرَادَ: وَلَكِنَّ قَمِيصِي دِرْعٌ، وَكَذَلِكَ:

وَلَوْ فِي عُيُونِ النَّازِيَاتِ بِأَكْـــــــــــرُعِ

أَرَادَ: وَلَوْ فِي عُيُونِ الْجَرَادِ.

أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ جَمَعْتَ بَيْنَ السَّفِينَةِ وَبَيْنَ هَذِهِ الصِّفَةِ، أَوْ بَيْنَ الدِّرْعِ وَالْجَرَادِ وَهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ، لَمْ يَصِحَّ، وَهَذَا مِنْ فَصِيحِ الْكَلَامِ وَبَدِيعِهِ.

وَالدُّسُرُ: جَمْعُ دِسَارٍ: وَهُوَ الْمِسْمَارُ، فِعَالٌ مِنْ دَسَرَهُ إِذَا دَفَعَهُ، لِأَنَّهُ يَدْسُرُ بِهِ مَنْفَذَهُ.

﴿جَزَاءً﴾[3] مَفْعُولٌ لَهُ لِمَا قَدَّمَ مِنْ فَتْحِ أَبْوَابِ السَّمَاءِ وَمَا بَعْدَهُ، أَيْ: فَعَلْنَا ذَلِكَ جَزَاءً.

﴿لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾[4]، وَهُوَ نُوحٌ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–، وَجَعَلَهُ مَكْفُورًا، لِأَنَّ النَّبِيَّ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ. قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[5]]الْأَنْبِيَاءُ: 107] فَكَانَ نُوحٌ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– نِعْمَةً مَكْفُورَةً.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى مَا يُحْكَى أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلرَّشِيدِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَيْكَ، فَقَالَ: مَا مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ؟ قَالَ: أَنْتَ نِعْمَةٌ حَمِدْتُ اللَّهَ عَلَيْهَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ الْجَارِّ وَإِيصَالِ الْفِعْلِ.

وَقَرَأَ قَتَادَةُ: (كُفْرٌ)، أَيْ: جَزَاءً لِلْكَافِرِينَ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: (جِزَاءً) بِالْكَسْرِ، أَيْ: مُجَازَاةً.

الضَّمِيرُ فِي ﴿تَرَكْنَاهَا﴾[1] لِلسَّفِينَةِ، أَوْ لِلْفِعْلَةِ، أَيْ: جَعَلْنَاهَا آيَةً يُعْتَبَرُ بِهَا.

وَعَنْ قَتَادَةَ: أَبْقَاهَا اللَّهُ بِأَرْضِ الْجَزِيرَةِ. وَقِيلَ: عَلَى الْجُودِيِّ دَهْرًا طَوِيلًا، حَتَّى نَظَرَ إِلَيْهَا أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

وَالْمُدَّكِرُ: الْمُعْتَبَرُ.

وَقُرِئَ: (مُذْتَكِرٌ) عَلَى الْأَصْلِ.

وَ(مُذَّكِّرٌ)، بِقَلْبِ التَّاءِ ذَالًا وَإِدْغَامِ الذَّالِ فِيهَا.

وَهَذَا نَحْوُ: مُذَّجِرٌ. وَالنُّذُرُ: جَمْعُ نَذِيرٍ وَهُوَ الْإِنْذَارُ.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾[2]، أَيْ سَهَّلْنَاهُ لِلِادِّكَارِ وَالِاتِّعَاظِ، بِأَنْ شَحَنَّاهُ بِالْمَوَاعِظِ الشَّافِيَةِ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، ﴿فَهَلْ مِنْ﴾[3] مُتَّعِظٍ؟

وَقِيلَ: وَلَقَدْ سَهَّلْنَاهُ لِلْحِفْظِ وَأَعَنَّا عَلَيْهِ مَنْ أَرَادَ حِفْظَهُ، فَهَلْ مِنْ طَالِبٍ لِحِفْظِهِ لِيُعَانَ عَلَيْهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَلَقَدْ هَيَّأْنَاهُ لِلذِّكْرِ، مَنْ يَسَّرَ نَاقَتَهُ لِلسَّفَرِ: إِذَا رَحَّلَهَا، وَيَسَّرَ فَرَسَهُ لِلْغَزْوِ، إِذَا أَسْرَجَهُ وَأَلْجَمَهُ.

قَالَ:

وَقُمْتُ إِلَيْهِ بِاللِّجَامِ مُيَسِّرًا هُنَالِكَ يَجْزِينِي الَّذِي كُنْتُ أَصْنَعُ

وَيُرْوَى: أَنَّ كُتُبَ أَهْلِ الْأَدْيَانِ نَحْوَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ لَا يَتْلُوهَا أَهْلُهَا إِلَّا نَظَرًا وَلَا يَحْفَظُونَهَا ظَاهِرًا كَمَا الْقُرْآنُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[1]

﴿وَنُذُرِ﴾[2]: وَإِنْذَارِي لَهُمْ بِالْعَذَابِ قَبْلَ نُزُولِهِ، أَوْ إِنْذَارٌ أَتَى فِي تَعْذِيبِهِمْ لِمَنْ بَعْدَهُمْ ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾[3] فِي يَوْمِ شُؤْمٍ.

وَقُرِئَ: (فى يَوْمٍ نَحْسٍ) كَقَوْلِهِ: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾[4]] .فُصِّلَتْ: 166].

﴿مُسْتَمِرٍّ﴾[5] قَدِ اسْتَمَرَّ عَلَيْهِمْ وَدَامَ حَتَّى أَهْلَكَهُمْ، أَوِ اسْتَمَرَّ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا كَبِيرُهُمْ وَصَغِيرُهُمْ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ نَسَمَةٌ، وَكَانَ فِي أَرْبِعَاءَ فِي آخِرِ الشَّهْرِ لَا تَدُورُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالْمُسْتَمِرِّ: الشَّدِيدُ الْمَرَارَةِ وَالْبَشَاعَةِ.

﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾[6]: تَقْلَعُهُمْ عَنْ أَمَاكِنِهِمْ، وَكَانُوا يَصْطَفُونَ آخِذِينَ أَيْدِيهِمْ بِأَيْدِي بَعْضٍ.

وَيَتَدَخَّلُونَ فِي الشِّعَابِ، وَيَحْفِرُونَ الْحَفْرَ فَيَنْدَسُّونَ فِيهَا، فَتَنْزِعُهُمْ وَتَكُبُّهُمْ وَتَدُقُّ رِقَابَهُمْ، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾[7]، يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَسَاقَطُونَ عَلَى الْأَرْضِ أَمْوَاتًا وَهُمْ جُثَثٌ طِوَالٌ عِظَامٌ، كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ، وَهِيَ أُصُولُهَا بِلَا فُرُوعٍ.

مُنْقَعِرٍ: مُنْقَلِعٍ عَنْ مَغَارِسِهِ.

وَقِيلَ: شُبِّهُوا بِأَعْجَازِ النَّخْلِ، لِأَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَقْطَعُ رُءُوسَهُمْ، فَتَبْقَى أَجْسَادًا بِلَا رُءُوسٍ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

وَذَكَرَ صِفَةَ ﴿نَخْلٍ﴾[1] عَلَى اللَّفْظِ، وَلَوْ حَمَلَهَا عَلَى الْمَعْنَى لَأَنَّثَ، كَمَا قَالَ: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[2]]الْحَاقَّةُ: 7 .[

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[3]

﴿أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا﴾[4] نُصِبَ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ يُفَسِّرُهُ ﴿نَتَّبِعُهُ﴾[5].

وَقُرِئَ: (أَبَشَرٌ مِنَّا وَاحِدٌ) عَلَى الِابْتِدَاءِ.

وَ(نَتَّبِعُهُ) خَبَرُهُ، وَالْأَوَّلُ أَوْجَهُ لِلِاسْتِفْهَامِ. كَانَ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تَتَّبِعُونِي كُنْتُمْ فِي ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ، وَسُعُرٌ: وَنِيرَانٌ، جَمْعُ سَعِيرٍ، فَعَكَسُوا عَلَيْهِ، فَقَالُوا: إِنِ اتَّبَعْنَاكَ كُنَّا إِذَنْ كَمَا تَقُولُ.

وَقِيلَ: الضَّلَالُ: الْخَطَأُ وَالْبُعْدُ عَنِ الصَّوَابِ.

وَالسُّعُرُ: الْجُنُونُ. يُقَالُ: نَاقَةٌ مَسْعُورَةٌ.

قَالَ:

كَأَنَّ بِهَا سُعْرًا إِذَا الْعِيسُ هَزَّهَا ذَمِيلٌ وَإِرْخَاءٌ مِنَ السَّيْرِ مُتْعَبُ

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ أَنْكَرُوا أَنْ يَتَّبِعُوا بَشَرًا مِنْهُمْ وَاحِدًا؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

قُلْتُ: قَالُوا أَبَشَرًا: إِنْكَارًا لِأَنْ يَتَّبِعُوا مِثْلَهُمْ فِي الْجِنْسِيَّةِ، وَطَلَبُوا أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسٍ أَعْلَى مِنْ جِنْسِ الْبَشَرِ وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَقَالُوا: ﴿مِنَّا﴾[1]، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مِنْهُمْ كَانَتِ الْمُمَاثَلَةُ أَقْوَى، وَقَالُوا: ﴿وَاحِدًا﴾[2] إِنْكَارًا لِأَنَّ تَتَبُّعَ الْأُمَّةِ رَجُلًا وَاحِدًا، أَوْ أَرَادُوا وَاحِدًا مِنْ أَفْنَائِهِمْ لَيْسَ بِأَشْرَفِهِمْ وَأَفْضَلِهِمْ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾[3]، أَيْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ مِنْ بَيْنِنَا وَفِينَا مَنْ هُوَ أَحَقُّ مِنْهُ بِالِاخْتِيَارِ لِلنُّبُوَّةِ ﴿أَشِرٌ﴾[4] بَطِرٌ مُتَكَبِّرٌ، حَمَلَهُ بَطَرُهُ وَشَطَارَتُهُ وَطَلَبُهُ التَّعَظُّمَ عَلَيْنَا عَلَى ادِّعَاءِ ذَلِكَ.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾[5]: عِنْدَ نُزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾[6] أَصَالِحٌ أَمْ مَنْ كَذَّبَهُ.

وَقُرِئَ: (سَتَعْلَمُونَ) بِالتَّاءِ عَلَى حِكَايَةِ مَا قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ مُجِيبًا لَهُمْ، أَوْ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ -تَعَالَى- عَلَى سَبِيلِ الِالْتِفَاتِ.

وَقُرِئَ: (الْأَشُرُ) بِضَمِّ الشِّينِ، كَقَوْلِهِمْ حَدَثَ وَحَدُثٌ. وَحَذَرٌ وَحَذُرٌ، وَأَخَوَاتٌ لَهَا.

وَقُرِئَ: (الْأَشِرُ)، وَهُوَ الْأَبْلَغُ فِي الشَّرَارَةِ.

وَالْأَخِيرُ وَالْأَشِرُ: أَصْلُ قَوْلِهِمْ: هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَشَرُّ مِنْهُ، وَهُوَ أَصْلٌ مَرْفُوضٌ.

وَقَدْ حَكَى ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ قَوْلَ الْعَرَبِ: هُوَ أَخَيْرٌ وَأَشَرُّ، وَمَا أَخْيَرُهُ وَمَا أَشَرُّهُ.

﴿مُرْسِلُو النَّاقَةِ﴾[7]: بَاعِثُوهَا وَمُخْرِجُوهَا مِنَ الْهَضْبَةِ كَمَا سَأَلُوا.

﴿فِتْنَةً لَهُمْ﴾[8]: امْتِحَانًا لَهُمْ وَابْتِلَاءً.

﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾[9]: فَانْتَظِرْهُمْ وَتَبَصَّرْ مَا هُمْ صَانِعُونَ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

﴿وَاصْطَبِرْ﴾[1] عَلَى أَذَاهُمْ وَلَا تَعْجَلْ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي.

﴿قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾[2]: مَقْسُومٌ بَيْنَهُمْ: لَهَا شِرْبُ يَوْمٍ وَلَهُمْ شِرْبُ يَوْمٍ. وَإِنَّمَا قَالَ: بَيْنَهُمْ، تَغْلِيبًا لِلْعُقَلَاءِ.

﴿مُحْتَضِرٌ﴾[3] مَحْضُورٌ لَهُمْ أَوْ لِلنَّاقَةِ. وَقِيلَ: يُحْضِرُونَ الْمَاءَ فِي نَوْبَتِهِمْ وَاللَّبَنَ فِي نَوْبَتِهَا.

﴿صَاحِبَهُمْ﴾[4]: قِدَارُ بْنُ سَالِفٍ أُحَيْمِرُ ثَمُودَ.

﴿فَتَعَاطَى﴾[5]: فَاجْتَرَأَ عَلَى تَعَاطِي الْأَمْرِ الْعَظِيمِ غَيْرِ مُكْتَرِثٍ لَهُ، فَأَحْدَثَ الْعُقْرَ بِالنَّاقَةِ. وَقِيلَ: فَتَعَاطَى النَّاقَةَ فَعَقَرَهَا، أَوْ فَتَعَاطَى السَّيْفَ.

﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾[6]: صَيْحَةَ جِبْرِيلَ .وَالْهَشِيمُ: الشَّجَرُ الْيَابِسُ الْمُتَهَشِّمُ الْمُتَكَسِّرُ.

وَالْمُحْتَظِرُ: الَّذِي يَعْمَلُ الْحَظِيرَةَ وَمَا يَحْتَظِرُ بِهِ يَيْبَسُ بِطُولِ الزَّمَانِ وَتَتَوَطَّؤُهُ الْبَهَائِمُ فيتَحَطَّمُ وَيَتَهَشَّمُ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ بِفَتْحِ الظَّاءِ وَهُوَ مَوْضِعُ الِاحْتِظَارِ، أَيِ: الْحَظِيرَةُ.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مِنْ شَكَرَ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[7]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

﴿حَاصِبًا﴾[1] رِيحًا تَحْصِبُهُمْ بِالْحِجَارَةِ، أَيْ: تَرْمِيهِمْ "بِسِحْرٍ" بِقِطَعٍ مِنَ اللَّيْلِ، وَهُوَ السُّدْسُ الْأَخِيرُ مِنْهُ.

وَقِيلَ: هُمَا سِحْرَانِ، فَالسِّحْرُ الْأَعْلَى قَبْلَ انْصِدَاعِ الْفَجْرِ، وَالْآخَرُ عِنْدَ انْصِدَاعِهِ، وَأَنْشَدَ:

مَرَّتْ بِأَعْلَى السِّحْرَيْنِ تَـــــــــــذْأَلُ

وَصُرِفَ لِأَنَّهُ نَكِرَةٌ.

وَيُقَالُ: لَقِيتُهُ سِحْرًا إِذَا لَقِيتُهُ فِي سِحْرِ يَوْمِهِ.

﴿نِعْمَةً﴾[2] إِنْعَامًا، مَفْعُولٌ لَهُ ﴿مَنْ شَكَرَ﴾[3] نِعْمَةُ اللَّهِ بِإِيمَانِهِ وَطَاعَتِهِ.

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾[4] لُوطٌ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–.

﴿بَطْشَتَنَا﴾[5]: أَخْذَتَنَا بِالْعَذَابِ.

﴿فَتَمَارَوْا﴾[6]: فَكَذَّبُوا ﴿بِالنُّذُرِ﴾[7] مُتَشَاكِّينَ، ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾[8]، فَمَسَحْنَاهَا وَجَعَلْنَاهَا كَسَائِرِ الْوَجْهِ لَا يُرَى لَهَا شِقٌّ.

رُوِيَ أَنَّهُمْ لَمَّا عَالَجُوا بَابَ لُوطٍ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– لِيَدْخُلُوا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: خَلِّهِمْ يَدْخُلُوا، ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾[9]،]هُودٌ: 81] فَصَفَقَهُمْ جِبْرِيلُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– بِجَنَاحِهِ صَفْقَةً فَتَرَكَهُمْ يَتَرَدَّدُونَ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْبَابِ حَتَّى أَخْرَجَهُمْ لُوطٌ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

[9] سورة ، الآية .

﴿فَذُوقُواْ﴾[1]: فَقُلْتُ لَهُمْ: ذُوقُوا عَلَى أَلْسِنَةِ الْمَلَائِكَةِ. ﴿بُكْرَةً﴾[2]: أَوَّلُ النَّهَارِ وَبَاكِرُهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿مُشْرِقِينَ﴾[3]، و﴿مُصْبِحِينَ﴾[4].

وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: (بُكْرَةَ) غَيْرَ مُنْصَرِفَةٍ، تَقُولُ: أَتَيْتُهُ بُكْرَةً وَغَدْوَةً بِالتَّنْوِينِ. إِذَا أَرَدْتَ التَّنْكِيرَ، وَبِغَيْرِهِ إِذَا عَرَّفْتَ وَقَصَدْتَ بِكُرَةَ نَهَارِكَ وَغَدَوْتَهُ.

﴿عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾[5] ثَابِتٌ قَدِ اسْتَقَرَّ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ يُفْضَى بِهِمْ إِلَى عَذَابِ الْآخِرَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ تَكْرِيرِ قَوْلِهِ: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[6]؟

قُلْتُ: فَائِدَتُهُ أَنْ يُجَدِّدُوا عِنْدَ اسْتِمَاعِ كُلِّ نَبَإٍ مِنْ أَنْبَاءِ الْأَوَّلِينَ ادِّكَارًا وَاتِّعَاظًا، وَأَنْ يَسْتَأْنِفُوا تَنَبُّهًا وَاسْتِيقَاظًا، إِذَا سَمِعُوا الْحَثَّ عَلَى ذَلِكَ وَالْبَعْثَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَقْرَعَ لَهُمُ الْعَصَا مَرَّاتٍ، وَيُقَعْقِعَ لَهُمُ الشَّنَّ تَارَاتٍ، لِئَلَّا يَغْلِبَهُمُ السَّهْوُ وَلَا تُسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ الْغَفْلَةُ.

وَهَكَذَا حُكْمُ التَّكْرِيرِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[7]]الرَّحْمَنُ: 133] عِنْدَ كُلِّ نِعْمَةٍ عَدَّهَا فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[8]]الْمُرْسَلَاتُ: 155] عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ أَوْرَدَهَا فِي سُورَةِ وَالْمُرْسَلَاتِ، وَكَذَلِكَ تَكْرِيرُ الْأَنْبَاءِ وَالْقِصَصِ فِي أَنْفُسِهَا لِتَكُونَ تِلْكَ الْعِبَرُ حَاضِرَةً لِلْقُلُوبِ. مُصَوِّرَةً لِلْأَذْهَانِ، مَذْكُورَةً غَيْرَ مَنْسِيَّةٍ فِي كُلِّ أَوَانٍ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾[9]

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

﴿النُّذُرُ﴾ [1]مُوسَى وَهَارُونُ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، لِأَنَّهُمَا عَرَضَا عَلَيْهِمْ مَا أَنْذَرَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ، أَوْ جَمْعُ نَذِيرٍ، وَهُوَ الْإِنْذَارُ.

﴿بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾[2]: بِالْآيَاتِ التِّسْعِ.

﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾[3] لَا يُغَالِبُ.

﴿مُقْتَدِرٍ﴾[4]: لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾[5]

﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾[6]: يَا أَهْلَ مَكَّةَ، ﴿خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾[7] الْكَفَّارُ الْمَعْدُودِينَ: قَوْمُ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَآلِ فِرْعَوْنَ، أَيْ: أَهُمْ خَيْرُ قُوَّةٍ وَآلَةٍ وَمَكَانَةٍ فِي الدُّنْيَا، أَوْ أَقَلُّ كُفْرًا وَعِنَادًا يَعْنِي: أَنَّ كُفَّارَكُمْ مِثْلُ أُولَئِكَ بَلْ شَرٌّ مِنْهُمْ؛ ﴿أَمْ﴾[8] أُنْزِلَتْ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿بَرَاءَةٌ﴾[9] فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ. أَنَّ مَنْ كَفَرَ مِنْكُمْ وَكَذَّبَ الرُّسُلَ كَانَ آمِنًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، فَأَمِنْتُمْ بِتِلْكَ الْبَرَاءَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾[1]: جَمَاعَةُ أَمْرِنَا مُجْتَمِعٌ، ﴿مُنْتَصِرٌ﴾[2]: مُمْتَنِعٌ لَا نُرَامُ وَلَا نُضَامُ.

وَعَنْ أَبِي جَهْلٍ أَنَّهُ ضَرَبَ فَرَسَهُ يَوْمَ بَدْرٍ، فَتَقَدَّمَ فِي الصَّفِّ وَقَالَ: نَحْنُ نَنْتَصِرُ الْيَوْمَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾[3].

عَنْ عِكْرِمَةَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ عُمَرُ: أَيُّ جَمْعٍ يُهْزَمُ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَثِبُ فِي الدِّرْعِ وَيَقُولُ: "سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ" عَرَفَ تَأْوِيلَهَا.

﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[4]، أَيِ الْأَدْبَارَ، كَمَا قَالَ:

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمُ تَعِفُّـــــــــوا

وَقُرِئَ: (الْأَدْبَارَ).

﴿أَدْهَى﴾[5]: أَشَدُّ وَأَفْظَعُ. وَالدَّاهِيَةُ: الْأَمْرُ الْمُنْكَرُ الَّذِي لَا يُهْتَدَى لِدَوَائِهِ.

﴿وَأَمَرُّ﴾[6] مِنَ الْهَزِيمَةِ وَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ.

وَقُرِئَ: (سَنَهْزِمُ الْجَمْعَ).

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[7]

﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾[8]: فِي هَلَاكٍ وَنِيرَانٍ، أَوْ فِي ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا، وَنِيرَانٍ فِي الْآخِرَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

﴿مَسَّ سَقَرَ﴾[1] كَقَوْلِكَ: وَجَدَ مَسَّ الْحُمَّى وَذَاقَ طَعْمَ الضَّرْبِ، لِأَنَّ النَّارَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ بِحَرِّهَا وَلَفَحَتْهُمْ بِإِيلَامِهَا، فَكَأَنَّهَا تَمَسُّهُمْ مَسًّا بِذَلِكَ، كَمَا يَمَسُّ الْحَيَوَانُ وَيُبَاشِرُ بِمَا يُؤْذِي وَيُؤْلِمُ.

وَذُوقُوا: عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ.

وَ﴿سَقَرَ﴾[2]: عِلْمٌ لِجَهَنَّمَ. مِنْ سَقَرَتْهُ النَّارُ وَصَقَرَتْهُ إِذَا لَوَحَتْهُ.

قَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

إِذَا ذَابَتِ الشَّمْسُ اتَّقَى صَقَرَاتِهَا بِأَفْنَانِ مَرْبُوعِ الصَّرِيمَةِ مُعْبِلِ

وَعَدَمُ صَرْفِهَا لِلتَّعْرِيفِ وَالتَّأْنِيثِ.

﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾[3]: مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ يُفَسِّرُهُ الظَّاهِرُ،

وَقُرِئَ: (كُلُّ شَيْءٍ) بِالرَّفْعِ.

وَ(الْقَدْرُ وَالْقَدَرُ): التَّقْدِيرُ.

وَقُرِئَ بِهِمَا، أَيْ: خَلَقْنَا كُلَّ شَيْءٍ مُقَدَّرًا مُحْكَمًا مُرَتَّبًا عَلَى حَسَبِ مَا اقْتَضَتْهُ الْحِكْمَةُ، أَوْ مُقَدَّرًا مَكْتُوبًا فِي اللَّوْحِ. مَعْلُومًا قَبْلَ كَوْنِهِ، قَدْ عَلِمْنَا حَالَهُ وَزَمَانَهُ.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ﴾[4] إِلَّا كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ سَرِيعَةُ التَّكْوِينِ.

﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[5]، أَرَادَ قَوْلَهُ: كُنْ، يَعْنِي أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ تَكْوِينَ شَيْءٍ لَمْ يَلْبَثْ كَوْنُهُ.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾[6]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾[1]: أَشْبَاهَكُمْ في الْكُفْرِ مِنَ الْأُمَمِ.

﴿فِي الزُّبُرِ﴾[2]: في دَوَاوِينِ الْحَفَظَةِ.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾[3]: مِنَ الْأَعْمَالِ وَمِنْ كُلِّ مَا هُوَ كَائِنٌ.

﴿مُّسْتَطَرٌ﴾[4]: مَسْطُورٌ في اللَّوْحِ.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[5]

﴿وَنَهَرٍ﴾[6]: وَأَنْهَارٍ، اكْتَفى بِاسْمِ الْجِنْسِ.

وَقِيلَ: هُوَ السِّعَةُ وَالضِّيَاءُ مِنَ النَّهَارِ.

وَقُرِئَ بِسُكُونِ الْهَاءِ. وَنَهَرٍ: جَمْعُ نَهْرٍ، كَأَسَدٍ وَأُسْدٍ.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾[7] في مَكَانٍ مَرْضِيٍّ.

وَقُرِئَ: (في مَقَاعِدَ صِدْقٍ).

﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[8] مُقَرَّبِينَ عِنْدَ مَلِيكٍ مُبْهَمٌ أَمْرُهُ في الْمُلْكِ وَالِاقْتِدَارِ، فَلَا شَيْءَ إِلَّا وَهُوَ تَحْتَ مُلْكِهِ وَقُدْرَتِهِ، فَأَيُّ مَنْزِلَةٍ أَكْرَمُ مِنْ تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ وَأَجْمَعُ لِلْغِبْطَةِ كُلِّهَا وَالسَّعَادَةِ بِأَسْرِهَا.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْقَمَرِ في كُلِّ غَبٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ مِثْلُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

مَدَنِيَّةٌ

وَآيَاتُهَا 78

نَزَلَتْ بَعْدَ [الرَّعْدِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]

عَدَّدَ اللَّهُ –عَزَّ وَعَلَا– آلَاءَهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُقَدِّمَ أَوَّلَ شَيْءٍ مَا هُوَ أَسْبَقُ قِدَمًا مِنْ ضُرُوبِ آلَائِهِ وَأَصْنَافِ نَعْمَائِهِ، وَهِيَ نِعْمَةُ الدِّينِ، فَقَدَّمَ مِنْ نِعْمَةِ الدِّينِ مَا هُوَ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِهَا وَأَقْصَى مَرَاقِيهَا: وَهُوَ إِنْعَامُهُ بِالْقُرْآنِ وَتَنْزِيلُهُ وَتَعْلِيمُهُ؛ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ وَحْيِ اللَّهِ رُتْبَةً، وَأَعْلَاهُ مَنْزِلَةً، وَأَحْسَنُهُ فِي أَبْوَابِ الدِّينِ أَثَرًا، وَهُوَ سَنَامُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَمِصْدَاقُهَا وَالْعِيَارُ عَلَيْهَا، وَأَخَّرَ ذِكْرَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ عَنْ ذِكْرِهِ، ثُمَّ أَتْبَعُهُ إِيَّاهُ: لِيُعْلَمَ أَنَّهُ إِنَّمَا خَلَقَهُ لِلدِّينِ، وَلِيُحِيطَ عِلْمًا بِوَحْيِهِ وَكُتُبِهِ وَمَا خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ أَجْلِهِ، وَكَأَنَّ الْغَرَضَ فِي إِنْشَائِهِ كَانَ مُقَدَّمًا عَلَيْهِ وَسَابِقًا لَهُ،

[1] سورة ، الآية .

ثُمَّ ذَكَرَ مَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ مِنَ الْبَيَانِ، وَهُوَ الْمَنْطِقُ الْفَصِيحُ الْمُعْرِبُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وَ[الرَّحْمَنُ] مُبْتَدَأٌ، وَهَذِهِ الْأَفْعَالُ مَعَ ضَمَائِرِهَا أَخْبَارٌ مُتَرَادِفَةٌ، وَإِخْلَاؤُهَا مِنَ الْعَاطِفِ لِمَجِيئِهَا عَلَى نَمَطِ التَّعْدِيدِ، كَمَا تَقُولُ: زَيْدٌ أَغْنَاكَ بَعْدَ فَقْرٍ، أَعَزَّكَ بَعْدَ ذُلٍّ، كَثَّرَكَ بَعْدَ قِلَّةٍ، فَعَلَ بِكَ مَا لَمْ يَفْعَلْ أَحَدٌ بِأَحَدٍ، فَمَا تُنْكِرُ مِنْ إِحْسَانِهِ؟

﴿بِحُسْبَانٍ﴾[1] بِحِسَابٍ مَعْلُومٍ وَتَقْدِيرٍ سَوِيٍّ يَجْرِيَانِ فِي بُرُوجِهِمَا وَمَنَازِلِهِمَا. وَفِي ذَلِكَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ عَظِيمَةٌ: مِنْهَا عِلْمُ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ.

﴿وَالنَّجْمُ﴾[2] وَالنَّبَاتُ الَّذِي يَنْجُمُ مِنَ الْأَرْضِ لَا سَاقَ لَهُ كَالْبُقُولِ ﴿وَالشَّجَرِ﴾[3] الَّذِي لَهُ سَاقٌ.

وَسُجُودُهُمَا: انْقِيَادُهُمَا لِلَّهِ فِيمَا خُلِقَا لَهُ، وَأَنَّهُمَا لَا يَمْتَنِعَانِ، تَشْبِيهًا بِالسَّاجِدِ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ فِي انْقِيَادِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اتَّصَلَتْ هَاتَانِ الْجُمْلَتَانِ بِالرَّحْمَانِ؟

قُلْتُ: اسْتَغْنَى فِيهِمَا عَنِ الْوَصْلِ اللَّفْظِيِّ بِالْوَصْلِ الْمَعْنَوِيِّ، لِمَا عُلِمَ أَنَّ الْحُسْبَانَ حُسْبَانُهُ، وَالسُّجُودَ لَهُ لَا لِغَيْرِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانِهِ، وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ لَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ أَخَلَّ بِالْعَاطِفِ فِي الْجُمَلِ الْأُوَلِ، ثُمَّ جِيءَ بِهِ بَعْدُ؟

قُلْتُ: بَكَّتَ بِتِلْكَ الْجُمَلِ الْأُوَلِ وَارِدَةً عَلَى سَنَنِ التَّمْدِيدِ، لِيَكُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْجُمَلِ مُسْتَقِلَّةً فِي تَقْرِيعِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الرَّحْمَنَ وَآلَاءَهُ، كَمَا يُبَكَّتُ مُنْكِرُ أَيَادِي الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ مِنَ النَّاسِ بِتَعْدِيدِهَا عَلَيْهِ فِي الْمِثَالِ الَّذِي قَدَّمْتُهُ، ثُمَّ رَدَّ الْكَلَامَ إِلَى مِنْهَاجِهِ بَعْدَ التَّبْكِيتِ فِي وَصْلِ مَا يَجِبُ وَصْلُهُ لِلتَّنَاسُبِ وَالتَّقَارُبِ بِالْعَاطِفِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ تَنَاسُبٍ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْجُمْلَتَيْنِ حَتَّى وَسَّطَ بَيْنَهُمَا الْعَاطِفَ؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

قُلْتُ: إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ سَمَاوِيَّانِ، وَالنَّجْمَ وَالشَّجَرَ أَرْضِيَّانِ، فَبَيْنَ الْقَبِيلَيْنِ تَنَاسُبٌ مِنْ حَيْثُ التَّقَابُلُ، وَأَنَّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ لَا تَزَالَانِ تُذْكَرَانِ قَرِينَتَيْنِ، وَأَنَّ جَرْيَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ بِحُسْبَانٍ مِنْ جِنْسِ الِانْقِيَادِ لِأَمْرِ اللَّهِ، فَهُوَ مُنَاسِبٌ لِسُجُودِ النَّجْمِ وَالشَّجَرِ.

وَقِيلَ: "عِلْمُ الْقُرْآنِ" جَعَلَهُ عَلَامَةً وَآيَةً.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: الْإِنْسَانُ آدَمُ.

وَعَنْهُ أَيْضًا: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ النَّجْمُ: نُجُومُ السَّمَاءِ.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾[1]: خَلَقَهَا مَرْفُوعَةً مَسْمُوكَةً، حَيْثُ جَعَلَهَا مَنْشَأَ أَحْكَامِهِ، وَمَصْدَرَ قَضَايَاهُ، وَمُتَنَزَّلَ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَمَسْكَنَ مَلَائِكَتِهِ الَّذِينَ يَهْبِطُونَ بِالْوَحْيِ عَلَى أَنْبِيَائِهِ، وَنَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَى كِبْرِيَاءِ شَأْنِهِ وَمُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ؛

﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾[2]، وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: "وَخَفَضَ الْمِيزَانَ"، وَأَرَادَ بِهِ كُلُّ مَا تُوزَنُ بِهِ الْأَشْيَاءُ وَتُعْرَفُ مَقَادِيرُهَا مِنْ مِيزَانٍ وَقَرْسَطُونَ وَمِكْيَالٍ وَمِقْيَاسٍ، أَيْ: خَلَقَهُ مَوْضُوعًا مَخْفُوضًا عَلَى الْأَرْضِ، حَيْثُ عَلَّقَ بِهِ أَحْكَامَ عِبَادِهِ وَقَضَايَاهُمْ وَمَا تَعْبُدُهُمْ بِهِ مِنَ التَّسْوِيَةِ وَالتَّعْدِيلِ فِي أَخْذِهِمْ وَإِعْطَائِهِمْ.

﴿أَلا تَطْغَوْا﴾[3]: لِئَلَّا تَطْغَوْا. أَوْ هِيَ أَنِ الْمُفَسِّرَةُ.

وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ :لَا تَطْغَوْا بِغَيْرِ أَنْ، عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾[4]: وَقَوِّمُوا وَزْنَكُمْ بِالْعَدْلِ.

﴿وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾[5]: وَلَا تُنْقِصُوهُ: أَمَرَ بِالتَّسْوِيَةِ وَنَهَى عَنِ الطُّغْيَانِ الَّذِي هُوَ اعْتِدَاءٌ وَزِيَادَةٌ، وَعَنِ الْخُسْرَانِ الَّذِي هُوَ تَطْفِيفٌ وَنُقْصَانٌ.

وَكَرَّرَ لَفْظَ الْمِيزَانِ: تَشْدِيدًا لِلتَّوْصِيَةِ بِهِ، وَتَقْوِيَةً لِلْأَمْرِ بِاسْتِعْمَالِهِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ.

وَقُرِئَ: "وَالسَّمَاءُ" بِالرَّفْعِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿وَلَا تَخْسَرُوا﴾[1] بِفَتْحِ التَّاءِ وَضَمِّ السِّينِ وَكَسْرِهَا وَفَتْحِهَا. يُقَالُ: خَسِرَ الْمِيزَانُ يَخْسِرُهُ وَيَخْسُرُهُ.

وَأَمَّا الْفَتْحُ، فَعَلَى أَنَّ الْأَصْلَ: وَلَا تَخْسَرُوا فِي الْمِيزَانِ، فَحَذَفَ الْجَارَّ وَأَوْصَلَ الْفِعْلَ.

وَ﴿وَضَعَهَا﴾[2]: خَفَضَهَا مَدْحُوَّةً عَلَى الْمَاءِ "لِلْأَنَامِ" لِلْخَلْقِ، وَهُوَ كُلُّ مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، فَهِيَ كَالْمِهَادِ لَهُمْ يَتَصَرَّفُونَ فَوْقَهَا.

﴿فَاكِهَةٌ﴾[3]: ضُرُوبٌ مِمَّا يُتَفَكَّهُ بِهِ.

وَ﴿الْأَكْمَامِ﴾[4]: كُلُّ مَا يَكُمُّ أَيْ يُغَطِّي مِنْ لِيفَةٍ وَسَعَفَةٍ وَكُفَرَّاةٍ وَكُلُّهُ مُنْتَفَعٌ بِهِ كَمَا يُنْتَفَعُ بِالْمَكْمُومِ مِنْ ثَمَرِهِ وَجُمَّارِهِ وَجُذُوعِهِ.

وَقِيلَ الْأَكْمَامُ أَوْعِيَةُ التَّمْرَةِ: الْوَاحِدُ كِمٌّ، بِكَسْرِ الْكَافِ.

وَ﴿الْعَصْفُ﴾[5] وَرَقُ الزَّرْعِ، وَقِيلَ: التِّبْنُ.

﴿وَالرَّيْحَانُ﴾[6]: الرِّزْقُ وَهُوَ اللُّبُّ: أَرَادَ فِيهَا مَا يُتَلَذَّذُ بِهِ مِنَ الْفَوَاكِهِ، وَالْجَامِعُ بَيْنَ التَّلَذُّذِ وَالتَّغَذِّي، وَهُوَ ثَمَرُ النَّخْلِ، وَمَا يُتَغَذَّى بِهِ وَهُوَ الْحَبُّ

. وَقُرِئَ: "وَالرِّيحَانُ"، بِالْكَسْرِ. وَمَعْنَاهُ: وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ الَّذِي هُوَ عَلَفُ الْأَنْعَامِ، وَالرَّيْحَانُ الَّذِي هُوَ مَطْعَمُ النَّاسِ.

وَبِالضَّمِّ عَلَى: وَذُو الرَّيْحَانِ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ وَأُقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: وَفِيهَا الرَّيْحَانُ الَّذِي يُشَمُّ، وَفِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الشَّامِ: "وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانَ"، أَيْ: وَخَلَقَ الْحَبَّ وَالرَّيْحَانَ: أَوْ وَأَخُصُّ الْحَبَّ وَالرَّيْحَانَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: وَذَا الرَّيْحَانِ، فَيُحْذَفُ الْمُضَافُ وَيُقَامُ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَالْخِطَابُ فِي: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1] لِلثَّقَلَيْنِ بِدَلَالَةِ الْأَنَامِ عَلَيْهِمَا. وَقَوْلُهُ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ﴾[2]]الرَّحْمَنِ: 31 .[

﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[3]

الصَّلْصَالُ: الطِّينُ الْيَابِسُ لَهُ صَلْصَلَةٌ. وَالْفَخَّارُ: الطِّينُ الْمَطْبُوخُ بِالنَّارِ، وَهُوَ الْخَزَفُ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدِ اخْتَلَفَ التَّنْزِيلُ فِي هَذَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾[4]،]الصَّافَّاتِ: 11[﴿مِنْ تُرَابٍ﴾[5]]آلِ عِمْرَانَ: 599].

قُلْتُ: هُوَ مُتَّفِقٌ فِي الْمَعْنَى، وَمُفِيدٌ أَنَّهُ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ: جَعَلَهُ طِينًا، ثُمَّ حَمَأً مَسْنُونًا، ثُمَّ صَلْصَالًا.

وَ"الْجَانُّ": أَبُو الْجِنِّ. وَقِيلَ: هُوَ إِبْلِيسُ. وَالْمَارِجُ: اللَّهَبُ الصَّافِي الَّذِي لَا دُخَانَ فِيهِ. وَقِيلَ: الْمُخْتَلِطُ بِسَوَادِ النَّارِ، مِنْ مَرَجَ الشَّيْءُ إِذَا اضْطَرَبَ وَاخْتَلَطَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مِنْ نَارٍ﴾[6]؟

قُلْتُ: هُوَ بَيَانٌ لِمَارِجٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مِنْ صَافٍ مِنْ نَارٍ. أَوْ مُخْتَلِطٍ مِنْ نَارٍ أَوْ أَرَادَ مِنْ نَارٍ مَخْصُوصَةٍ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾[7]]اللَّيْلِ: 14 .[

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]

قُرِئَ: رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ، بِالْجَرِّ بَدَلًا مِنْ ﴿رَبِّكُمَا﴾[2].

وَأَرَادَ: مَشْرِقَيِ الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ وَمَغْرِبَهُمَا.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[3]

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾[4]: أَرْسَلَ الْبَحْرَ الْمِلْحَ وَالْبَحْرَ الْعَذْبَ مُتَجَاوِرَيْنِ مُتَلَاقِيَيْنِ، لَا فَصْلَ بَيْنَ الْمَاءَيْنِ فِي مَرْأَى الْعَيْنِ، ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾[5]: حَاجِزٌ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ –تَعَالَى–: ﴿لا يَبْغِيَانِ﴾[6]: لَا يَتَجَاوَزَانِ حَدَّيْهِمَا وَلَا يَبْغِي أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ بِالْمُمَازَجَةِ.

قُرِئَ: يُخْرَجُ وَيَخْرُجُ مِنْ أَخْرَجَ. وَخَرَجَ. وَيُخْرِجُ: أَيِ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–.

"اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ" بِالنَّصْبِ.

وَنُخْرِجُ بِالنُّونِ.

وَ﴿اللُّؤْلُؤُ﴾[7]: الدُّرُّ. وَالْمَرْجَانُ: هُوَ الْخَرَزُ الْأَحْمَرُ، وَهُوَ الْبُسَذُ.

وَقِيلَ: اللُّؤْلُؤُ كِبَارُ الدُّرِّ. وَالْمَرْجَانُ: صِغَارُهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَالَ: ﴿مِنْهُمَا﴾[8]، وَإِنَّمَا يَخْرُجَانِ مِنَ الْمِلْحِ؟

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .
8 سورة ، الآية .

قُلْتُ: لَمَّا الْتَقَيَا وَصَارَا كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ، جَازَ أَنْ يُقَالَ: يَخْرُجَانِ مِنْهُمَا، كَمَا يُقَالُ يَخْرُجَانِ مِنَ الْبَحْرِ، وَلَا يَخْرُجَانِ مِنْ جَمِيعِ الْبَحْرِ وَلَكِنْ مِنْ بَعْضِهِ.

وَتَقُولُ: خَرَجْتُ مِنَ الْبَلَدِ وَإِنَّمَا خَرَجْتَ مِنْ مَحَلَّةٍ مِنْ مِحَالِّهِ، بَلْ مِنْ دَارٍ وَاحِدَةٍ مِنْ دُورِهِ. وَقِيلَ: لَا يَخْرُجَانِ إِلَّا مِنْ مُلْتَقَى الْمِلْحِ وَالْعَذْبِ.

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]

الْجَوَارِي: السُّفُنُ.

وَقُرِئَ: "الْجَوَارُ" بِحَذْفِ الْيَاءِ وَرَفْعِ الرَّاءِ، وَنَحْوَهُ:

لَهَا ثَنَايَا أَرْبَعٍ حِسَانٌ وَأَرْبَعٌ فَكُلُّهَا ثَمَـــــانُ

وَ﴿الْمُنْشَآتُ﴾[2]: الْمَرْفُوعَاتُ الشُّرَّعُ. وَقُرِئَ: بِكَسْرِ الشِّينِ: وَهِيَ الرَّافِعَاتُ الشُّرَّعُ أَوِ اللَّاتِي يُنْشِئْنَ الْأَمْوَاجَ بِجَرْيِهِنَّ.

وَالْأَعْلَامُ: جَمْعُ عَلَمٍ، وَهُوَ الْجَبَلُ الطَّوِيلُ.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[3]

﴿عَلَيْهَا﴾[4]: عَلَى الْأَرْضِ.

﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾[5] ذَاتُهُ، وَالْوَجْهُ يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْجُمْلَةِ وَالذَّاتِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَمَسَاكِينُ مَكَّةَ يَقُولُونَ: أَيْنَ وَجْهٌ عَرَبِيٌّ كَرِيمٌ يُنْقِذُنِي مِنَ الْهَوَانِ، وَذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ صِفَةُ الْوَجْهِ.

وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: ذِي، عَلَى: صِفَةِ رَبِّكَ. وَمَعْنَاهُ: الَّذِي يُجِلُّهُ الْمُوَحِّدُونَ عَنِ التَّشْبِيهِ بِخَلْقِهِ وَعَنْ أَفْعَالِهِمْ. أَوِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: مَا أَجَلَّكَ وَأَكْرَمَكَ. أَوْ مَنْ عِنْدَهُ الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ لِلْمُخْلِصِينَ مِنْ عِبَادِهِ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ مِنْ لَوْ عَظِيمِ صِفَاتِ اللَّهِ.

وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "أَلِظُّوا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ". وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: أَنَّهُ مَرَّ بِرَجُلٍ وَهُوَ يُصَلِّي وَيَقُولُ: يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فَقَالَ: "قَدِ اسْتُجِيبَ لَكَ".

فَإِنْ قُلْتَ: مَا النِّعْمَةُ فِي ذَلِكَ؟

قُلْتُ: أَعْظَمُ النِّعْمَةِ؛ وَهِيَ مَجِيءُ وَقْتِ الْجَزَاءِ عَقِيبَ ذَلِكَ.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]

كُلٌّ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، فَيَسْأَلُهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ مَا يَتَعَلَّقُ بِدِينِهِمْ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ مَا يَتَعَلَّقُ بِدِينِهِمْ، وَدُنْيَاهُمْ.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[2]، أَيْ: كُلَّ وَقْتٍ وَحِينٍ يُحْدِثُ أُمُورًا وَيُجَدِّدُ أَحْوَالًا، كَمَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ تَلَاهَا، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا ذَلِكَ الشَّأْنُ؟ فَقَالَ: "مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا وَيَضَعَ آخَرِينَ.

وَعَنِ ابْنِ عُيَيْنَةَ: الدَّهْرُ عِنْدَ اللَّهِ –تَعَالَى– يَوْمَانِ:

– أَحَدُهُمَا: الْيَوْمُ الَّذِي هُوَ مُدَّةُ عُمْرِ الدُّنْيَا فَشَأْنُهُ فِيهِ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْإِمَاتَةُ وَالْإِحْيَاءُ وَالْإِعْطَاءُ وَالْمَنْعُ.

– وَالْآخَرُ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَشَأْنُهُ فِيهِ الْجَزَاءُ وَالْحِسَابُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ حِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْضِي يَوْمَ السَّبْتِ شَيْئًا. وَسَأَلَ بَعْضُ الْمُلُوكِ وَزِيرَهُ عَنْهَا، فَاسْتَمْهَلَهُ إِلَى الْغَدِ وَذَهَبَ كَئِيبًا يُفَكِّرُ فِيهَا، فَقَالَ غُلَامٌ لَهُ أَسْوَدُ: يَا مَوْلَايَ، أَخْبِرْنِي مَا أَصَابَكَ؛ لَعَلَّ اللَّهَ يُسَهِّلُ لَكَ عَلَى يَدَيَّ، فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ: أَنَا أُفَسِّرُهَا لِلْمَلِكِ فَأَعْلِمْهُ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، شَأْنُ اللَّهِ أَنْ يُولِجَ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجَ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَيُخْرِجَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَيَشْفِيَ سَقِيمًا وَيُسْقِمَ سَلِيمًا، وَيَبْتَلِيَ مُعَافًى وَيُعَافِيَ مُبْتَلًى، وَيُعِزَّ ذَلِيلًا وَيُذِلَّ عَزِيزًا وَيُفْقِرَ غَنِيًّا وَيُغْنِيَ فَقِيرًا، فَقَالَ الْأَمِيرُ: أَحْسَنْتَ. وَأَمَرَ الْوَزِيرَ أَنْ يَخْلَعَ عَلَيْهِ ثِيَابَ الْوِزَارَةِ. فَقَالَ: يَا مَوْلَايَ، هَذَا مِنْ شَأْنِ اللَّهِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ أَنَّهُ دَعَا الْحُسَيْنَ بْنَ الْفَضْلِ وَقَالَ لَهُ: أُشْكِلَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُ آيَاتٍ، دَعْوَتُكَ لِتَكْشِفَهَا لِي: قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[1]الْمَائِدَةِ: 31]. وَقَدْ صَحَّ أَنَّ النَّدَمَ تَوْبَةٌ.

وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[2]، وَقَدْ صَحَّ أَنَّ الْقَلَمَ قَدْ جَفَّ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى﴾[3]]النَّجْمِ: 39]. فَمَا بَالُ الْأَضْعَافِ؟

فَقَالَ الْحُسَيْنُ: يَجُوزُ أَنْ لَا يَكُونَ النَّدَمُ تَوْبَةً فِي تِلْكَ الْأُمَّةِ. وَيَكُونُ تَوْبَةً فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، لِأَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– خَصَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِخَصَائِصَ لَمْ يُشَارِكْهُمْ فِيهَا الْأُمَمَ.

وَقِيلَ: إِنَّ نَدَمَ قَابِيلَ لَمْ يَكُنْ عَلَى قَتْلِ هَابِيلَ، وَلَكِنْ عَلَى حَمْلِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: "وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى"، فَمَعْنَاهُ: لَيْسَ لَهُ إِلَّا مَا سَعَى عَدْلًا، وَلِي أَنْ أَجْزِيَهُ بِوَاحِدَةٍ أَلْفًا فَضْلًا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[4]، فَإِنَّهَا شُؤُونٌ يُبْدِيهَا لَا شُؤُونَ يَبْتَدِئُهَا، فَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَسَوَّغَ خَرَاجَهُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾[2]: مُسْتَعَارٌ مِنْ قَوْلِ الرَّجُلِ لِمَنْ يَتَهَدَّدُهُ: سَأَفْرُغُ لَكَ، يُرِيدُ: سَأَتَجَرَّدُ لِلْإِيقَاعِ بِكَ مِنْ كُلِّ مَا يَشْغَلُنِي عَنْكَ، حَتَّى لَا يَكُونَ لِي شُغْلٌ سِوَاهُ، وَالْمُرَادُ: التَّوَفُّرُ عَلَى النِّكَايَةِ فِيهِ وَالِانْتِقَامِ مِنْهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: سَتَنْتَهِي الدُّنْيَا وَتَبْلُغُ آخِرَهَا، وَتَنْتَهِي عِنْدَ ذَلِكَ شُؤُونُ الْخَلْقِ الَّتِي أَرَادَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[3]، فَلَا يَبْقَى إِلَّا شَأْنٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ جَزَاؤُكُمْ؛ فَجَعَلَ ذَلِكَ فَرَاغًا لَهُمْ عَلَى طَرِيقِ الْمِثْلِ.

وَقُرِئَ: "سَيَفْرُغُ لَكُمْ"، أَيِ: اللَّهُ -تَعَالَى-، "وَسَأَفْرُغُ لَكُمْ"، وَ"سَنَفْرَغُ" بِالنُّونِ، مَفْتُوحًا مَكْسُورًا وَفَتْحِ الرَّاءِ، وَ"سَيُفْرَغُ" بِالْيَاءِ مَفْتُوحًا وَمَضْمُومًا مَعَ فَتْحِ الرَّاءِ.

وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيٍّ: "سَنَفْرُغُ إِلَيْكُمْ" بِمَعْنَى: سَنَقْصِدُ إِلَيْكُمْ، وَالثَّقَلَانِ: الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، سِيمَا بِذَلِكَ، لِأَنَّهُمَا ثِقْلَا الْأَرْضِ.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[4]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾[1]، كَالتَّرْجَمَةِ لِقَوْلِهِ: أَيُّهَا الثَّقَلَانِ، ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾[2] أَنْ تَهْرُبُوا مِنْ قَضَائِي وَتَخْرُجُوا مِنْ مَلَكُوتِي وَمِنْ سَمَائِي وَأَرْضِي، فَافْعَلُوا، ثُمَّ قَالَ: لَا تَقْدِرُونَ عَلَى النُّفُوذِ، ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾[3]، يَعْنِي بِقُوَّةٍ وَقَهْرٍ وَغَلَبَةٍ، وَأَنَّى لَكُمَ ذَلِكَ، وَنَحْوَهُ: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾[4]] الْعَنْكَبُوتِ: 22 .[

وَرُوِيَ: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ –عَلَيْهِمُ السَّلَامُ– تَنْزِلُ فَتُحِيطُ بِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ، فَإِذَا رَآهُمُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ هَرَبُوا، فَلَا يَأْتُونَ وَجْهًا إِلَّا وَجَدُوا الْمَلَائِكَةَ أَحَاطَتْ بِهِ.

قُرِئَ: "شُوَاظٍ وَنُحَاسٍ"، كِلَاهُمَا بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ.

وَالشُّوَاظُ: اللَّهَبُ الْخَالِصُ. وَالنُّحَاسُ: الدُّخَانُ، وَأَنْشَدَ:

تُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِي طِ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نُحَاسَا

وَقِيلَ: الصُّفْرُ الْمُذَابُ يُصَبُّ عَلَى رُؤُوسِهِمْ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا –: إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ سَاقَهُمْ شُوَاظٌ إِلَى الْمَحْشَرِ. وَقُرِئَ: "وَنُحَاسٌ"، مَرْفُوعًا عَطْفًا عَلَى ﴿شُوَاظٌ﴾[5]. وَمَجْرُورًا عَطْفًا عَلَى ﴿نَارٍ﴾[6].

وَقُرِئَ: "وَنُحُسٌ" جَمْعُ نِحَاسٍ، وَهُوَ الدُّخَانُ، نَحْوَ لِحَافٍ وَلُحُفٍ. وَقُرِئَ: "وَنُحِسٌ"، أَيْ: وَنَقْتُلُ بِالْعَذَابِ. وَقُرِئَ: "نُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شُوَاظًا مِنْ نَارٍ وَنُحَاسًا".

﴿فَلا تَنْتَصِرَانِ﴾[7]: فَلَا تَمْتَنِعَانِ.

﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]

﴿وَرْدَةً﴾[2] حَمْرَاءَ "كَالدِّهَانِ" كَدُهْنِ الزَّيْتِ، كَمَا قَالَ: "كَالْمُهْلِ"، وَهُوَ دُرْدِيُّ الزَّيْتِ، وَهُوَ جَمْعُ دُهْنٍ. أَوِ اسْمُ مَا يُدْهَنُ بِهِ كَالْخِزَامِ وَالْإِدَامِ.

قَالَ:

كَأَنَّهُمَا مَزَادَتَا مُتَعَجِّلٍ فَرِيَّانِ لَمَّا تُدْهَنَا بِدِهَانِ

وَقِيلَ: الدِّهَانُ الْأَدِيمُ الْأَحْمَرُ.

وَقَرَأَ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ "وَرْدَةٌ" بِالرَّفْعِ، بِمَعْنَى: فَحَصَلَتْ سَمَاءٌ وَرْدَةٌ، وَهُوَ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي يُسَمَّى التَّجْرِيدَ، كَقَوْلِهِ:

فَلَئِنْ بَقِيتُ لِأَرْحَلَنَّ بِغَزْوَةٍ تَحْوِي الْغَنَائِمَ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمُ

﴿إِنْسٌ﴾[3]: بَعْضٌ مِنَ الْإِنْسِ، ﴿وَلَا جَانٌّ﴾[4] أُرِيدَ بِهِ: وَلَا جِنٌّ: أَيْ: وَلَا بَعْضٌ مِنَ الْجِنِّ، فَوَضَعَ الْجَانَّ الَّذِي هُوَ أَبُو الْجِنِّ مَوْضِعَ الْجِنِّ، كَمَا يُقَالُ: هَاشِمٌ، وَيُرَادُ وَلَدُهُ.

وَإِنَّمَا وَحَّدَ ضَمِيرَ الْإِنْسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَنْ ذَنْبِهِ﴾[5] لِكَوْنِهِ فِي مَعْنَى الْبَعْضِ.

وَالْمَعْنَى: لَا يُسْأَلُونَ لِأَنَّهُمْ يُعْرَفُونَ بِسِيمَا الْمُجْرِمِينَ، وَهِيَ سَوَادُ الْوُجُوهِ وَزُرْقَةُ الْعُيُونِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَذَا خِلَافُ قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[6]]الْحِجْرِ: 92]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾[7]]الصَّافَّاتِ: 244].

قُلْتُ: ذَلِكَ يَوْمٌ طَوِيلٌ وَفِيهِ مَوَاطِنُ، فَيُسْأَلُونَ فِي مَوْطِنٍ وَلَا يُسْأَلُونَ فِي آخَرَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

قَالَ قَتَادَةُ: قَدْ كَانَتْ مَسْأَلَةٌ، ثُمَّ خُتِمَ عَلَى أَفْوَاهِ الْقَوْمِ، وَتَكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

وَقِيلَ: لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ لِيُعْلَمَ مِنْ جِهَتِهِ، وَلَكِنْ يُسْأَلُ سُؤَالَ تَوْبِيخٍ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَعَمْرُو بْنُ عَبَيْدٍ: وَلَا جَأَنٌّ، فِرَارًا مِنَ الْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، وَإِنْ كَانَ عَلَى حَدِّهِ.

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]

﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾[2] عَنِ الضَّحَّاكِ: يُجْمَعُ بَيْنَ نَاصِيَتِهِ وَقَدَمِهِ فِي سِلْسِلَةٍ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ.

وَقِيلَ: تَسْحَبُهُمُ الْمَلَائِكَةُ، تَارَةً تَأْخُذُ بِالنَّوَاصِي، وَتَارَةً تَأْخُذُ بِالْأَقْدَامِ .

﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾[3]: مَاءٌ حَارٌّ قَدِ انْتَهَى حَرُّهُ وَنُضْجُهُ، أَيْ: يُعَاقَبُ عَلَيْهِمْ بَيْنَ التَّصْلِيَةِ بِالنَّارِ وَبَيْنَ شُرْبِ الْحَمِيمِ.

وَقِيلَ: إِذَا اسْتَغَاثُوا مِنَ النَّارِ جُعِلَ غِيَاثُهُمُ الْحَمِيمَ. وَقِيلَ: إِنَّ وَادِيًا مِنْ أَوْدِيَةِ جَهَنَّمَ يَجْتَمِعُ فِيهِ صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ فَيُنَطَلَقُ بِهِمْ فِي الْأَغْلَالِ، فَيُغْمَسُونَ فِيهِ حَتَّى تَنْخَلِعَ أَوْصَالُهُمْ، ثُمَّ يُخْرَجُونَ مِنْهُ وَقَدْ أَحْدَثَ اللَّهُ لَهُمْ خَلْقًا جَدِيدًا.

وَقُرِئَ: "يُطَوِّفُونَ" مِنَ التَّطْوِيفِ. وَيُطَوَّفُونَ، أَيْ: يَتَطَوَّفُونَ وَيُطَافُونَ.

وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: "هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمَا بِهَا تُكَذِّبَانِ تَصْلَيَانِ لَا تَمُوتَانِ فِيهَا وَلَا تَحْيَيَانِ يَطُوفُونَ بَيْنَهُمَا".

وَنِعْمَةُ اللَّهِ فِيمَا ذَكَرَهُ مِنْ هَوْلِ الْعَذَابِ: نَجَاةُ النَّاجِي مِنْهُ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ، وَمَا فِي الْإِنْذَارِ بِهِ مِنَ اللُّطْفِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]

﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾[2]: مَوْقِفَهُ الَّذِي يَقِفُ فِيهِ الْعِبَادُ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3]]الْمُطَفِّفِينَ: 6]. وَنَحْوُهُ: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾[4]]إِبْرَاهِيمَ: 14].

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِمَقَامِ رَبِّهِ: أَنَّ اللَّهَ قَائِمٌ عَلَيْهِ، أَيْ: حَافِظٌ مُهَيْمِنٌ مِنْ قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[5]]الرَّعْدِ: 333]. فَهُوَ يُرَاقِبُ ذَلِكَ، فَلَا يُجْسَرُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ.

وَقِيلَ: هُوَ مُقْحَمٌ كَمَا تَقُولُ: أَخَافَ جَانِبَ فُلَانٍ، وَفَعَلْتُ هَذَا لِمَكَانِكَ.

وَأَنْشَدَ:

ذَعَرْتُ بِهِ الْقَطَا وَنَفَيْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذِّئْبِ كَالرَّجُلِ اللَّعِيـــنِ

يُرِيدُ: وَنَفَيْتُ عَنْهُ الذِّئْبَ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَالَ: ﴿جَنَّتَانِ﴾[6].

قُلْتُ: الْخِطَابُ لِلثَّقَلَيْنِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: لِكُلِّ خَائِفِينَ مِنْكُمَا جَنَّتَانِ: جَنَّةٌ لِلْخَائِفِ الْإِنْسِيِّ، وَجَنَّةٌ لِلْخَائِفِ الْجِنِّيِّ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: جَنَّةٌ لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَجَنَّةٌ لِتَرْكِ الْمَعَاصِي، لِأَنَّ التَّكْلِيفَ دَائِرٌ عَلَيْهِمَا، وَأَنْ يُقَالَ: جَنَّةٌ يُثَابُ بِهَا، وَأُخْرَى تُضَمُّ إِلَيْهَا عَلَى وَجْهِ التَّفَضُّلِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[1]]يُونُسَ: 266].

خَصَّ الْأَفْنَانَ بِالذِّكْرِ: وَهِيَ الْغُصْنَةُ الَّتِي تَتَشَعَّبُ مِنْ فُرُوعِ الشَّجَرَةِ، لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُورِقُ وَتُثْمِرُ، فَمِنْهَا تَمْتَدُّ الظِّلَالُ، وَمِنْهَا تُجْتَنَى الثِّمَارُ. وَقِيلَ: الْأَفْنَانُ أَلْوَانُ النِّعَمِ مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ.

قَالَ:

وَمِنْ كُلِّ أَفْنَانِ اللَّذَاذَةِ وَالصِّبَا لَهَوْتُ بِهِ وَالْعَيْشُ أَخْضَرُ نَاضِرُ

﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾[2] حَيْثُ شَاءُوا فِي الْأَعَالِي وَالْأَسَافِلِ.

وَقِيلَ: تَجْرِيَانِ مِنْ جَبَلٍ مِنْ مِسْكٍ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: تَجْرِيَانِ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ: إِحْدَاهُمَا التَّسْنِيمُ، وَالْأُخْرَى: السَّلْسَبِيلُ.

﴿زَوْجَانِ﴾[3]: صِنْفَانِ: قِيلَ: صِنْفٌ مَعْرُوفٌ وَصِنْفٌ غَرِيبٌ.

﴿مُتَّكِئِينَ﴾[4] نُصِبَ عَلَى الْمَدْحِ لِلْخَائِفِينَ أَوْ حَالٌ مِنْهُمْ، لِأَنَّ مَنْ خَافَ فِي مَعْنَى الْجَمْعِ.

﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾[5]: مِنْ دِيبَاجٍ ثَخِينٍ، وَإِذَا كَانَتِ الْبَطَائِنُ مِنَ الْإِسْتَبْرَقِ، فَمَا ظَنُّكَ بِالظَّهَائِرِ؟

وَقِيلَ: ظَهَائِرُهَا مِنْ سُنْدُسٍ. وَقِيلَ: مِنْ نُورٍ.

﴿دَانٍ﴾[6]: قَرِيبٍ يَنَالُهُ الْقَائِمُ وَالْقَاعِدُ وَالنَّائِمُ.

وَقُرِئَ: "وَجِنَى"، بِكَسْرِ الْجِيمِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]

﴿فِيهِنَّ﴾[2]: فِي هَذِهِ الْآلَاءِ الْمَعْدُودَةِ مِنَ الْجَنَّتَيْنِ وَالْعَيْنَيْنِ وَالْفَاكِهَةِ وَالْفُرُشِ وَالْجَنَى. أَوْ فِي الْجَنَّتَيْنِ، لِاشْتِمَالِهَا عَلَى أَمَاكِنَ وَقُصُورٍ وَمَجَالِسَ.

﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾[3]: نِسَاءٌ قَصَرْنَ أَبْصَارَهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ: لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِهِمْ لَمْ يَطْمِثِ الْإِنْسِيَّاتِ مِنْهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْإِنْسِ، وَلَا الْجِنِّيَّاتِ أَحَدٌ مِنَ الْجِنِّ. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْجِنَّ يُطْمَثُونَ كَمَا يُطْمَثُ الْإِنْسُ.

وَقُرِئَ: "لَمْ يُطْمِثْهُنَّ" بِضَمِّ الْمِيمِ.

قِيلَ: هُنَّ فِي صَفَاءِ الْيَاقُوتِ وَبَيَاضِ الْمَرْجَانِ وَصِغَارِ الدُّرِّ: أَنْصَعُ بَيَاضًا.

قِيلَ: إِنَّ الْحَوْرَاءَ تَلْبَسُ سَبْعِينَ حُلَّةً، فَيُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَائِهَا كَمَا يُرَى الشَّرَابُ الْأَحْمَرُ فِي الزُّجَاجَةِ الْبَيْضَاءِ .

﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ﴾[4] فِي الْعَمَلِ ﴿إِلا الإِحْسَانُ﴾[5] فِي الثَّوَابِ.

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ: هِيَ مُسَجَّلَةٌ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، أَيْ: مُرْسَلَةٌ، يَعْنِي: أَنَّ كُلَّ مَنْ أَحْسَنَ أُحْسِنَ إِلَيْهِ، وَكُلَّ مَنْ أَسَاءَ أُسِيءَ إِلَيْهِ.

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَامَّتَانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[6]

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

6 سورة ، الآية .

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾[1]: وَمِنْ دُونِ تَيْنِكِ الْجَنَّتَيْنِ الْمَوْعُودَتَيْنِ لِلْمُقَرَّبِينَ.

﴿جَنَّتَانِ﴾[2]: لِمَنْ دُونَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾[3]: قَدْ ادْهَامَّتَا مِنْ شِدَّةِ الْخُضْرَةِ، ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾[4]: فَوَّارَتَانِ بِالْمَاءِ.

وَالنَّضْخُ أَكْثَرُ مِنَ النَّضْحِ، لِأَنَّ النَّضْحَ غَيْرُ مُعْجَمَةٍ مِثْلَ الرَّشِّ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ عَطَفَ النَّخْلَ وَالرُّمَّانَ عَلَى الْفَاكِهَةِ وَهُمَا مِنْهَا؟

قُلْتُ: اخْتِصَاصًا لَهُمَا وَبَيَانًا لِفَضْلِهِمَا، كَأَنَّهُمَا لِمَا لَهُمَا مِنَ الْمَزِيَّةِ جِنْسَانِ آخَرَانِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[5]]الْبَقَرَةِ: 988].

أَوْ لِأَنَّ النَّخْلَ ثَمَرُهُ فَاكِهَةٌ وَطَعَامٌ، وَالرُّمَّانَ فَاكِهَةٌ وَدَوَاءٌ، فَلَمْ يَخْلُصَا لِلتَّفَكُّهِ.

وَمِنْهُ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: إِذَا حَلَفَ لَا يَأْكُلُ فَاكِهَةً، فَأَكَلَ رُمَّانًا أَوْ رُطَبًا: لَمْ يَحْنَثْ، وَخَالَفَهُ صَاحِبَاهُ.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾[6]

﴿خَيْرَاتٌ﴾[7]: خَيِّرَاتٌ فَخُفِّفَتْ، كَقَوْلِهِ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ: "وَأَمَّا "خَيِّرٌ" الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى "أَخْيَرُ"، فَلَا يُقَالُ فِيهِ خَيِّرُونَ وَلَا خَيِّرَاتٌ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: "خَيِّرَاتٌ" عَلَى الْأَصْلِ. وَالْمَعْنَى: فَاضِلَاتُ الْأَخْلَاقِ حِسَانُ الْخَلْقِ.

﴿مَقْصُورَاتٌ﴾[1] قُصِرْنَ فِي خُدُورِهِنَّ.

يُقَالُ: امْرَأَةٌ قَصِيرَةٌ وَقَصُورَةٌ وَمَقْصُورَةٌ مُخَدَّرَةٌ. وَقِيلَ: إِنَّ الْخَيْمَةَ مِنْ خِيَامِهِنَّ دُرَّةٌ مُجَوَّفَةٌ.

﴿قَبْلَهُمْ﴾[2]: قَبْلَ أَصْحَابِ الْجَنَّتَيْنِ، دَلَّ عَلَيْهِمْ ذِكْرُ الْجَنَّتَيْنِ.

﴿مُتَّكِئِينَ﴾[3] نُصِبَ عَلَى الِاخْتِصَاصِ. وَالرَّفْرَفُ: ضَرْبٌ مِنَ الْبُسُطِ.

وَقِيلَ: الْبُسُطُ. وَقِيلَ: الْوَسَائِدُ، وَقِيلَ: كُلُّ ثَوْبٍ عَرِيضٍ رَفْرَفٌ.

وَيُقَالُ لِأَطْرَافِ الْبُسُطِ وَفُضُولِ الْفُسْطَاطِ: رَفَارِفُ. وَرَفْرَفُ السَّحَابِ: هَيْدَبُهُ.

وَالْعَبْقَرِيُّ: مَنْسُوبٌ إِلَى عَبْقَرٍ، تَزْعُمُ الْعَرَبُ أَنَّهُ بَلَدُ الْجِنِّ، فَيَنْسُبُونَ إِلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ عَجِيبٍ.

وَقُرِئَ: "رَفَارِفُ خُضُرٌ" بِضَمَّتَيْنِ.

وَعَبَاقِرِيٌّ، كَمَدَائِنِيٍّ: نِسْبَةً إِلَى عَبَاقَرَى فِي اسْمِ الْبَلَدِ، وَرَوَى **أَبُو حَاتِمٍ**: عَبَاقَرَى، بِفَتْحِ الْقَافِ وَمَنْعِ الصَّرْفِ، وَهَذَا لَا وَجْهَ لِصِحَّتِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَقَاصَرَتْ صِفَاتُ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ عَنِ الْأُولَيَيْنِ حَتَّى قِيلَ: وَمِنْ دُونِهِمَا؟

قُلْتُ: مُدْهَامَّتَانِ، دُونَ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ. وَنَضَّاخَتَانِ دُونَ: تَجْرِيَانِ. وَفَاكِهَةٌ دُونَ كُلِّ فَاكِهَةٍ. وَكَذَلِكَ صِفَةُ الْحُورِ وَالْمُتَّكَأِ.

وَقُرِئَ: "ذُو الْجَلَالِ" صِفَةً، لِلِاسْمِ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ أَدَّى شُكْرَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

سُورَةُ الواقِعَة

سورة الواقعة

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا آيَتَيْ 81 وَ 82 فَمَدَنِيَّتَانِ]
وَآيَاتُهَا 96 وَقِيلَ: 97 آيَةً
نَزَلَتْ بَعْدَ [طه]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ
رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا
وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾[1]

﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾[2] كَقَوْلِ: كَانَتِ الْكَائِنَةُ، وَحَدَثَتِ الْحَادِثَةُ، وَالْمُرَادُ الْقِيَامَةُ، وُصِفَتْ بِالْوُقُوعِ، لِأَنَّهَا تَقَعُ لَا مَحَالَةَ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: إِذَا وَقَعَتِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِهَا، وَوُقُوعُ الْأَمْرِ: نُزُولُهُ. يُقَالُ: وَقَعَ مَا كُنْتُ أَتَوَقَّعُهُ، أَيْ: نَزَلَ مَا كُنْتُ أَتَرَقَّبُ نُزُولَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ انْتَصَبَ إِذَا؟

قُلْتُ: بِلَيْسَ. كَقَوْلِكَ يَوْمَ الْجُمْعَةِ لَيْسَ لِي شُغْلٌ. أَوْ بِمَحْذُوفٍ، يَعْنِي: إِذَا وَقَعَتْ كَانَ كَيْتَ وَكَيْتَ، أَوْ بِإِضْمَارِ اذْكُرْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

﴿كَاذِبَةٌ﴾[1] نَفْسٌ كَاذِبَةٌ، أَيْ: لَا تَكُونُ حِينَ تَقَعُ نَفْسٌ تَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ وَتُكَذِّبُ فِي تَكْذِيبِ الْغَيْبِ، لِأَنَّ كُلَّ نَفْسٍ حِينَئِذٍ مُؤْمِنَةٌ صَادِقَةٌ مُصَدِّقَةٌ، وَأَكْثَرُ النُّفُوسِ الْيَوْمَ كَوَاذِبُ مُكَذِّبَاتٌ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[2]]الشُّعَرَاءِ: 201 .[، ﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾[3]]الْحَجِّ: 555]. وَاللَّامُ مِثْلُهَا فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[4]]الْفَجْرِ: 244]. أَوْ: لَيْسَ لَهَا نَفْسٌ تُكَذِّبُهَا وَتَقُولُ لَهَا: لَمْ تَكُونِي كَمَا لَهَا الْيَوْمَ نُفُوسٌ كَثِيرَةٌ يُكَذِّبْنَهَا، يَقُلْنَ لَهَا: لَنْ تَكُونِي. أَوْ هِيَ مِنْ قَوْلِهِمْ: كَذَّبَتْ فُلَانًا نَفْسُهُ فِي الْخَطْبِ الْعَظِيمِ، إِذَا شَجَّعَتْهُ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ وَقَالَتْ لَهُ: إِنَّكَ تُطِيقُهُ وَمَا فَوْقَهُ فَتَعَرَّضْ لَهُ وَلَا تُبَالِ بِهِ، عَلَى مَعْنَى: أَنَّهَا وَقْعَةٌ لَا تُطَاقُ شِدَّةً وَفَظَاعَةً. وَأَنْ لَا نَفْسَ حِينَئِذٍ تُحَدِّثُ صَاحِبَهَا بِمَا تُحَدِّثُهُ بِهِ عِنْدَ عَظَائِمِ الْأُمُورِ وَتُزَيِّنُ لَهُ احْتِمَالَهَا وَإِطَاقَتَهَا، لِأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ أَضْعَفُ مِنْ ذَلِكَ وَأَذَلُّ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾[5] وَالْفَرَاشُ مَثَلٌ فِي الضَّعْفِ. وَقِيلَ: "كَاذِبَةٌ" مَصْدَرٌ كَالْعَاقِبَةِ بِمَعْنَى التَّكْذِيبِ، مِنْ قَوْلِكَ: حَمَلَ عَلَى قَرْنِهِ فَمَا كَذَبَ، أَيْ: فَمَا جَبُنَ وَمَا تَثَبَّطَ.. وَحَقِيقَتُهُ: فَمَا كَذَّبَ نَفْسَهُ فِيمَا حَدَّثَتْهُ بِهِ. مِنْ إِطَاقَتِهِ لَهُ وَإِقْدَامِهِ عَلَيْهِ.

قَالَ زُهَيْرٌ:

.....إِذَا مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا

أَيْ: إِذَا وَقَعَتْ لَمْ تَكُنْ لَهَا رَجْعَةٌ وَلَا ارْتِدَادٌ ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾[6] عَلَى: هِيَ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ، تَرْفَعُ أَقْوَامًا وَتَضَعُ آخَرِينَ: إِمَّا وَصْفًا لَهَا بِالشِّدَّةِ، لِأَنَّ الْوَاقِعَاتِ الْعِظَامَ كَذَلِكَ، يَرْتَفِعُ فِيهَا نَاسٌ إِلَى مَرَاتِبَ وَيَتَّضِعُ نَاسٌ، وَإِمَّا لِأَنَّ الْأَشْقِيَاءَ يُحَطُّونَ إِلَى الدَّرَكَاتِ، وَالسُّعَدَاءُ يُرْفَعُونَ إِلَى الدَّرَجَاتِ، وَإِمَّا أَنَّهَا تُزَلْزِلُ الْأَشْيَاءَ وَتُزِيلُهَا عَنْ مَقَارِّهَا، فَتَخْفِضُ بَعْضًا وَتَرْفَعُ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

بَعْضًا: حَيْثُ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كِسَفًا وَتَنْتَثِرُ الْكَوَاكِبُ وَتَنْكَدِرُ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ فَتَمُرُّ فِي الْجَوِّ مَرَّ السَّحَابِ، وَقُرِئَ: "خَافِضَةً رَافِعَةً" بِالنَّصْبِ عَلَى الْحَالِ.

"رُجَّتْ": حُرِّكَتْ تَحْرِيكًا شَدِيدًا حَتَّى يَنْهَدِمَ كُلُّ شَيْءٍ فَوْقَهَا مِنْ جَبَلٍ وَبِنَاءٍ.

﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ﴾[1]: وَفُتَّتْ حَتَّى تَعُودَ كَالسَّوِيقِ، أَوْ سِيقَتْ مِنْ بَسَّ الْغَنَمَ إِذَا سَاقَهَا. كَقَوْلِهِ: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾[2]]النَّبَإِ: 20].

﴿مُنْبَثًّا﴾[3] مُتَفَرِّقًا. وَقُرِئَ بِالتَّاءِ، أَيْ: مُنْقَطِعًا. وَقُرِئَ: "رَجَّتْ وَبَسَّتْ" أَيِ: ارْتَجَّتْ وَذَهَبَتْ. وَفِي كَلَامِ بِنْتِ الْخُسِّ :عَيْنُهَا هَاجٌ، وَصِلَاهَا رَاجٌ. وَهِيَ تَمْشِي تَفَاجٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ انْتَصَبَ إِذَا رُجَّتْ؟

قُلْتُ: هُوَ بَدَلٌ مِنْ: إِذَا وَقَعَتْ. وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ بِ ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾[4]، أَيْ: تَخْفِضُ وَتَرْفَعُ وَقْتَ رَجِّ الْأَرْضِ، وَبَسِّ الْجِبَالِ لِأَنَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ يَنْخَفِضُ مَا هُوَ مُرْتَفِعٌ وَيَرْتَفِعُ مَا هُوَ مُنْخَفِضٌ.

﴿أَزْوَاجًا﴾[5]: أَصْنَافًا، يُقَالُ لِلْأَصْنَافِ الَّتِي بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ أَوْ يُذْكَرُ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ: أَزْوَاجٌ.

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾[6]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾[1] الَّذِينَ يُؤْتُونَ صَحَائِفَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾[2] الَّذِين[3] يُؤْتُونَهَا بِشَمَائِلِهِمْ.

أَوْ أَصْحَابُ الْمَنْزِلَةِ السَّنِيَّةِ وَأَصْحَابُ الْمَنْزِلَةِ الدَّنِيَّةِ، مِنْ قَوْلِكَ: فُلَانٌ مِنِّي بِالْيَمِينِ، فُلَانٌ مِنِّي بِالشِّمَالِ: إِذَا وَصَفْتَهُمَا بِالرِّفْعَةِ عِنْدَكَ وَالضَّعَةِ، وَذَلِكَ لِتَيَمُّنِهِمْ بِالْمَيَامِنِ وَتَشَاؤُمِهِمْ بِالشَّمَائِلِ، وَلِتَفَاؤُلِهِمْ بِالسَّانِحِ وَتَطَيُّرِهِمْ مِنَ الْبَارِحِ، وَلِذَلِكَ اشْتَقُّوا لِلْيَمِينِ الِاسْمَ مِنَ الْيُمْنِ، وَسَمَّوُا الشَّمَائِلَ الشُّؤْمَى.

وَقِيلَ: أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ: أَصْحَابُ الْيُمْنِ وَالشُّؤْمِ، لِأَنَّ السُّعَدَاءَ مَيَامِينُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِطَاعَتِهِمْ، وَالْأَشْقِيَاءُ مَشَائِيمُ عَلَيْهَا بِمَعْصِيَتِهِمْ. وَقِيلَ: يُؤْخَذُ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ ذَاتَ الْيَمِينِ وَبِأَهْلِ النَّارِ ذَاتَ الشِّمَالِ.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلا سَلامًا سَلامًا﴾[4]

﴿وَالسَّابِقُونَ﴾[5]: الْمُخْلِصُونَ الَّذِينَ سَبَقُوا إِلَى مَا دَعَاهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَشَقُّوا الْغُبَارَ فِي طَلَبِ مَرْضَاةِ اللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] في الأصل: الذي

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: فَرَجُلٌ ابْتَكَرَ الْخَيْرَ فِي حَدَاثَةِ سِنِّهِ، ثُمَّ دَاوَمَ عَلَيْهِ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا، فَهَذَا السَّابِقُ الْمُقَرَّبُ، وَرَجُلٌ ابْتَكَرَ عُمْرَهُ بِالذَّنْبِ وَطُولِ الْغَفْلَةِ، ثُمَّ تَرَاجَعَ بِتَوْبَةٍ، فَهَذَا صَاحِبُ الْيَمِينِ، وَرَجُلٌ ابْتَكَرَ الشَّرَّ فِي حَدَاثَةِ سِنِّهِ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا، فَهَذَا صَاحِبُ الشِّمَالِ. مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ؟ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ؟ تَعْجِيبٌ مِنْ حَالِ الْفَرِيقَيْنِ فِي السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ.

وَالْمَعْنَى: أَيُّ شَيْءٍ هُمْ؟ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، يُرِيدُ: وَالسَّابِقُونَ مَنْ عَرَفْتَ حَالَهُمْ وَبَلَغَكَ وَصْفُهُمْ، كَقَوْلِهِ: وَعَبْدُ اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ.

وَقَوْلِ أَبِي النَّجْمِ:

.....وَشِعْرِيَ شِعْرِي

كَأَنَّهُ قَالَ: وَشِعْرِي مَا انْتَهَى إِلَيْكَ وَسَمِعْتَ بِفَصَاحَتِهِ وَبَرَاعَتِهِ، وَقَدْ جَعَلَ "السَّابِقُونَ" تَأْكِيدًا. وَأُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ: خَبَرًا. وَلَيْسَ بِذَاكَ، وَوَقَفَ بَعْضُهُمْ عَلَى: وَالسَّابِقُونَ، وَابْتَدَأَ: السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ، وَالصَّوَابُ أَنْ يُوقَفَ عَلَى الثَّانِي، لِأَنَّهُ تَمَامُ الْجُمْلَةِ، وَهُوَ فِي مُقَابَلَةِ: مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، وَمَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ .

الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ الَّذِينَ قُرِّبَتْ دَرَجَاتُهُمْ فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْعَرْشِ وَأُعْلِيَتْ مَرَاتِبُهُمْ.

وَقُرِئَ: "فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ" وَالثُّلَّةُ: الْأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ الْكَثِيرَةِ.

قَالَ:

وَجَاءَتْ إِلَيْهِمْ ثُلَّةٌ خِنْدِفِيَّةٌ بِجَيْشٍ كَتَيَّارٍ مِنَ السَّيْلِ مُزْبِدِ

وَقَوْلُهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾[1] كَفَى بِهِ دَلِيلًا عَلَى الْكَثْرَةِ، وَهِيَ مِنَ الثَّلِّ وَهُوَ الْكَسْرُ، كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ مِنَ الْأُمِّ وَهُوَ الشَّجُّ، كَأَنَّهَا جَمَاعَةٌ كُسِرَتْ مِنَ النَّاسِ وَقُطِعَتْ مِنْهُمْ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ السَّابِقِينَ مِنَ الْأَوَّلِينَ كَثِيرٌ، وَهُمُ الْأُمَمُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– إِلَى مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾[2]، وَهُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: ﴿مِنَ الأَوَّلِينَ﴾[1]: مِنْ مُتَقَدِّمِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَ﴿مِنَ الآخِرِينَ﴾[2] مِنْ مُتَأَخِّرِيهَا.

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "الثُّلُثَانِ جَمِيعًا مِنْ أُمَّتِي".

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَالَ: ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾[3]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾[4]؟

قُلْتُ: هَذَا فِي السَّابِقِينَ. وَذَلِكَ فِي أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَأَنَّهُمْ يَتَكَاثَرُونَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ جَمِيعًا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهَا لَمَّا نَزَلَتْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَمَا زَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُرَاجِعُ رَبَّهُ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾[5]]الْوَاقِعَةِ: 39-400].

قُلْتُ: هَذَا لَا يَصِحُّ لِأَمْرَيْنِ:

- أَحَدُهُمَا: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَارِدَةٌ فِي السَّابِقِينَ وُرُودًا ظَاهِرًا، وَكَذَلِكَ الثَّانِيَةُ فِي أَصْحَابِ الْيَمِينِ.

أَلَا تَرَى كَيْفَ عَطَفَ أَصْحَابَ الْيَمِينِ وَوَعَدَهُمْ، عَلَى السَّابِقِينَ وَوَعَدَهُمْ؟!

- وَالثَّانِي: أَنَّ النَّسْخَ فِي الْأَخْبَارِ غَيْرُ جَائِزٍ.

وَعَنْ الْحَسَنِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: سَابِقُو الْأُمَمِ أَكْثَرُ مِنْ سَابِقِي أُمَّتِنَا، وَتَابِعُو الْأُمَمِ مِثْلُ تَابِعِي هَذِهِ الْأُمَّةِ.

وَثُلَّةٌ: خَبَرُ مُبْتَدَإٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: هُمْ ثُلَّةٌ.

﴿مَوْضُونَةٍ﴾[6]: مَرْمُولَةٍ بِالذَّهَبِ، مُشَبَّكَةٍ بِالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، قَدْ دُوخِلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ كَمَا تَوَضَّنُ حِلَقُ الدِّرْعِ.

قَالَ الْأَعْشَى:

وَمِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مَوْضُونَةٌ .....

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: مُتَوَاصِلَةٌ، أُدْنِيَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ.

﴿مُتَّكِئِينَ﴾[1]: حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي عَلَى، وَهُوَ الْعَامِلُ فِيهَا، أَيِ: اسْتَقَرُّوا عَلَيْهَا مُتَّكِئِينَ.

﴿مُتَقَابِلِينَ﴾[2]: لَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ فِي أَقْفَاءِ بَعْضٍ. وُصِفُوا بِحُسْنِ الْعِشْرَةِ وَتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ.

﴿مُخَلَّدُونَ﴾[3]: مُبْقَوْنَ أَبَدًا عَلَى شَكْلِ الْوِلْدَانِ وَحَدِّ الْوَصَافَةِ لَا يَتَحَوَّلُونَ عَنْهُ.

وَقِيلَ: مُقَرَّطُونَ، وَالْخَلَدَةُ: الْقُرْطُ. وَقِيلَ: هُمْ أَوْلَادُ أَهْلِ الدُّنْيَا: لَمْ تَكُنْ لَهُمْ حَسَنَاتٌ فَيُثَابُوا عَلَيْهَا، وَلَا سَيِّئَاتٌ فَيُعَاقَبُوا عَلَيْهَا.

رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وَعَنِ الْحَسَنِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: "أَوْلَادُ الْكُفَّارِ خُدَّامُ أَهْلِ الْجَنَّةِ".

الْأَكْوَابُ: أَوَانٍ بِلَا عُرًى وَخَرَاطِيمَ، وَالْأَبَارِيقُ، ذَوَاتُ الْخَرَاطِيمِ.

﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾[4]، أَيْ: بِسَبَبِهَا، وَحَقِيقَتُهُ: لَا يَصْدُرُ صُدَاعُهُمْ عَنْهَا. أَوْ لَا يُفَرَّقُونَ عَنْهَا.

وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ: "لَا يَصَّدَّعُونَ"، بِمَعْنَى: لَا يَتَصَدَّعُونَ لَا يَتَفَرَّقُونَ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[5]]الرُّوم: 433].

وَيُصَدَّعُونَ، أَيْ: لَا يُصَدِّعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لَا يُفَرِّقُونَهُمْ.

﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾[6] يَأْخُذُونَ خَيْرَهُ وَأَفْضَلَهُ.

﴿يَشْتَهُونَ﴾[7]: يَتَمَنَّوْنَ.

وَقُرِئَ: "وَلُحُومِ طَيْرٍ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

قُرِئَ: "وَحَوَرٌ عِينٌ" بِالرَّفْعِ عَلَى: وَفِيهَا حُورٌ عِينٌ، كَبَيْتِ الْكِتَابِ:

.....إِلَّا رَوَاكِدُ جَمْرُهُنَّ هَبَاءُ

وَمُشَجَّجٌ .....

أَوْ لِلْعَطْفِ عَلَى ﴿وِلْدَانٌ﴾[1].

وَبِالْجَرِّ: عَطْفًا عَلَى: جَنَّاتِ النَّعِيمِ، كَأَنَّهُ قَالَ: هُمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ وَحُورٍ.

أَوْ عَلَى أَكْوَابٍ، لِأَنَّ مَعْنَى يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ يُنَعَّمُونَ بِأَكْوَابٍ، وَبِالنَّصْبِ عَلَى: وَيُؤْتَوْنَ حُورًا.

﴿جَزَاءً﴾[2] مَفْعُولٌ لَهُ، أَيْ: يُفْعَلُ بِهِمْ ذَلِكَ كُلُّهُ جَزَاءً بِأَعْمَالِهِمْ.

﴿سَلامًا سَلامًا﴾[3] إِمَّا بَدَلٌ مِنْ ﴿قِيلًا﴾[4] بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلا سَلامًا﴾[5]]مَرْيَمَ: 62].

وَإِمَّا مَفْعُولٌ بِهِ لِـ ﴿قِيلًا﴾[6]، بِمَعْنَى: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَقُولُوا سَلَامًا سَلَامًا.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَفْشُونَ السَّلَامَ بَيْنَهُمْ، فَيُسَلِّمُونَ سَلَامًا بَعْدَ سَلَامٍ.

وَقُرِئَ: "سَلَامٌ سَلَامٌ"، عَلَى الْحِكَايَةِ.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا لأَصْحَابِ الْيَمِينِ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾[7]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

السِّدْرُ: شَجَرُ النَّبْقِ.

وَالْمَخْضُودُ: الَّذِي لَا شَوْكَ لَهُ، كَأَنَّمَا خُضِّدَ شَوْكُهُ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: الْمُوقَرُ الَّذِي تَثْنِي أَغْصَانَهُ كَثْرَةُ حَمْلِهِ، مِنْ خَضَّدَ الْغُصْنَ إِذَا ثَنَاهُ، وَهُوَ رَطْبٌ.

وَالطَّلْحُ: شَجَرُ الْمَوْزِ.

وَقِيلَ: هُوَ شَجَرُ أُمِّ غَيْلَانَ، وَلَهُ نَوَّارٌ كَثِيرٌ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ.

وَعَنِ السُّدِّيِّ: شَجَرٌ يُشْبِهُ طَلْحَ الدُّنْيَا، وَلَكِنْ لَهُ ثَمَرٌ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ.

وَعَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ قَرَأَ: وَطَلْعٍ، وَمَا شَأْنُ الطَّلْحِ، وَقَرَأَ قَوْلَهُ: ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾[1]]ق: 100]. فَقِيلَ لَهُ: أَوَ نُحَوِّلُهَا؟ فَقَالَ: آيُ الْقُرْآنِ لَا تُهَاجُ الْيَوْمَ وَلَا تُحَوَّلُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَهُ.

وَالْمَنْضُودُ: الَّذِي نُضِّدَ بِالْحَمْلِ مِنْ أَسْفَلِهِ إِلَى أَعْلَاهُ، فَلَيْسَتْ لَهُ سَاقٌ بَارِزَةٌ .

﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾[2] مُمْتَدٌّ مُنْبَسِطٌ لَا يَتَقَلَّصُ، كَظِلِّ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ.

﴿مَسْكُوبٍ﴾[3] يُسْكَبُ لَهُمْ أَيْنَ شَاؤُوا وَكَيْفَ شَاؤُوا لَا يَتَعَنَّوْنَ فِيهِ.

وَقِيلَ: دَائِمُ الْجَرْيَةِ لَا يَنْقَطِعُ. وَقِيلَ: مَصْبُوبٌ يَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ.

﴿لا مَقْطُوعَةٍ﴾[4] هِيَ دَائِمَةٌ لَا تَنْقَطِعُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ كَفَوَاكِهِ الدُّنْيَا.

﴿ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾: لَا تُمْنَعُ عَنْ مُتَنَاوِلِهَا بِوَجْهٍ، وَلَا يُحْظَرُ عَلَيْهَا كَمَا يُحْظَرُ عَلَى بَسَاتِينِ الدُّنْيَا.

وَقُرِئَ: "فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ"، بِالرَّفْعِ عَلَى: وَهُنَاكَ فَاكِهَةٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾[5].

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿وَفُرُشٍ﴾[1] جَمْعُ فِرَاشٍ. وَقُرِئَ: وَفَرْشٍ بِالتَّخْفِيفِ.

﴿مَرْفُوعَةٍ﴾[2] نُضِّدَتْ حَتَّى ارْتَفَعَتْ. أَوْ مَرْفُوعَةٌ عَلَى الْأَسِرَّةِ.

وَقِيلَ: هِيَ النِّسَاءُ، لِأَنَّ الْمَرْأَةَ يُكَنَّى عَنْهَا بِالْفِرَاشِ مَرْفُوعَةً عَلَى الْأَرَائِكِ. قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾[3]. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾[4].

وَعَلَى التَّفْسِيرِ الْأَوَّلِ أُضْمِرُ لَهُنَّ، لِأَنَّ ذِكْرَ الْفُرُشِ وَهِيَ الْمَضَاجِعُ دَلَّ عَلَيْهِنَّ.

﴿أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾[5]، أَيِ ابْتَدَأْنَا خَلْقَهُنَّ ابْتِدَاءً جَدِيدًا مِنْ غَيْرِ وِلَادَةٍ، فَإِمَّا أَنْ يُرَادَ. اللَّاتِي ابْتُدِئَ إِنْشَاؤُهُنَّ، أَوِ اللَّاتِي أُعِيدَ إِنْشَاؤُهُنَّ.

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– سَأَلَتْهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ﴾[6]، فَقَالَ: "يَا أُمَّ سَلَمَةَ، هُنَّ اللَّوَاتِي قُبِضْنَ فِي دَارِ الدُّنْيَا عَجَائِزَ شُمْطًا رُمْصًا، جَعَلَهُنَّ اللَّهُ بَعْدَ الْكِبَرِ" "أَتْرَابًا" عَلَى مِيلَادٍ وَاحِدٍ فِي الِاسْتِوَاءِ، كُلَّمَا أَتَاهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ وَجَدُوهُنَّ أَبْكَارًا، فَلَمَّا سَمِعَتْ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَتْ: وَاوْجَعَاهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَيْسَ هُنَاكَ وَجَعٌ".

وَقَالَتْ عَجُوزٌ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا الْعَجَائِزُ، فَوَلَّتْ وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لَيْسَتْ يَوْمَئِذَ بِعَجُوزٍ"، وَقَرَأَ الْآيَةَ: "عُرُبًا". وَقُرِئَ: "عُرْبًا"، بِالتَّخْفِيفِ جَمْعُ عَرُوبٍ؛ وَهِيَ الْمُتَحَبِّبَةُ إِلَى زَوْجِهَا الْحَسَنَةُ التَّبَعُّلِ .

﴿أَتْرَابًا﴾[7] مُسْتَوِيَاتٌ فِي السِّنِّ بَنَاتُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ، وَأَزْوَاجُهُنَّ أَيْضًا كَذَلِكَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا بِيضًا جِعَادًا مُكَحَّلِينَ أَبْنَاءَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ".

وَاللَّامُ فِي ﴿لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾[1] مِنْ صِلَةِ أَنْشَأْنَا وَجَعَلْنَا.

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾[2]

﴿فِي سَمُومٍ﴾[3] فِي حَرِّ نَارٍ يَنْفُذُ فِي الْمَسَامِّ.

﴿وَحَمِيمٍ﴾[4]: وَمَاءٍ حَارٍّ مُتَنَاهٍ فِي الْحَرَارَةِ.

﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾[5] مِنْ دُخَانٍ أَسْوَدَ بَهِيمٍ، ﴿لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾[6]: نَفْيٌ لِصِفَتَيِ الظِّلِّ عَنْهُ، يُرِيدُ: أَنَّهُ ظِلٌّ، وَلَكِنْ لَا كَسَائِرِ الظِّلَالِ: سَمَّاهُ ظِلًّا، ثُمَّ نَفَى عَنْهُ بَرْدَ الظِّلِّ وَرُوحَهُ وَنَفْعَهُ لِمَنْ يَأْوِي إِلَيْهِ مِنْ أَذَى الْحَرِّ وَذَلِكَ كَرَمُهُ لِيَمْحَقَ مَا فِي مَدْلُولِ الظِّلِّ مِنَ الِاسْتِرْوَاحِ إِلَيْهِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ ظِلٌّ حَارٌّ ضَارٌّ إِلَّا أَنَّ لِلنَّفْيِ فِي نَحْوِ هَذَا شَأْنًا لَيْسَ لِلْإِثْبَاتِ. وَفِيهِ تَهَكُّمٌ بِأَصْحَابِ الْمَشْأَمَةِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَأْهِلُونَ الظِّلَّ الْبَارِدَ الْكَرِيمَ الَّذِي هُوَ لِأَضْدَادِهِمْ فِي الْجَنَّةِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: "لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ" بِالرَّفْعِ، أَيْ: لَا هُوَ كَذَلِكَ.

وَ﴿الْحِنْثُ﴾[1]: الذَّنْبُ الْعَظِيمُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: بَلَغَ الْغُلَامُ الْحِنْثَ، أَيِ: الْحُلُمَ وَوَقْتَ الْمُؤَاخَذَةِ بِالْمَآثِمِ. وَمِنْهُ: حَنِثَ فِي يَمِينِهِ، خِلَافُ بَرَّ فِيهَا. وَيُقَالُ: تَحَنَّثَ إِذَا تَأَثَّمَ وَتَحَرَّجَ.

﴿أَوَآبَاؤُنَا﴾[2] دَخَلَتْ هَمْزَةُ الِاسْتِفْهَامِ عَلَى حَرْفِ الْعَطْفِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ حَسُنَ الْعَطْفُ عَلَى الْمُضْمَرِ فِي "لَمَبْعُوثُونَ" مِنْ غَيْرِ تَأْكِيدٍ بِنَحْنُ؟

قُلْتُ: حَسُنَ لِلْفَاصِلِ الَّذِي هُوَ الْهَمْزَةُ، كَمَا حَسُنَ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا﴾[3] لِفَصْلِ "لَا" الْمُؤَكِّدَةِ لِلنَّفْيِ.

وَقُرِئَ: "أَوَآبَاؤُنَا" وَقُرِئَ: "لَمُجْمَعُونَ".

﴿إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾[4] إِلَى مَا وُقِّتَتْ بِهِ الدُّنْيَا مِنْ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى مِنْ؛ كَخَاتَمِ فِضَّةٍ.

وَالْمِيقَاتُ: مَا وُقِّتَ بِهِ الشَّيْءُ، أَيْ: حُدَّ. وَمِنْهُ مَوَاقِيتُ الْإِحْرَامِ: وَهِيَ الْحُدُودُ الَّتِي لَا يَتَجَاوَزُهَا مَنْ يُرِيدُ دُخُولَ مَكَّةَ إِلَّا مُحْرِمًا .

﴿أَيُّهَا الضَّالُّونَ﴾[5] عَنِ الْهُدَى، ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾[6] بِالْبَعْثِ، وَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ وَمَنْ فِي مِثْلِ حَالِهِمْ.

﴿مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ﴾[7] مِنْ الْأُولَى لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، وَالثَّانِيَةُ لِبَيَانِ الشَّجَرِ وَتَفْسِيرِهِ. وَأَنَّثَ ضَمِيرَ الشَّجَرِ عَلَى الْمَعْنَى، وَذَكَّرَهُ عَلَى اللَّفْظِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْهَا﴾[8] وَ﴿عَلَيْهِ﴾[9].

وَمَنْ قَرَأَ: "مِنْ شَجَرَةٍ مِنْ زَقُّومٍ"، فَقَدْ جَعَلَ الضَّمِيرَيْنِ لِلشَّجَرَةِ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ الثَّانِي عَلَى تَأْوِيلِ الزَّقُّومِ، لِأَنَّهُ تَفْسِيرُهَا، وَهِيَ فِي مَعْنَاهُ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

﴿شُرْبَ الْهِيمِ﴾[1] قُرِئَ: بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ، فَالْفَتْحُ وَالضَّمُّ مَصْدَرَانِ.

وَعَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَيَّامُ أَكْلٍ وَشَرْبٍ. بِفَتْحِ الشِّينِ.

وَأَمَّا الْمَكْسُورُ، فَبِمَعْنَى الْمَشْرُوبِ، أَيْ: مَا يَشْرَبُهُ الْهِيمُ؛ وَهِيَ الْإِبِلُ الَّتِي بِهَا الْهُيَامُ، وَهُوَ دَاءٌ تَشْرَبُ مِنْهُ فَلَا تَرْوَى: جَمْعُ أَهْيَمَ وَهَيْمَاءَ.

قَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

فَأَصْبَحْتُ كَالْهَيْمَاءِ لَا الْمَاءُ مِبْرَدٌ صَدَاهَا وَلَا يَقْضِي عَلَيْهَا هُيَامُهَا

وَقِيلَ: الْهِيمُ: الرِّمَالُ. وَوَجْهُهُ: أَنْ يَكُونَ جَمْعُ الْهَيَامِ بِفَتْحِ الْهَاءِ، وَهُوَ الرَّمْلُ الَّذِي لَا يَتَمَاسَكُ، جُمِعَ عَلَى فُعُلٍ كَسَحَابٍ وَسُحُبٍ، ثُمَّ خُفِّفَ وَفُعِلَ بِهِ مَا فُعِلَ بِجَمْعِ أَبْيَضَ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يُسَلَّطُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْجُوعِ مَا يَضْطَرُّهُمْ إِلَى أَكْلِ الزَّقُّومِ هُوَ كَالْمُهْلِ، فَإِذَا مَلَئُوا مِنْهُ الْبُطُونَ يُسَلَّطُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَطَشِ مَا يَضْطَرُّهُمْ إِلَى شُرْبِ الْحَمِيمِ الَّذِي يُقَطِّعُ أَمْعَاءَهُمْ، فَيَشْرَبُونَهُ شُرْبَ الْهِيمِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ عَطْفُ الشَّارِبِينَ عَلَى الشَّارِبِينَ، وَهُمَا لِذَوَاتٍ مُتَّفِقَةٍ، وَصِفَتَانِ مُتَّفِقَتَانِ، فَكَانَ عَطْفًا لِلشَّيْءِ عَلَى نَفْسِهِ؟

قُلْتُ: لَيْسَتَا بِمُتَّفِقَتَيْنِ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ كَوْنَهُمْ شَارِبِينَ لِلْحَمِيمِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ: مِنْ تَنَاهِي الْحَرَارَةِ وَقَطْعِ الْأَمْعَاءِ أَمْرٌ عَجِيبٌ، وَشُرْبُهُمْ لَهُ عَلَى ذَلِكَ كَمَا تَشْرَبُ الْهِيمُ الْمَاءَ، أَمْرٌ عَجِيبٌ أَيْضًا، فَكَانَتَا صِفَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ.

النُّزُلُ: الرِّزْقُ الَّذِي يُعَدُّ لِلنَّازِلِ تَكْرِمًا لَهُ. وَفِيهِ تَهَكُّمٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]، وَكَقَوْلِ أَبِي الشَّعْرِ الضَّبِّيِّ:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافَنَا جَعَلْنَا الْقَنَا وَالْمُوهِفَاتِ لَهُ نُزُلَا

وَقُرِئَ: "نَزَلُهُمْ" بِالتَّخْفِيفِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1]

﴿فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ﴾[2]: تَحْضِيضٌ عَلَى التَّصْدِيقِ: إِمَّا بِالْخَلْقِ لِأَنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا مُصَدِّقِينَ بِهِ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمَّا كَانَ مَذْهَبُهُمْ خِلَافَ مَا يَقْتَضِيهِ التَّصْدِيقُ، فَكَأَنَّهُمْ مُكَذِّبُونَ بِهِ. وَإِمَّا بِالْبَعْثِ، لِأَنَّ مَنْ خَلَقَ أَوَّلًا لَمْ يَمْتَنِعْ عَلَيْهِ أَنْ يَخْلُقَ ثَانِيًا.

﴿مَا تُمْنُونَ﴾[3]: مَا تُمْنُونَهُ، أَيْ: تَقْذِفُونَهُ فِي الْأَرْحَامِ مِنَ النُّطَفِ.

وَقَرَأَ أَبُو السَّمَّالِ بِفَتْحِ التَّاءِ – يُقَالُ: أَمْنَى النُّطْفَةَ وَمَنَاهَا. قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾[4]]النَّجْم: 46 .[

﴿تَخْلُقُونَهُ﴾[5]: تُقَدِّرُونَهُ تُصَوِّرُونَهُ.

﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾[6]: تَقْدِيرًا وَقَسَّمْنَاهُ عَلَيْكُمْ قِسْمَةَ الرِّزْقِ عَلَى اخْتِلَافٍ وَتَفَاوُتٍ كَمَا تَقْتَضِيهِ مَشِيئَتُنَا، فَاخْتَلَفَتْ أَعْمَارُكُمْ مِنْ قَصِيرٍ وَطَوِيلٍ وَمُتَوَسِّطٍ.

وَقُرِئَ: "قَدَرْنَا" بِالتَّخْفِيفِ.

سَبَقْتَهُ عَلَى الشَّيْءِ: إِذَا أَعْجَزْتَهُ عَنْهُ وَغَلَبْتَهُ عَلَيْهِ وَلَمْ تُمَكِّنْهُ مِنْهُ.

فَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾[7] أَنَّا قَادِرُونَ عَلَى ذَلِكَ لَا تَغْلِبُونَنَا عَلَيْهِ، وَأَمْثَالُكُمْ جَمْعُ مَثَلٍ: أَيْ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ مِنْكُمْ وَمَكَانَكُمْ أَشْبَاهَكُمْ مِنَ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

الْخَلْقِ، وَعَلَى أَنْ ﴿وَنُنْشِئَكُمْ﴾[1] فِي خَلْقٍ لَا تَعْلَمُونَهَا وَمَا عَهِدْتُمْ بِمِثْلِهَا، يَعْنِي: أَنَّا نَقْدِرُ عَلَى الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا: عَلَى خَلْقِ مَا يُمَاثِلُكُمْ، وَمَا لَا يُمَاثِلُكُمْ، فَكَيْفَ نَعْجِزُ عَنْ إِعَادَتِكُمْ؟!

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿أَمْثَالَكُمْ﴾[2] جَمْعَ مِثْلٍ، أَيْ: عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ وَنُغَيِّرَ صِفَاتِكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا فِي خَلْقِكُمْ وَأَخْلَاقِكُمْ، وَنُنْشِئَكُمْ فِي صِفَاتٍ لَا تَعْلَمُونَهَا.

قُرِئَ: "النَّشْأَةَ" وَالنَّشَاءَةَ.

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ الْقِيَاسِ حَيْثُ جَهَّلَهُمْ فِي تَرْكِ قِيَاسِ النَّشْأَةِ الْأُخْرَى عَلَى الْأُولَى.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[3]

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾[4] هُ مِنَ الطَّعَامِ، أَيْ: تَبْذُرُونَ حَبَّهُ وَتَعْمَلُونَ فِي أَرْضِهِ.

﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾[5]: تُنْبِتُونَهُ وَتَرُدُّونَهُ نَبَاتًا، يَرِفُّ وَيَنْمِي إِلَى أَنْ يَبْلُغَ الْغَايَةَ؟

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: زَرَعْتُ، وَلْيَقُلْ: حَرَثْتُ".

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَرَأَيْتُمْ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ ... ﴾[6] الْآيَةَ..

وَالْحُطَامُ: مِنْ حَطَمَ، كَالْفُتَاتِ وَالْجِذَاذِ مِنْ فَتَّ وَجَذَّ: وَهُوَ مَا صَارَ هَشِيمًا وَتَحَطَّمَ.

﴿فَظَلْتُمْ﴾[7] عَلَى الْأَصْلِ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾[8]: تَعْجَبُونَ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

وَعَنِ الْحَسَنِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: تَنْدَمُونَ عَلَى تَعَبِكُمْ فِيهِ وَإِنْفَاقِكُمْ عَلَيْهِ. أَوْ عَلَى مَا اقْتَرَفْتُمْ مِنَ الْمَعَاصِي الَّتِي أُصِبْتُمْ بِذَلِكَ مِنْ أَجْلِهَا.

وَقُرِئَ: تَفَكَّنُونَ. وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: "مَثَلُ الْعَالِمِ كَمَثَلِ الْحَمَّةِ يَأْتِيهَا الْبُعَدَاءُ وَيَتْرُكُهَا الْقُرَبَاءُ. فَبَيْنَا هُمْ إِذْ غَارَ مَاؤُهَا فَانْتَفَعَ بِهَا قَوْمٌ وَبَقِيَ قَوْمٌ يَتَفَكَّنُونَ"، أَيْ: يَتَنَدَّمُونَ.

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾[1]: لَمُلْزَمُونَ غَرَامَةَ مَا أَنْفَقْنَا. وَمُهْلَكُونَ لِهَلَاكِ رِزْقِنَا، مِنَ الْغَرَامِ: وَهُوَ الْهَلَاكُ.

﴿بَلْ نَحْنُ﴾[2] قَوْمٌ ﴿مَحْرُومُونَ﴾[3]: مُحَارِفُونَ مَحْدُودُونَ، لَا حَظَّ لَنَا وَلَا بَخْتَ لَنَا، وَلَوْ كُنَّا مَجْدُودِينَ، لَمَا جَرَى عَلَيْنَا هَذَا.

وَقُرِئَ: "أَئِنَّا".

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾[4]

﴿الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾[5]، يُرِيدُ: الْمَاءَ الْعَذْبَ الصَّالِحَ لِلشُّرْبِ.

وَ"الْمُزْنُ": السَّحَابُ: الْوَاحِدَةُ مُزْنَةٌ.

وَقِيلَ: هُوَ السَّحَابُ الْأَبْيَضُ خَاصَّةً، وَهُوَ أَعْذَبُ مَاءً.

﴿أُجَاجًا﴾[6]: مِلْحًا زُعَاقًا لَا يُقْدَرُ عَلَى شُرْبِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمْ أُدْخِلَتِ اللَّامُ عَلَى جَوَابِ "لَوْ" فِي قَوْلِهِ: ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾[7]]الْوَاقِعَةِ: 655]. وَنُزِعَتْ مِنْهُ هَهُنَا؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

قُلْتُ: إِنَّ "لَوْ" لَمَّا كَانَتْ دَاخِلَةً عَلَى جُمْلَتَيْنِ مُعَلِّقَةً ثَانِيَتَهُمَا بِالْأُولَى تَعَلُّقَ الْجَزَاءِ بِالشَّرْطِ، وَلَمْ تَكُنْ مُخْلَصَةً لِلشَّرْطِ كَإِنْ وَلَا عَامِلَةً مِثْلَهَا.

وَإِنَّمَا سَرَى فِيهَا مَعْنَى الشَّرْطِ اتِّفَاقًا مِنْ حَيْثُ إِفَادَتُهَا فِي مَضْمُونَيْ جُمْلَتَيْهَا أَنَّ الثَّانِيَ امْتَنَعَ لِامْتِنَاعِ الْأَوَّلِ: افْتَقَرَتْ فِي جَوَابِهَا إِلَى مَا يَنْصُبُ عَلَمًا عَلَى هَذَا التَّعَلُّقِ، فَزِيدَتْ هَذِهِ اللَّامُ لِتَكُونَ عَلَمًا عَلَى ذَلِكَ. فَإِذَا حُذِفَتْ بَعْدَ مَا صَارَتْ عَلَمًا مَشْهُورًا مَكَانَهُ، فَلِأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا عُلِمَ وَشُهِرَ مَوْقِعُهُ وَصَارَ مَأْلُوفًا وَمَأْنُوسًا بِهِ: لَمْ يُبَالَ بِإِسْقَاطِهِ عَنِ اللَّفْظِ، اسْتِغْنَاءً بِمَعْرِفَةِ السَّامِعِ.

أَلَا تَرَى إِلَى مَا يُحْكَى عَنْ رُؤْبَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: خَيْرٍ، لِمَنْ قَالَ لَهُ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ فَحَذَفَ الْجَارَّ لِعِلْمِ كُلِّ أَحَدٍ بِمَكَانِهِ. وَتَسَاوِي حَالَيْ حَذْفِهِ وَإِثْبَاتِهِ لِشُهْرَةِ أَمْرِهِ.

وَنَاهِيكَ بِقَوْلِ أَوْسٍ:

حَتَّى إِذَا الْكَلَّابُ قَالَ لَهَا كَالْيَوْمِ مَطْلُوبًا وَلَا طَلَبَا

وَحَذْفُهُ "لَمْ أَرَ"، فَإِذَنْ حَذْفُهَا اخْتِصَارٌ لَفْظِيٌّ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ فِي الْمَعْنَى، فَاسْتَوَى الْمَوْضِعَانِ بِلَا فَرْقٍ بَيْنَهُمَا، عَلَى أَنَّ تَقَدُّمَ ذِكْرِهَا وَالْمَسَافَةُ قَصِيرَةٌ مُغْنٍ عَنْ ذِكْرِهَا ثَانِيَةً وَنَائِبٌ عَنْهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَذِهِ اللَّامَ مُفِيدَةٌ مَعْنَى التَّوْكِيدِ لَا مَحَالَةَ، فَأُدْخِلَتْ فِي آيَةِ الْمَطْعُومِ دُونَ آيَةِ الْمَشْرُوبِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ أَمْرَ الْمَطْعُومِ مُقَدَّمٌ عَلَى أَمْرِ الْمَشْرُوبِ، وَأَنَّ الْوَعِيدَ بِفَقْدِهِ أَشَدُّ وَأَصْعَبُ، مِنْ قِبَلِ أَنَّ الْمَشْرُوبَ إِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ تَبَعًا لِلْمَطْعُومِ.

أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِنَّمَا تَسْقِي ضَيْفَكَ بَعْدَ أَنْ تُطْعِمَهُ، وَلَوْ عَكَسْتَ قَعَدْتَ تَحْتَ قَوْلِ أَبِي الْعَلَاءِ:

إِذَا سُقِيَتْ ضُيُوفُ النَّاسِ مَحْضًا سَقَوْا أَضْيَافَهُمْ شَبِمًا زُلَالَا

وَسُقِيَ بَعْضُ الْعَرَبِ فَقَالَ: أَنَا لَا أَشْرَبُ إِلَّا عَلَى ثَمِيلَةٍ، وَلِهَذَا قُدِّمَتْ آيَةُ الْمَطْعُومِ عَلَى آيَةِ الْمَشْرُوبِ.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[1]

﴿تُورُونَ﴾[2]: تَقْدَحُونَهَا وَتَسْتَخْرِجُونَهَا مِنَ الزِّنَادِ، وَالْعَرَبُ تَقْدَحُ بِعُودَيْنِ تَحُكُّ أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ، وَيُسَمُّونَ الْأَعْلَى: الزِّنْدَ، وَالْأَسْفَلَ: الزِّنْدَةَ، شَبَّهُوهُمَا بِالْفَحْلِ وَالطَّرُوقَةِ.

﴿شَجَرَتَهَا﴾[3] الَّتِي مِنْهَا الزِّنَادُ "تَذْكِرَةً" تَذْكِيرًا لِنَارِ جَهَنَّمَ، حَيْثُ عَلَّقْنَا بِهَا أَسْبَابَ الْمَعَايِشِ كُلَّهَا، وَعَمَّمْنَا بِالْحَاجَةِ إِلَيْهَا الْبَلْوَى لِتَكُونَ حَاضِرَةً لِلنَّاسِ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَيَذْكُرُونَ مَا أُوعِدُوا بِهِ. أَوْ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَأُنْمُوذَجًا مِنْ جَهَنَّمَ، لِمَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ بَنُو آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْأً مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ".

﴿وَمَتَاعًا﴾[4] وَمَنْفَعَةً "لِلْمُقْوِينَ" لِلَّذِينَ يَنْزِلُونَ الْقِوَاءَ وَهِيَ الْقَفْرُ. أَوْ لِلَّذِينَ خَلَتْ بُطُونُهُمْ أَوْ مَزَاوِدُهُمْ مِنَ الطَّعَامِ. يُقَالُ: أَقْوَيْتُ مِنْ أَيَّامٍ، أَيْ لَمْ آكُلْ شَيْئًا .

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[5]: فَأَحْدِثِ التَّسْبِيحَ بِذِكْرِ اسْمِ رَبِّكَ، أَوْ أَرَادَ بِالِاسْمِ: الذِّكْرَ، أَيْ: بِذِكْرِ رَبِّكَ.

وَ﴿الْعَظِيمِ﴾[6]: صِفَةٌ لِلْمُضَافِ أَوْ لِلْمُضَافِ إِلَيْهِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَمَّا ذُكِرَ مَا دَلَّ عَلَى قُدْرَتِهِ وَإِنْعَامِهِ عَلَى عِبَادِهِ قَالَ: فَأَحْدِثِ التَّسْبِيحَ؛ وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، إِمَّا تَنْزِيهًا لَهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الَّذِينَ يَجْحَدُونَ وَحْدَانِيَّتَهُ وَيَكْفُرُونَ نِعْمَتَهُ، وَإِمَّا تَعَجُّبًا مِنْ أَمْرِهِمْ فِي غَمْطِ آلَائِهِ وَأَيَادِيهِ الظَّاهِرَةِ، وَإِمَّا شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى النِّعَمِ الَّتِي عَدَّهَا وَنَبَّهَ عَلَيْهَا.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]

﴿فَلا أُقْسِمُ﴾[2]، مَعْنَاهُ: فَأُقْسِمُ.

وَلَا مَزِيدَةٌ مُؤَكِّدَةٌ مِثْلَهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾[3]]الْحَدِيدِ: 29].

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: "فَلَأُقْسِمُ". وَمَعْنَاهُ: فَلَأَنَا أُقْسِمُ: اللَّامُ لَامُ الِابْتِدَاءِ دَخَلَتْ عَلَى جُمْلَةٍ مِنْ مُبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ، وَهِيَ: أَنَا أُقْسِمُ، كَقَوْلِكَ: "لَزَيْدٌ مُنْطَلِقٌ"، ثُمَّ حُذِفَ الْمُبْتَدَأُ.

وَلَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ اللَّامُ لَامَ الْقَسَمِ لِأَمْرَيْنِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنَّ حَقَّهَا أَنْ يُقْرَنَ بِهَا النُّونُ الْمُؤَكِّدَةُ، وَالْإِخْلَالُ بِهَا ضَعِيفٌ قَبِيحٌ.

– وَالثَّانِي: أَنَّ "لَأَفْعَلَنَّ" فِي جَوَابِ الْقَسَمِ لِلِاسْتِقْبَالِ، وَفِعْلُ الْقَسَمِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْحَالِ.

﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[4] بِمَسَاقِطِهَا وَمَغَارِبِهَا، لَعَلَّ لِلَّهِ –تَعَالَى– فِي آخِرِ اللَّيْلِ إِذَا انْحَطَّتِ النُّجُومُ إِلَى الْمَغْرِبِ أَفْعَالًا مَخْصُوصَةً عَظِيمَةً، أَوْ لِلْمَلَائِكَةِ عِبَادَاتٌ مَوْصُوفَةٌ، أَوْ لِأَنَّهُ وَقْتُ قِيَامِ الْمُتَهَجِّدِينَ وَالْمُبْتَهِلِينَ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وَنُزُولِ الرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ عَلَيْهِمْ، فَلِذَلِكَ أَقْسَمَ بِمَوَاقِعِهَا، وَاسْتَعْظَمَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[5] أَوْ أَرَادَ بِمَوَاقِعِهَا: مَنَازِلَهَا وَمَسَايِرَهَا، وَلَهُ –تَعَالَى– فِي ذَلِكَ مِنَ الدَّلِيلِ عَلَى عَظِيمِ الْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ مَا لَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[6]: اعْتِرَاضٌ فِي اعْتِرَاضٍ، لِأَنَّهُ اعْتُرِضَ بِهِ بَيْنَ الْمُقْسَمِ وَالْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾[7]؛ وَاعْتُرِضَ بِـ ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾[8] بَيْنَ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

الْمَوْصُوفِ وَصِفَتِهِ.

وَقِيلَ: مَوَاقِعُ النُّجُومِ: أَوْقَاتُ وُقُوعِ نُجُومِ الْقُرْآنِ، أَيْ: أَوْقَاتُ نُزُولِهَا كَرِيمٌ حَسَنٌ مَرْضِيٌّ فِي جِنْسِهِ مِنَ الْكُتُبِ. أَوْ نَفَّاعٌ جَمُّ الْمَنَافِعِ. أَوْ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ.

﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾[1]: مَصُونٌ مِنْ غَيْرِ الْمُقَرَّبِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ مَنْ سِوَاهُمْ، وَهُمُ الْمُطَهَّرُونَ مِنْ جَمِيعِ الْأَدْنَاسِ أَدْنَاسِ الذُّنُوبِ وَمَا سِوَاهَا؛ إِنْ جَعَلْتَ الْجُمْلَةَ صِفَةً لِكِتَابٍ مَكْنُونٍ وَهُوَ اللَّوْحُ.

وَإِنْ جَعَلْتَهَا صِفَةً لِلْقُرْآنِ، فَالْمَعْنَى: لَا يَنْبَغِي أَنْ يَمَسَّهُ إِلَّا مَنْ هُوَ عَلَى الطَّهَارَةِ مِنَ النَّاسِ، يَعْنِي مَسَّ الْمَكْتُوبِ مِنْهُ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى الْقِرَاءَةِ أَيْضًا، وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ: أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ لَا يَقْرَأَ إِلَّا وَهُوَ طَاهِرٌ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ كَانَ يُبِيحُ الْقِرَاءَةَ لِلْجُنُبِ، وَنَحْوَهُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ"، أَيْ: لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَظْلِمَهُ أَوْ يُسْلِمَهُ.

وَقُرِئَ: الْمُتَطَهِّرُونَ، وَ"الْمُطَّهَّرُونَ" بِالْإِدْغَامِ.

وَ﴿الْمُطْهَرُونَ﴾[2] مِنْ أَطْهَرَهُ بِمَعْنَى طَهَّرَهُ. وَالْمُطَهَّرُونَ بِمَعْنَى: يُطَهِّرُونَ أَنْفُسَهُمْ أَوْ غَيْرَهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ وَالْوَحْيِ الَّذِي يُنْزِلُونَهُ ﴿تَنْزِيلٌ﴾[3] صِفَةٌ رَابِعَةٌ لِلْقُرْآنِ، أَيْ: مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أَوْ وَصْفٌ بِالْمَصْدَرِ، لِأَنَّهُ نُزِّلَ نُجُومًا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ كُتُبِ اللَّهِ -تَعَالَى-، فَكَأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ تَنْزِيلٌ، وَلِذَلِكَ جَرَى مَجْرَى بَعْضِ أَسْمَائِهِ، فَقِيلَ: جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ كَذَا، وَنَطَقَ بِهِ التَّنْزِيلُ. أَوْ هُوَ تَنْزِيلٌ عَلَى حَرْفِ الْمُبْتَدَأِ. وَقُرِئَ: "تَنْزِيلًا" عَلَى: نَزَّلَ تَنْزِيلًا.

---

8 سورة ، الآية .

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1]

﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ﴾[2]، يَعْنِي: الْقُرْآنَ.

﴿أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾[3]، أَيْ: مُتَهَاوِنُونَ بِهِ، كَمَنْ يَدْهَنُ فِي الْأَمْرِ، أَيْ يُلِينُ جَانِبَهُ وَلَا يَتَصَلَّبُ فِيهِ تَهَاوُنًا بِهِ.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[4] عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ، يَعْنِي: وَتَجْعَلُونَ شُكْرَ رِزْقِكُمُ التَّكْذِيبَ، مَوْضِعَ الشُّكْرِ.

وَقَرَأَ عَلِيٌّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ".

وَقِيلَ: هِيَ قِرَاءَةُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–. وَالْمَعْنَى: وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ لِنِعْمَةِ الْقُرْآنِ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ بِهِ.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْأَنْوَاءِ وَنِسْبَتِهُمُ السُّقْيَا إِلَيْهَا.

وَالرِّزْقُ: الْمَطَرُ، يَعْنِي: وَتَجْعَلُونَ شُكْرَ مَا يَرْزُقُكُمُ اللَّهُ مِنَ الْغَيْثِ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ بِكَوْنِهِ مِنَ اللَّهِ، حَيْثُ تَنْسُبُونَهُ إِلَى النُّجُومِ.

وَقُرِئَ: "تَكْذِبُونَ" وَهُوَ قَوْلُهُمْ فِي الْقُرْآنِ: شِعْرٌ وَسِحْرٌ وَافْتِرَاءٌ.

وَفِي الْمَطَرِ: وَهُوَ مِنَ الْأَنْوَاءِ، وَلِأَنَّ كُلَّ مُكَذِّبٍ بِالْحَقِّ كَاذِبٌ.

﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَكَ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[1]

تَرْتِيبُ الْآيَةِ: فَلَوْلَا تَرْجِعُونَهَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ.

وَ﴿فَلَوْلَا﴾[2] الثَّانِيَةُ مُكَرَّرَةٌ لِلتَّوْكِيدِ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾[3] لِلنَّفْسِ، وَهِيَ الرُّوحُ، وَفِي ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾[4] لِلْمُحْتَضِرِ.

﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾[5] غَيْرَ مَرْبُوبِينَ، مِنْ دَانَ السُّلْطَانُ الرَّعِيَّةَ إِذَا سَاسَهُمْ.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾[6] يَا أَهْلَ الْمَيِّتِ بِقُدْرَتِنَا وَعِلْمِنَا، أَوْ بِمَلَائِكَةِ الْمَوْتِ.

وَالْمَعْنَى: إِنَّكُمْ فِي جُحُودِكُمْ أَفْعَالَ اللَّهِ –تَعَالَى– وَآيَاتِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِنْ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ كِتَابًا مُعْجِزًا قُلْتُمْ: سِحْرٌ وَافْتِرَاءٌ. وَإِنْ أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ رَسُولًا قُلْتُمْ: سَاحِرٌ كَذَّابٌ، وَإِنْ رَزَقَكُمْ مَطَرًا يُحْيِيكُمْ بِهِ قُلْتُمْ: صَدَقَ نَوْءُ كَذَا، عَلَى مَذْهَبٍ يُؤَدِّي إِلَى الْإِهْمَالِ وَالتَّعْطِيلِ فَمَا لَكُمَ لَا تَرْجِعُونَ الرُّوحَ إِلَى الْبَدَنِ بَعْدَ بُلُوغِهِ الْحُلْقُومَ إِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ قَابِضٌ وَكُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي تَعْطِيلِكُمْ وَكُفْرِكُمْ بِالْمُحْيِي الْمُمِيتِ الْمُبْدِئِ الْمُعِيدِ.

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾[7] الْمُتَوَفَّى ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[8] مِنَ السَّابِقِينَ مِنَ الْأَزْوَاجِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، ﴿فَرَوْحٌ﴾[9] فَلَهُ اسْتِرَاحَةٌ.

وَرَوَتْ عَائِشَةُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "فَرُوحٌ" بِالضَّمِّ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

وَقَرَأَ بِهِ الْحَسَنُ وَقَالَ: الرُّوحُ الرَّحْمَةُ، لِأَنَّهَا كَالْحَيَاةِ لِلْمَرْحُومِ.

وَقِيلَ: الْبَقَاءُ، أَيْ: فَهَذَانِ لَهُ مَعًا، وَهُوَ الْخُلُودُ مَعَ الرِّزْقِ وَالنَّعِيمِ.

وَالرَّيْحَانُ: الرِّزْقُ .

﴿فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾[1]: فَسَلَامٌ لَكَ يَا صَاحِبَ الْيَمِينِ مِنْ إِخْوَانِكَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، أَيْ: يُسَلِّمُونَ عَلَيْكَ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِلا قِيلا سَلامًا سَلامًا﴾[2]الْوَاقِعَةِ: 26 . .]

﴿فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾[3] كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾[4]]الْوَاقِعَةِ: 56].

وَقُرِئَ بِالتَّخْفِيفِ.

"وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ" قُرِئَتْ بِالرَّفْعِ وَالْجَرِّ عَطْفًا عَلَى نُزُلٌ وَحَمِيمٌ.

﴿إِنَّ هَذَا﴾[5] الَّذِي أُنْزِلَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾[6]، أَيِ الْحَقُّ الثَّابِتُ مِنَ الْيَقِينِ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبَدًا".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

سورة الرحمن

سورة الرحمن

مَدَنِيَّةٌ،
وَهِيَ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً
نَزَلَتْ بَعْدَ [الزَّلْزَلَةِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارِ فِي اللَّيْلَ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1]

جَاءَ فِي بَعْضِ الْفَوَاتِحِ ﴿سَبَّحَ﴾[2] عَلَى لَفْظِ الْمَاضِي، وَفِي بَعْضِهَا عَلَى لَفْظِ الْمُضَارِعِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، مَعْنَاهُ: أَنَّ مِنْ شَأْنِ مَنْ أُسْنِدَ إِلَيْهِ التَّسْبِيحُ أَنْ يُسَبِّحَهُ، وَذَلِكَ هَجِيرَاهُ وَدَيْدَنَهُ، وَقَدْ عُدِّي هَذَا الْفِعْلُ بِاللَّامِ تَارَةً وَبِنَفْسِهِ أُخْرَى فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾[1].

وَأَصْلُهُ: التَّعَدِّي بِنَفْسِهِ، لِأَنَّ مَعْنَى سَبَّحْتُهُ: بَعَّدْتُهُ عَنِ السُّوءِ، مَنْقُولٌ مِنْ سَبَحَ إِذَا ذَهَبَ وَبَعُدَ، فَاللَّامُ لَا تَخْلُو إِمَّا أَنْ تَكُونَ مِثْلَ اللَّامِ فِي: نَصَحْتُهُ، وَنَصَحْتُ لَهُ، وَإِمَّا أَنْ يُرَادَ بِسَبَّحَ لِلَّهِ: أَحْدِثِ التَّسْبِيحَ لِأَجْلِ اللَّهِ وَلِوَجْهِهِ خَالِصًا.

﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2]: مَا يَتَأَتَّى مِنْهُ التَّسْبِيحُ وَيَصِحُّ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَحَلُّ ﴿يُحْيِي﴾[3]؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ مَحَلٌّ، وَيَكُونُ جُمْلَةً بِرَأْسِهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾[4]]الْبَقَرَةِ: 1077].

وَأَنْ يَكُونَ مَرْفُوعًا عَلَى: هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَمَنْصُوبًا حَالًا مِنَ الْمَحْرُورِ فِي ﴿لَهُ﴾[5] وَالْجَارُّ عَامِلًا فِيهَا.

وَمَعْنَاهُ: يُحْيِي النُّطَفَ وَالْبَيْضَ وَالْمَوْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُمِيتُ الْأَحْيَاءَ.

﴿هُوَ الأَوَّلُ﴾[6] هُوَ الْقَدِيمُ الَّذِي كَانَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، ﴿وَالآخِرُ﴾[7] الَّذِي يَبْقَى بَعْدَ هَلَاكِ كُلِّ شَيْءٍ، ﴿وَالظَّاهِرُ﴾[8] بِالْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ، ﴿وَالْبَاطِنُ﴾[9] لِكَوْنِهِ غَيْرَ مُدْرَكٍ بِالْحَوَاسِّ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى الْوَاوِ؟

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

قُلْتُ: الْوَاوُ الْأُولَى مَعْنَاهَا الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُ الْجَامِعُ بَيْنَ الصِّفَتَيْنِ الْأَوَّلِيَّةِ وَالْآخِرِيَّةِ، وَالثَّالِثَةُ عَلَى أَنَّهُ الْجَامِعُ بَيْنَ الظُّهُورِ وَالْخَفَاءِ. وَأَمَّا الْوُسْطَى، فَعَلَى أَنَّهُ الْجَامِعُ بَيْنَ مَجْمُوعِ الصِّفَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ وَمَجْمُوعِ الصِّفَتَيْنِ الْآخِرِيَّيْنِ، فَهُوَ الْمُسْتَمِرُّ الْوُجُودِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ، وَهُوَ فِي جَمِيعِهَا ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ: جَامِعٌ لِلظُّهُورِ بِالْأَدِلَّةِ وَالْخَفَاءِ، فَلَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ.

وَفِي هَذَا حُجَّةٌ عَلَى مَنْ جَوَّزَ إِدْرَاكَهُ فِي الْآخِرَةِ بِالْحَاسَّةِ.

وَقِيلَ: الظَّاهِرُ الْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْغَالِبُ لَهُ، مِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِ إِذَا عَلَاهُ وَغَلَبَهُ. وَالْبَاطِنُ الَّذِي بَطَنَ كُلَّ شَيْءٍ، أَيْ عَلِمَ بَاطِنَهُ: وَلَيْسَ بِذَاكَ مَعَ الْعُدُولِ عَنِ الظَّاهِرِ الْمَفْهُومِ.

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[1]

﴿مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[2]، يَعْنِي: أَنَّ الْأَمْوَالَ الَّتِي فِي أَيْدِيكُمْ إِنَّمَا هِيَ أَمْوَالُ اللَّهِ بِخَلْقِهِ وَإِنْشَائِهِ لَهَا، وَإِنَّمَا مَوَّلَكُمْ إِيَّاهَا، وَخَوَّلَكُمُ الِاسْتِمْتَاعَ بِهَا، وَجَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ فِي التَّصَرُّفِ فِيهَا، فَلَيْسَتْ هِيَ بِأَمْوَالِكُمْ فِي الْحَقِيقَةِ. وَمَا أَنْتُمْ فِيهَا إِلَّا بِمَنْزِلَةِ الْوُكَلَاءِ وَالنُّوَّابِ، فَأَنْفِقُوا مِنْهَا فِي حُقُوقِ اللَّهِ، وَلْيَهُنْ عَلَيْكُمُ الْإِنْفَاقُ مِنْهَا كَمَا يَهُونُ عَلَى الرَّجُلِ النَّفَقَةُ مِنْ مَالِ غَيْرِهِ إِذَا أَذِنَ لَهُ فِيهِ. أَوْ جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فِيمَا فِي أَيْدِيكُمْ: بِتَوْرِيثِهِ إِيَّاكُمْ، فَاعْتَبِرُوا بِحَالِهِمْ حَيْثُ انْتَقَلَ مِنْهُمْ إِلَيْكُمْ، وَسَيُنْقَلُ مِنْكُمْ إِلَى مَنْ بَعْدَكُمْ، فَلَا تَبْخَلُوا بِهِ، وَانْفَعُوا بِالْإِنْفَاقِ مِنْهَا أَنْفُسَكُمْ.

﴿لَا تُؤْمِنُونَ﴾[3]: حَالٌ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ فِي مَالِكُمْ، كَمَا تَقُولُ: مَا لَكَ قَائِمًا، بِمَعْنَى: مَا تَصْنَعُ قَائِمًا، أَيْ: وَمَا لَكُمْ كَافِرِينَ بِاللَّهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَالْوَاوُ فِي ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾[1] وَاوُ الْحَالِ، فَهُمَا حَالَانِ مُتَدَاخِلَتَانِ.

وَقُرِئَ: "وَمَا لَكَمَ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ".

وَالْمَعْنَى: وَأَيُّ عُذْرٍ لَكُمْ فِي تَرْكِ الْإِيمَانِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ وَيُنَبِّهُكُمْ عَلَيْهِ وَيَتْلُو عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ النَّاطِقَ بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ، وَقِيلَ ذَلِكَ قَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَكُمْ بِالْإِيمَانِ: حَيْثُ رَكَّبَ فِيكُمُ الْعُقُولَ، وَنَصَبَ لَكُمُ الْأَدِلَّةَ، وَمَكَّنَكُمْ مِنَ النَّظَرِ، وَأَزَاحَ عِلَلَكُمْ، فَإِذْ لَمْ تَبْقَ لَكُمْ عِلَّةٌ بَعْدَ أَدِلَّةِ الْعُقُولِ وَتَنْبِيهِ الرَّسُولِ، فَمَا لَكَمَ لَا تُؤْمِنُونَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2] لِمُوجِبٍ مَا، فَإِنَّ هَذَا الْمُوجِبَ لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ.

وَقُرِئَ: "أُخِذَ مِيثَاقُكُمْ" عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، وَهُوَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–.

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[3]

﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾[4] اللَّهُ بِآيَاتِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ. أَوْ لِيُخْرِجَكُمُ الرَّسُولُ بِدَعْوَتِهِ.

﴿لَرَءُوفٌ﴾[5]، وَقُرِئَ: "لَرَءُوفٌ".

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[6]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿وَمَا لَكُمْ أَلا تُنْفِقُوا﴾[1] فِي أَنْ لَا تُنْفِقُوا.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2] يَرِثُ كُلَّ شَيْءٍ فِيهِمَا لَا يَبْقَى مِنْهُ بَاقٍ لِأَحَدٍ مِنْ مَالٍ وَغَيْرِهِ، يَعْنِي: وَأَيُّ غَرَضٍ لَكُمْ فِي تَرْكِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْجِهَادِ مَعَ رَسُولِهِ وَاللَّهُ مُهْلِكُكُمْ فَوَارِثٌ أَمْوَالَكُمْ، وَهُوَ مِنْ أَبْلَغِ الْبَعْثِ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

ثُمَّ بَيَّنَ التَّفَاوُتَ بَيْنَ الْمُنْفِقِينَ مِنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ﴾[3] قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ قَبْلَ عِزِّ الْإِسْلَامِ وَقُوَّةِ أَهْلِهِ وَدُخُولِ النَّاسِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا وَقِلَّةِ الْحَاجَةِ إِلَى الْقِتَالِ وَالنَّفَقَةِ فِيهِ، وَمَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِ الْفَتْحِ فَحُذِفَ لِوُضُوحِ الدَّلَالَةِ.

﴿أُولَئِكَ﴾[4] الَّذِي أَنْفَقُوا قَبْلَ الْفَتْحِ وَهُمُ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ" أَعْظَمُ دَرَجَةً.

وَقُرِئَ: "قَبْلَ الْفَتْحِ".

﴿وَكُلًّا﴾[5]: وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾[6]، أَيِ: الْمَثُوبَةَ الْحُسْنَى، وَهِيَ الْجَنَّةُ مَعَ تَفَاوُتِ الدَّرَجَاتِ.

وَقُرِئَ: بِالرَّفْعِ عَلَى "وَكُلٌّ وَعَدَهُ اللَّهُ".

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ وَأَوَّلُ مَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

الْقَرْضُ الْحَسَنُ: الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِهِ. شَبَّهَ ذَلِكَ بِالْقَرْضِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ، لِأَنَّهُ إِذَا أَعْطَى مَالَهُ لِوَجْهِهِ فَكَأَنَّهُ أَقْرَضَهُ إِيَّاهُ ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾[1]، أَيْ: يُعْطِيَهِ أَجْرَهُ عَلَى إِنْفَاقِهِ مُضَاعَفًا "أَضْعَافًا" مِنْ فَضْلِهِ.

﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[2]، يَعْنِي: وَذَلِكَ الْأَجْرُ الْمَضْمُومُ إِلَيْهِ الْأَضْعَافُ كَرِيمٌ فِي نَفْسِهِ.

وَقُرِئَ: "فَيُضْعِفَهُ" وَقُرِئَا مَنْصُوبَيْنِ عَلَى جَوَابِ الِاسْتِفْهَامِ، وَالرَّفْعُ عَطْفٌ عَلَى "يُقْرِضُ"، أَوْ عَلَى: فَهُوَ يُضَاعِفُهُ.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[3]

﴿يَوْمَ تَرَى﴾[4]: ظَرْفٌ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[5] أَوْ مَنْصُوبٌ بِإِضْمَارِ "اذْكُرْ" تَعْظِيمًا لِذَلِكَ الْيَوْمِ.

وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾[6]، لِأَنَّ السُّعَدَاءَ يُؤْتَوْنَ صَحَائِفَ أَعْمَالِهِمْ مِنْ هَاتَيْنِ الْجِهَتَيْنِ، كَمَا أَنَّ الْأَشْقِيَاءَ يُؤْتَوْنَهَا مِنْ شَمَائِلِهِمْ وَمِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ، فَجَعَلَ النُّورَ فِي الْجِهَتَيْنِ شِعَارًا لَهُمْ وَآيَةً، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ بِحَسَنَاتِهِمْ سُعِدُوا وَبِصَحَائِفِهِمُ الْبِيضِ أَفْلَحُوا، فَإِذَا ذُهِبَ بِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَمَرُّوا عَلَى الصِّرَاطِ يَسْعَوْنَ: سَعَى بِسَعْيِهِمْ ذَلِكَ النُّورُ جَنِيبًا لَهُمْ وَمُتَقَدِّمًا. وَيَقُولُ لَهُمُ الَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾[7].

وَقُرِئَ: "ذَلِكَ الْفَوْزُ".

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[1]

﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾[2] بَدَلٌ مِنْ يَوْمَ تُرَى "انْظُرُونَا" انْتَظِرُونَا، لِأَنَّهُمْ يُسْرَعُ بِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ كَالْبُرُوقِ الْخَاطِفَةِ عَلَى رِكَابٍ تُزَفُّ بِهِمْ. وَهَؤُلَاءِ مُشَاةٌ.

وَانْظُرُوا إِلَيْنَا، لِأَنَّهُمْ إِذَا نَظَرُوا إِلَيْهِمُ اسْتَقْبَلُوهُمْ بِوُجُوهِهِمْ وَالنُّورُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فَيَسْتَضِيئُونَ بِهِ.

وَقُرِئَ: "أَنظِرُونَا" مِنَ النَّظِرَةِ، وَهِيَ الْإِمْهَالُ: جَعَلَ اتِّئَادَهُمْ فِي الْمُضِيِّ إِلَى أَنْ يُلْحِقُوا بِهِمْ إِنْظَارًا لَهُمْ.

﴿نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾[3] نُصِبَ مِنْهُ، وَذَلِكَ أَنْ يَلْحَقُوا بِهِمْ فَيَسْتَنِيرُوا بِهِ.

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾[4] طَرْدٌ لَهُمْ وَتَهَكُّمٌ بِهِمْ، أَيِ: ارْجِعُوا إِلَى الْمَوْقِفِ إِلَى حَيْثُ أُعْطِينَا هَذَا النُّورَ فَالْتَمِسُوهُ هُنَالِكَ، فَمِنْ ثَمَّ يُقْتَبَسُ. أَوِ ارْجِعُوا إِلَى الدُّنْيَا، فَالْتَمِسُوا نُورًا بِتَحْصِيلِ سَبَبِهِ وَهُوَ الْإِيمَانُ. أَوِ ارْجِعُوا خَائِبِينَ وَتَنَحَّوْا عَنَّا، فَالْتَمِسُوا نُورًا آخَرَ، فَلَا سَبِيلَ لَكُمْ إِلَى هَذَا النُّورِ، وَقَدْ عَلِمُوا أَنْ لَا نُورَ وَرَاءَهُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ تَخْيِيبٌ وَإِقْنَاطٌ لَهُمْ.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ﴾[5] بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ بِحَائِطٍ حَائِلٍ بَيْنَ شِقِّ الْجَنَّةِ وَشَقِّ النَّارِ. وَقِيلَ: هُوَ الْأَعْرَافُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

لِذَلِكَ السُّورِ ﴿بَابٌ﴾[1] لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُونَ مِنْهُ.

﴿بَاطِنُهُ﴾[2]: بَاطِنُ السُّورِ أَوِ الْبَابِ، وَهُوَ الشِّقُّ الَّذِي يَلِي الْجَنَّةَ.

﴿وَظَاهِرُهُ﴾[3]: مَا ظَهَرَ لِأَهْلِ النَّارِ.

﴿مِنْ قِبَلِهِ﴾: مِنْ عِنْدِهِ وَمِنْ جِهَتِهِ.

﴿الْعَذَابُ﴾[4]، وَهُوَ الظُّلْمَةُ وَالنَّارُ.

وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: "فَضَرَبَ بَيْنَهُمْ" عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ.

﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾[5]: يُرِيدُونَ مُوَافَقَتَهُمْ فِي الظَّاهِرِ.

﴿فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾[6]: مَحَنْتُمُوهَا بِالنِّفَاقِ وَأَهْلَكْتُمُوهَا، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾[7] بِالْمُؤْمِنِينَ الدَّوَائِرَ.

﴿وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ﴾[8]: طُولُ الْآمَالِ وَالطَّمَعُ فِي امْتِدَادِ الْأَعْمَارِ، ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾[9]، وَهُوَ الْمَوْتُ؛ ﴿وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[10]: وَغَرَّكُمُ الشَّيْطَانُ بِأَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ كَرِيمٌ لَا يُعَذِّبُكُمْ.

وَقُرِئَ: "الْغُرُورُ" بِالضَّمِّ.

﴿فِدْيَةٌ﴾: مَا يُفْتَدَى بِهِ.

﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾[11]، قِيلَ: هِيَ أَوْلَى بِكُمْ، وَأَنْشَدَ قَوْلَ لَبِيدٍ:

فَغَدَتْ كِلَا الْفَرْجَيْنِ تَحْسَبُ أَنَّهُ مُولِي الْمَخَافَةَ خَلْفَهَا وَأَمَامَهَا

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .
[10] سورة ، الآية .
[11] سورة ، الآية .

وَحَقِيقَةُ مَوْلَاكُمْ: مِحْرَاكُمْ وَمِقْمِنُكُمْ، أَيْ: مَكَانُكُمُ الَّذِي يُقَالُ فِيهِ هُوَ أَوْلَى بِكُمْ، كَمَا قِيلَ: هُوَ مَبِنَّةٌ لِلْكَرَمِ، أَيْ: مَكَانٌ، لِقَوْلِ الْقَائِلِ: إِنَّهُ لَكَرِيمٌ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: هِيَ نَاصِرُكُمْ، أَيْ لَا نَاصِرَ لَكُمْ غَيْرُهَا.

وَالْمُرَادُ: نَفْيُ النَّاصِرِ عَلَى الْبَتَاتِ. وَنَحْوَهُ قَوْلُهُمْ: أُصِيبَ فُلَانٌ بِكَذَا فَاسْتَنْصَرَ الْجَزَعَ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾[1]]الْكَهْفِ: 29].

وَقِيلَ: تَتَوَلَّاكُمْ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ فِي الدُّنْيَا أَعْمَالَ أَهْلِ النَّارِ.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[2]

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾[3] مِنْ أَنَى الْأَمْرُ يَأْنِي، إِذَا جَاءَ إِنَاهُ، أَيْ: وَقْتُهُ. وَقُرِئَ: "أَلَمْ يَئِنْ" مِنْ آنَ يَئِينُ بِمَعْنَى: أَنَى يَأْنَى، وَأَلَمَّا يَأْنِ، قِيلَ: كَانُوا مُجْدِبِينَ بِمَكَّةَ، فَلَمَّا هَاجَرُوا أَصَابُوا الرِّزْقَ وَالنِّعْمَةَ فَفَتَرُوا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، فَنَزَلَتْ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عُوتِبَنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ–: إِنَّ اللَّهَ اسْتَبْطَأَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ فَعَاتَبَهُمْ عَلَى رَأْسِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ مِنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدِ اسْتَبْطَأَهُمْ، وَهُمْ يَقْرَءُونَ مِنَ الْقُرْآنِ أَقَلَّ مِمَّا تَقْرَءُونَ. فَانْظُرُوا فِي طُولِ مَا قَرَأْتُمْ مِنْهُ وَمَا ظَهَرَ فِيكُمْ مِنَ الْفِسْقِ.

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ قُرِئَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَعِنْدَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، فَبَكَوْا بُكَاءً شَدِيدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: هَكَذَا كُنَّا حَتَّى قَسَتِ الْقُلُوبُ.

وَقُرِئَ: نَزَّلَ وَنَزَلَ. وَأَنْزَلَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿وَلَا يَكُونُوا﴾[1] عُطِفَ عَلَى تَخْشَعَ، وَقُرِئَ بِالتَّاءِ عَلَى الِالْتِفَاتِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَهْيًا لَهُمْ عَنْ مُمَاثَلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي قَسْوَةِ الْقُلُوبِ بَعْدَ أَنْ وُبِّخُوا.

وَذَلِكَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الْحَقُّ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهِمْ، وَإِذَا سَمِعُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ خَشَعُوا لِلَّهِ وَرَقَّتْ قُلُوبُهُمْ.

فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الزَّمَانُ، غَلَبَهُمُ الْجَفَاءُ وَالْقَسْوَةُ وَاخْتَلَفُوا وَأَحْدَثُوا مَا أَحْدَثُوا مِنَ التَّحْرِيفِ وَغَيْرِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى: ﴿لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾[2]؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالذِّكْرِ وَبِمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ: الْقُرْآنُ، لِأَنَّهُ جَامِعٌ لِلْأَمْرَيْنِ: لِلذِّكْرِ وَالْمَوْعِظَةِ، وَأَنَّهُ حَقٌّ نَازِلٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَأَنْ يُرَادَ خُشُوعُهَا إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَإِذَا تُلِيَ الْقُرْآنُ كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[3] أَرَادَ بِالْأَمَدِ: الْأَجَلُ، كَقَوْلِهِ:

.....إِذَا انْتَهَى أَمَدُهْ

وَقُرِئَ: "الْأَمَدُّ"، أَيِ: الْوَقْتُ الْأَطْوَلُ.

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[4]: خَارِجُونَ عَنْ دِينِهِمْ رَافِضُونَ لِمَا فِي الْكِتَابَيْنِ.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5]

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[6]، قِيلَ: هَذَا تَمْثِيلٌ لِأَثَرِ الذِّكْرِ فِي الْقُلُوبِ، وَأَنَّهُ يُحْيِيهَا كَمَا يُحْيِي الْغَيْثُ الْأَرْضَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[1]

﴿الْمُصَّدِّقِينَ﴾[2]: الْمُتَصَدِّقِينَ. وَقُرِئَ عَلَى الْأَصْلِ.

وَالْمُصَدِّقِينَ: مَنْ صَدَّقَ، وَهُمُ الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَعْنِي: الْمُؤْمِنِينَ.

فَإِنْ قُلْتَ: عَلَامَ عَطَفَ قَوْلَهُ: ﴿وَأَقْرَضُوا﴾[3]؟

قُلْتُ: عَلَى مَعْنَى الْفِعْلِ فِي الْمُصَّدِّقِينَ، لِأَنَّ اللَّامَ بِمَعْنَى الَّذِينَ، وَاسْمُ الْفَاعِلِ بِمَعْنَى اصَّدَّقُوا، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّ الَّذِينَ اصَّدَّقُوا وَأَقْرَضُوا.

وَالْقَرْضُ الْحَسَنُ: أَنْ يُتَصَدَّقَ مِنَ الطَّيِّبِ عَنْ طِيبَةِ النَّفْسِ وَصِحَّةِ النِّيَّةِ عَلَى الْمُسْتَحِقِّ لِلصَّدَقَةِ.

وَقُرِئَ: "يُضْعِفُ" وَيُضَاعِفُ، بِكَسْرِ الْعَيْنِ، أَيْ: يُضَاعِفُ اللَّهُ.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[4]

يُرِيدُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ هُمْ عِنْدَ اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ، وَهُمُ الَّذِي سَبَقُوا إِلَى التَّصْدِيقِ وَاسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾[5]، أَيْ: مِثْلُ أَجْرِ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَمِثْلُ نُورِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُسَوِّي بَيْنَهُمْ فِي الْأَجْرِ وَلَا بُدَّ مِنَ التَّفَاوُتِ؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

قُلْتُ: الْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْمُؤْمِنِينَ أَجْرَهُمْ وَيُضَاعِفُهُ لَهُمْ بِفَضْلِهِ، حَتَّى يُسَاوِيَ أَجْرُهُمْ مَعَ إِضْعَافِهِ أَجْرَ أُولَئِكَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ: ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾[1] مُبْتَدَأً. وَ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾[2] خَبَرُهُ.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ
وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا
وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ
وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[3]

أَرَادَ أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ إِلَّا مُحَقَّرَاتٍ مِنَ الْأُمُورِ وَهِيَ اللُّعَبُ وَاللَّهْوُ وَالزِّينَةُ وَالتَّفَاخُرُ وَالتَّكَاثُرُ. وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَمَا هِيَ إِلَّا أُمُورٌ عِظَامٌ، وَهِيَ: الْعَذَابُ الشَّدِيدُ وَالْمَغْفِرَةُ وَرِضْوَانُ اللَّهِ. وَشَبَّهَ حَالَ الدُّنْيَا وَسُرْعَةَ تَقَضِّيهَا مَعَ قِلَّةِ جَدْوَاهَا بِنَبَاتٍ أَنْبَتَهُ الْغَيْثُ. فَاسْتَوَى وَاكْتَهَلَ وَأُعْجِبَ بِهِ الْكُفَّارُ الْجَاحِدُونَ لِنِعْمَةِ اللَّهِ فِيمَا رَزَقَهُمْ مِنَ الْغَيْثِ وَالنَّبَاتِ، نَبْعَثُ عَلَيْهِ الْعَاهَةَ فَهَاجَ وَاصْفَرَّ وَصَارَ حُطَامًا عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى جُحُودِهِمْ، كَمَا فُعِلَ بِأَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَصَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ.

وَقِيلَ: "الْكُفَّارُ" الزُّرَّاعُ. وَقُرِئَ: "مُصْفَارًّا".

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ
آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[4]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿سَابِقُوا﴾[1] سَارِعُوا مُسَارَعَةَ الْمُسَابِقِينَ لِأَقْرَانِهِمْ فِي الْمِضْمَارِ، إِلَى جَنَّةٍ ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[2].

قَالَ السُّدِّيُّ: كَعَرْضِ سَبْعِ السَّمَوَاتِ وَسَبْعِ الْأَرْضِينَ، وَذَكَرَ الْعَرْضَ دُونَ الطُّولِ، لِأَنَّ كُلَّ مَا لَهُ عَرْضٌ وَطُولٌ فَإِنَّ عَرْضَهُ أَقَلُّ مِنْ طُولِهِ، فَإِذَا وُصِفَ عَرْضُهُ بِالْبَسْطَةِ، عُرِفَ أَنَّ طُولَهُ أَبْسَطُ وَأَمَدُّ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْعَرْضِ: الْبَسْطَةُ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾[3]]فُصِّلَتْ: 511].

لَمَّا حَقَّرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَ أَمْرَهَا وَعَظَّمَ أَمْرَ الْآخِرَةِ: بَعَثَ عِبَادَهُ عَلَى الْمُسَارَعَةِ إِلَى نَيْلِ مَا وَعَدَ مِنْ ذَلِكَ، وَهِيَ الْمَغْفِرَةُ الْمُنْجِيَةُ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ وَالْفَوْزُ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ.

﴿ذَلِكَ﴾[4] الْمَوْعُودُ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالْجَنَّةِ ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾[5] عَطَاؤُهُ ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[6]، وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[7]

الْمُصِيبَةُ فِي الْأَرْضِ: نَحْوَ الْجَدْبِ وَآفَاتِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ. وَفِي الْأَنْفُسِ: نَحْوَ الْأَدْوَاءِ وَالْمَوْتِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿ فِي كِتَابٍ﴾[1] فِي اللَّوْحِ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾[2]، يَعْنِي الْأَنْفُسَ أَوِ الْمَصَائِبَ.

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾[3]: إِنَّ تَقْدِيرَ ذَلِكَ وَإِثْبَاتَهُ فِي كِتَابٍ، ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[4] وَإِنْ كَانَ عَسِيرًا عَلَى الْعِبَادِ.

ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ وَبَيَّنَ الْحِكْمَةَ فِيهِ، فَقَالَ: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا...وَلا تَفْرَحُوا﴾[5]، يَعْنِي: أَنَّكُمْ إِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُقَدَّرٌ مَكْتُوبٌ عِنْدَ اللَّهِ قَلَّ أَسَاكُمْ عَلَى الْفَائِتِ وَفَرَحُكُمْ عَلَى الْآتِي، لِأَنَّ مِنْ عَلِمَ أَنَّ مَا عِنْدَهُ مَعْقُودٌ لَا مَحَالَةَ: لَمْ يَتَفَاقَمْ جَزَعُهُ عِنْدَ فَقْدِهِ، لِأَنَّهُ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ مَنْ عَلِمَ أَنَّ بَعْضَ الْخَيْرِ وَاصِلٌ إِلَيْهِ، وَأَنَّ وُصُولَهُ لَا يَفُوتُهُ بِحَالٍ: لَمْ يَعْظُمْ فَرَحُهُ عِنْدَ نَيْلِهِ.

﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[6]، لِأَنَّ مَنْ فَرِحَ بِحَظٍّ مِنَ الدُّنْيَا وَعَظُمَ فِي نَفْسِهِ: اخْتَالَ وَافْتَخَرَ بِهِ وَتَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ.

قُرِئَ: ﴿بِمَا آتَاكُمْ﴾[7] وَأَتَاكُمْ، مِنَ الْإِيتَاءِ وَالْإِتْيَانِ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: "بِمَا أُوتِيتُمْ".

فَإِنْ قُلْتَ: فَلَا أَحَدٌ يَمْلِكُ نَفْسَهُ، عِنْدَ مَضَرَّةٍ تَنْزِلُ بِهِ، وَلَا عِنْدَ مَنْفَعَةٍ يَنَالُهَا أَنْ لَا يَحْزَنَ وَلَا يَفْرَحَ.

قُلْتُ: الْمُرَادُ: الْحُزْنُ الْمُخْرِجُ إِلَى مَا يُذْهِلُ صَاحِبَهُ عَنِ الصَّبْرِ وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَجَاءِ ثَوَابِ الصَّابِرِينَ، وَالْفَرَحَ الْمُطْغِي الْمُلْهِي عَنِ الشُّكْرِ، فَأَمَّا الْحُزْنُ الَّذِي لَا يَكَادُ الْإِنْسَانُ يَخْلُو مِنْهُ مَعَ الِاسْتِسْلَامِ، وَالسُّرُورُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَالِاعْتِدَادُ بِهَا مَعَ الشُّكْرِ: فَلَا بَأْسَ بِهِمَا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾[1] بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[2]، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا يُحِبُّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ، يُرِيدُ: الَّذِينَ يَفْرَحُونَ الْفَرَحَ الْمُطْغِي إِذَا رُزِقُوا مَالًا وَحَظًّا مِنَ الدُّنْيَا، فَلِحُبِّهِمْ لَهُ وَعِزَّتِهِ عِنْدَهُمْ وَعِظَمِهِ فِي عُيُونِهِمْ: يَزْوُونَهُ عَنْ حُقُوقِ اللَّهِ وَيَبْخَلُونَ بِهِ، وَلَا يَكْفِيهِمْ أَنَّهُمْ بَخِلُوا حَتَّى يَحْمِلُوا النَّاسَ عَلَى الْبُخْلِ وَيُرَغِّبُوهُمْ فِي الْإِمْسَاكِ وَيُزَيِّنُوهُ لَهُمْ، وَذَلِكَ كُلُّهُ نَتِيجَةَ فَرَحِهِمْ بِهِ وَبَطَرِهِمْ عِنْدَ إِصَابَتِهِ.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾[3] عَنْ أَوَامِرَ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ وَلَمْ يَنْتَهِ عَمَّا نُهِيَ عَنْهُ مِنَ الْأَسَى عَلَى الْفَائِتِ وَالْفَرَحِ بِالْآتِي: فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْهُ.

وَقُرِئَ: "بِالْبَخَلِ".

وَقَرَأَ نَافِعٌ: "فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ"، وَهُوَ فِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ كَذَلِكَ.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[4]

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾[5]، يَعْنِي: الْمَلَائِكَةَ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾[6]: بِالْحُجَجِ وَالْمُعْجِزَاتِ.

﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾[7]، أَيِ: الْوَحْيَ ﴿وَالْمِيزَانَ﴾[8].

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

رُوِيَ أَنَّ جِبْرِيلَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– نَزَلَ بِالْمِيزَانِ، فَدَفَعَهُ إِلَى نُوحٍ وَقَالَ: مُرْ قَوْمَكَ يَزِنُوا بِهِ.

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾[1]، قِيلَ: نَزَلَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَمَعَهُ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ مِنْ حَدِيدٍ: السِّنْدَانُ، وَالْكَلْبَتَانِ، وَالْمِيقَعَةُ وَالْمِطْرَقَةُ، وَالْإِبْرَةُ.

وَرُوِيَ: وَمَعَهُ الْمِسَنُّ وَالْمِسْحَاةُ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "إِنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– أَنْزَلَ أَرْبَعَ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ: أَنْزَلَ الْحَدِيدَ، وَالنَّارَ، وَالْمَاءَ، وَالْمِلْحَ".

وَعَنِ الْحَسَنِ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾[2]: خَلَقْنَاهُ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾[3]، وَذَلِكَ أَنَّ أَوَامِرَهُ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَقَضَايَاهُ وَأَحْكَامُهُ.

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[4]، وَهُوَ الْقِتَالُ بِهِ، ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[5] فِي مَصَالِحِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ، فَمَا مِنْ صِنَاعَةٍ إِلَّا وَالْحَدِيدُ آلَةٌ فِيهَا، أَوْ مَا يُعْمَلُ بِالْحَدِيدِ.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾[6] بِاسْتِعْمَالِ السُّيُوفِ وَالرِّمَاحِ وَسَائِرِ السِّلَاحِ فِي مُجَاهَدَةِ أَعْدَاءِ الدِّينِ.

﴿بِالْغَيْبِ﴾[7] غَائِبًا عَنْهُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: يَنْصُرُونَهُ وَلَا يَبْصُرُونَهُ.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[8]: غَنِيٌّ بِقُدْرَتِهِ وَعِزَّتِهِ فِي إِهْلَاكِ مَنْ يُرِيدُ هَلَاكَهُ عَنْهُمْ، وَإِنَّمَا كَلَّفَهُمُ الْجِهَادَ لِيَنْتَفِعُوا بِهِ وَيَصِلُوا بِامْتِثَالِ الْأَمْرِ فِيهِ إِلَى الثَّوَابِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1]

﴿وَالْكِتَابَ﴾[2]: وَالْوَحْيَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْخَطُّ بِالْقَلَمِ، يُقَالُ: كَتَبَ كِتَابًا وَكِتَابَةً.

﴿فَمِنْهُمْ﴾[3] فَمِنَ الذُّرِّيَّةِ أَوْ مِنَ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِمْ ذِكْرُ الْإِرْسَالِ وَالْمُرْسَلِينَ.

وَهَذَا تَفْصِيلٌ لِحَالِهِمْ، أَيْ: فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَمِنْهُمْ فَاسِقٌ، وَالْغَلَبَةُ لِلْفُسَّاقِ.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[4]

قَرَأَ الْحُسْنَ: "الْأَنْجِيلَ" بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ، وَأَمْرُهُ أَهْوَنُ مِنْ أَمْرِ الْبَرْطِيلِ وَالسِّكِّينَةِ فِيمَنْ رَوَاهُمَا بِفَتْحِ الْفَاءِ، لِأَنَّ الْكَلِمَةَ أَعْجَمِيَّةٌ لَا يَلْزَمُ فِيهَا حِفْظُ أَبْنِيَةِ الْعَرَبِ.

وَقُرِئَ: "رَآفَةٌ" عَلَى: فَعَالَةٍ، أَيْ: وَفَّقْنَاهُمْ لِلتَّرَاحُمِ وَالتَّعَاطُفِ بَيْنَهُمْ. وَنَحْوَهُ فِي صِفَةِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾][5]الْفَتْحِ: 299].

وَالرَّهْبَانِيَّةُ: تَرَهُّبُهُمْ فِي الْجِبَالِ فَارِّينَ مِنَ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ، مُخَلِّصِينَ أَنْفُسَهُمْ لِلْعِبَادَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَبَابِرَةَ ظَهَرُوا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ مَوْتِ عِيسَى، فَقَاتَلُوهُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقُتِلُوا حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، فَخَافُوا أَنْ يُفْتَنُوا فِي دِينِهِمْ، فَاخْتَارُوا الرَّهْبَانِيَّةَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَمَعْنَاهُ الْفِعْلَةُ الْمَنْسُوبَةُ إِلَى الرُّهْبَانِ، وَهُوَ الْخَائِفُ: فَعْلَانٌ مِنْ رَهَبَ، كَخَشْيَانَ مِنْ خَشِيَ.

وَقُرِئَ: "وَرُهْبَانِيَّةً" بِالضَّمِّ، كَأَنَّهَا نِسْبَةٌ إِلَى الرُّهْبَانِ: وَهُوَ جَمْعُ رَاهِبٍ كَرَاكِبٍ وَرُكْبَانٍ، وَانْتِصَابُهَا بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ يُفَسِّرُهُ الظَّاهِرُ: تَقْدِيرُهُ.

وَابْتَدَعُوا رَهْبَانِيَّةً ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾[1] يَعْنِي: وَأَحْدَثُوهَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ وَنَذَرُوهَا.

﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾[2]: لَمْ نَفْرِضْهَا نَحْنُ عَلَيْهِمْ، ﴿إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾[3]: اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، أَيْ: وَلَكِنَّهُمُ ابْتَدَعُوهَا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ.

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[4]: كَمَا يَجِبُ عَلَى النَّاذِرِ رِعَايَةُ نَذْرِهِ، لِأَنَّهُ عَهْدٌ مَعَ اللَّهِ لَا يَحِلُّ نُكْثُهُ .

﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[5]، يُرِيدُ: أَهْلَ الرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا عِيسَى ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[6] الَّذِينَ لَمْ يُحَافِظُوا عَلَى نَذْرِهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الرَّهْبَانِيَّةُ مَعْطُوفَةً عَلَى مَا قَبْلَهَا، وَابْتَدَعُوهَا: صِفَةٌ لَهَا فِي مَحَلِّ النَّصْبِ، أَيْ: وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِهِمْ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً مُبْتَدَعَةً مِنْ عِنْدِهِمْ، بِمَعْنَى: وَفَّقْنَاهُمْ لِلتَّرَاحُمِ بَيْنَهُمْ وَلَابْتِدَاعِ الرَّهْبَانِيَّةِ وَاسْتِحْدَاثِهَا، مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا لِيَبْتَغُوا بِهَا رِضْوَانَ اللَّهِ وَيَسْتَحِقُّوا بِهَا الثَّوَابَ، عَلَى أَنَّهُ كَتَبَهَا عَلَيْهِمْ وَأَلْزَمَهَا إِيَّاهُمْ لِيَتَخَلَّصُوا مِنَ الْفِتَنِ وَيَبْتَغُوا بِذَلِكَ رِضَا اللَّهِ وَثَوَابَهُ، فَمَا رَعَوْهَا جَمِيعًا حَقَّ رِعَايَتِهَا، وَلَكِنْ بَعْضُهُمْ، فَآتَيْنَا الْمُؤْمِنِينَ الْمُرَاعِينَ مِنْهُمْ لِلرَّهْبَانِيَّةِ أَجْرَهُمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ. وَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَرْعَوْهَا .

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[2]: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَإِنْ كَانَ خِطَابًا لِمُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ.

فَالْمَعْنَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِمُوسَى وَعِيسَى آمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﴿يُؤْتِكُمْ﴾[3] اللَّهُ ﴿كِفْلَيْنِ﴾[4]، أَيْ: نَصِيبَيْنِ ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾[5]، لِإِيمَانِكُمْ بِمُحَمَّدٍ وَإِيمَانِكُمْ بِمَنْ قَبْلَهُ.

﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾[6]، وَهُوَ النُّورُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾[7]]الْحَدِيدِ: 12.[

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[8]: مَا أَسْلَفْتُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي.

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[9]

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾[1]: لِيَعْلَمَ ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾[2]: الَّذِينَ لَمْ يُسْلِمُوا، وَلَا مَزِيدَةٌ، ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾[3]: أَنْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَصْلُهُ: أَنَّهُ لَا يَقْدِرُونَ، يَعْنِي: أَنَّ الشَّأْنَ لَا يَقْدِرُونَ.

﴿عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾[4]، أَيْ: لَا يَنَالُونَ شَيْئًا مِمَّا ذُكِرَ مِنْ فَضْلِهِ مِنَ الْكِفْلَيْنِ: وَالنُّورِ وَالْمَغْفِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِ اللَّهِ، فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ إِيمَانُهُمْ بِمَنْ قَبْلَهُ، وَلَمْ يُكْسِبْهُمْ فَضْلًا قَطُّ.

وَإِنْ كَانَ خِطَابًا لِغَيْرِهِمْ، فَالْمَعْنَى: اتَّقُوا اللَّهَ وَاثْبُتُوا عَلَى إِيمَانِكُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ يُؤْتِكُمْ مَا وَعَدَ مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْكِفْلَيْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾[5]]الْقَصَصِ: 544].

وَلَا يَنْقُصُكُمْ مِنْ مِثْلِ أَجْرِهِمْ، لِأَنَّكُمْ مِثْلُهُمْ فِي الْإِيمَانَيْنِ لَا تُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ.

رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بَعَثَ جَعْفَرًا –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فِي سَبْعِينَ رَاكِبًا إِلَى النَّجَاشِيِّ يَدْعُوهُ، فَقَدِمَ جَعْفَرٌ عَلَيْهِ فَدَعَاهُ فَاسْتَجَابَ لَهُ، فَقَالَ نَاسٌ مِمَّنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ وَهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا: ائْذَنْ لَنَا فِي الْوِفَادَةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَقَدِمُوا مَعَ جَعْفَرٍ، وَقَدْ تَهَيَّأَ لِوَقْعَةِ أُحُدٍ.

فَلَمَّا رَأَوْا مَا بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ خَصَاصَةٍ: اسْتَأْذَنُوا رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَرَجَعُوا وَقَدِمُوا بِأَمْوَالٍ لَهُمْ فَآسَوْا بِهَا الْمُسْلِمِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ....﴾[6]]الْبَقَرَةِ: 121]. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ ...وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[7]]الْبَقَرَةِ: 33].

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

فَلَمَّا سَمِعَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ قَوْلَهُ: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾[1]]الْقَصَصِ: 544]، فَخَرُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَقَالُوا: أَمَّا مَنْ آمَنَ بِكِتَابِكُمْ وَكِتَابِنَا، فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ. وَأَمَّا مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِكِتَابِكُمْ، فَلَهُ أَجْرٌ كَأَجْرِكُمْ، فَمَا فَضْلُكُمْ عَلَيْنَا؟ فَنَزَلَتْ.

وَرُوِيَ أَنَّ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَخَرُوا عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ، وَادَّعَوُا الْفَضْلَ عَلَيْهِمْ، فَنَزَلَتْ.

وَقُرِئَ: "لِكَيْ يَعْلَمَ"، وَ"لِكَيْلَا يَعْلَمَ"، وَ"لِيَعْلَمَ"، وَ"لِأَنْ يَعْلَمَ"، بِإِدْغَامِ النُّونِ فِي الْيَاءِ، وَ"لِينْ يَعْلَمَ: بِقَلْبِ الْهَمْزَةِ يَاءً وَإِدْغَامِ النُّونِ فِي الْيَاءِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: "لَيْلَا يَعْلَمَ"، بِفَتْحِ اللَّامِ وَسُكُونِ الْيَاءِ. وَرَوَاهُ قُطْرُبٌ بِكَسْرِ اللَّامِ.

وَقِيلَ: فِي وَجْهِهَا: حُذِفَتْ هَمْزَةُ أَنْ، وَأُدْغِمَتْ نُونُهَا فِي لَامِ لَا، فَصَارَ "لَلَا"، ثُمَّ أُبْدِلَتْ مِنَ اللَّامِ الْمُدْغَمَةِ يَاءً، كَقَوْلِهِمْ: دِيوَانٌ، وَقِيرَاطٌ.

وَمَنْ فَتَحَ اللَّامَ، فَعَلَى أَنَّ أَصْلَ لَامِ الْجَرِّ الْفَتْحُ، كَمَا أَنْشَدَ:

أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا.....

وَقُرِئَ: "أَنْ لَا يَقْدِرُوا".

﴿بِيَدِ اللَّهِ﴾[2]: فِي مُلْكِهِ وَتَصَرُّفِهِ. وَالْيَدُ مِثْلَ: ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[3]، وَلَا يَشَاءُ إِلَّا إِيتَاءَ مَنْ يَسْتَحِقُّهُ. عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَدِيدِ كُتِبَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

سورة الزلزلة

سورة المجادلة

مَدَنِيَّةٌ،
وَآيَاتُهَا 22
نَزَلَتْ بَعْدَ [الْمُنَافِقُونَ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[1]

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾[2].

قَالَتْ عَائِشَةُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ: لَقَدْ كَلَّمَتِ الْمُجَادِلَةُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي جَانِبِ الْبَيْتِ وَأَنَا عِنْدَهُ لَا أَسْمَعُ، وَقَدْ سَمِعَ لَهَا.

وَعَنْ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ أَكْرَمَهَا، وَقَالَ: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ لَهَا.

وَقُرِئَ: "تُحَاوِرُكَ، أَيْ: تُرَاجِعُكَ الْكَلَامَ.

وَتُحَاوِلُكَ، أَيْ: تُسَائِلُكَ، وَهِيَ خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ امْرَأَةُ أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ أَخِي عُبَادَةَ:

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

رَآهَا، وَهِيَ تُصَلِّي، وَكَانَتْ حَسَنَةَ الْجِسْمِ. فَلَمَّا سَلَّمَتْ رَاوَدَهَا فَأَبَتْ، فَغَضِبَ وَكَانَ بِهِ خِفَّةٌ وَلَمَمٌ، فَظَاهَرَ مِنْهَا، فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَقَالَتْ:

إِنَّ أَوْسًا تَزَوَّجَنِي، وَأَنَا شَابَّةٌ مَرْغُوبٌ فِيَّ. فَلَمَّا خَلَا سِنِّي وَنَثَرْتُ بَطْنِي –أَيْ: كَثُرَ وَلَدِي–، جَعَلَنِي عَلَيْهِ كَأُمِّهِ.

وَرُوِيَ: أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي صِبْيَةً صِغَارًا، إِنْ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا، وَإِنْ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيَّ جَاعُوا. فَقَالَ: مَا عِنْدِي فِي أَمْرِكِ شَيْءٌ.

وَرُوِيَ: أَنَّهُ قَالَ لَهَا: حَرُمْتِ عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا ذَكَرَ طَلَاقًا،ا وَإِنَّمَا هُوَ أَبُو وَلَدِي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَقَالَ: حَرُمْتِ عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: أَشْكُو إِلَى اللَّهِ فَاقَتِي وَوَجْدِي، كُلَّمَا قَالَ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: حَرُمْتِ عَلَيْهِ، هَتَفَتْ وَشَكَتْ إِلَى اللَّهِ، فَنَزَلَتْ ﴿فِي زَوْجِهَا﴾[1] فِي شَأْنِهِ، وَمَعْنَاهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[2] يَصِحُّ أَنْ يَسْمَعَ كُلَّ مَسْمُوعٍ وَيُبْصِرَ كُلَّ مُبْصَرٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ﴿قَدْ﴾[3] فِي قَوْلِه: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾[4]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ التَّوَقُّعُ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَالْمُجَادِلَةَ كَانَا يَتَوَقَّعَانِ أَنْ يَسْمَعَ اللَّهُ مُجَادَلَتَهَا وَشَكْوَاهَا وَيُنْزِلَ فِي ذَلِكَ مَا يُفَرِّجُ عَنْهَا.

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتِهِمْ إِلا اللائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ﴾[1]: ﴿مِنْكُمْ﴾[2] تَوْبِيخٌ لِلْعَرَبِ وَتَهْجِينٌ لِعَادَتِهِمْ فِي الظِّهَارِ، لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ أَيْمَانِ أَهْلِ جَاهِلِيَّتِهِمْ خَاصَّةً دُونَ سَائِرِ الْأُمَمِ ﴿مَا هُنَّ﴾[3].

وَقُرِئَ: بِالرَّفْعِ عَلَى اللُّغَتَيْنِ الْحِجَازِيَّةِ وَالتَّمِيمِيَّةِ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: "بِأُمَّهَاتِهِمْ" وَزِيَادَةِ الْبَاءِ فِي لُغَةِ مَنْ يَنْصِبُ.

وَالْمَعْنَى أَنَّ مَنْ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي: مُلْحِقٌ فِي كَلَامِهِ هَذَا لِلزَّوْجِ بِالْأُمِّ، وَجَاعِلُهَا مِثْلَهَا.

وَهَذَا تَشْبِيهٌ بَاطِلٌ لِتَبَايُنِ الْحَالَيْنِ.

﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلا اللائِي وَلَدْنَهُمْ﴾[4]، يُرِيدُ أَنَّ الْأُمَّهَاتِ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُنَّ الْوَالِدَاتُ وَغَيْرُهُنَّ مُلْحَقَاتٌ بِهِنَّ لِدُخُولِهِنَّ فِي حُكْمِهِنَّ، فَالْمُرْضِعَاتُ أُمَّهَاتٌ، لِأَنَّهُنَّ لَمَّا أَرْضَعْنَ دَخَلْنَ بِالرَّضَاعِ فِي حُكْمِ الْأُمَّهَاتِ، وَكَذَلِكَ أَزْوَاجُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ نِكَاحَهُنَّ عَلَى الْأُمَّةِ، فَدَخَلْنَ بِذَلِكَ فِي حُكْمِ الْأُمَّهَاتِ.

وَأَمَّا الزَّوْجَاتُ، فَأَبْعَدُ شَيْءٍ مِنَ الْأُمُومَةِ، لِأَنَّهُنَّ لَسْنَ بِأُمَّهَاتٍ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَلَا بِدَاخِلَاتٍ فِي حُكْمِ الْأُمَّهَاتِ، فَكَانَ قَوْلُ الْمُظَاهِرِ: مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ؛ تُنْكِرُهُ الْحَقِيقَةُ وَتُنْكِرُهُ الْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ وَزُورًا وَكَذِبًا بَاطِلًا مُنْحَرِفًا عَنِ الْحَقِّ.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[5] لِمَا سَلَفَ مِنْهُ إِذَا تِيبَ مِنْهُ وَلَمْ يُعَدْ إِلَيْهِ؛ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾[6]، يَعْنِي: وَالَّذِينَ كَانَتْ عَادَتُهُمْ أَنْ يَقُولُوا هَذَا الْقَوْلَ الْمُنْكَرَ، فَقَطَعُوهُ بِالْإِسْلَامِ، ثُمَّ يَعُودُونَ لِمِثْلِهِ، فَكَفَّارَةُ مَنْ عَادَ أَنْ يُحَرِّرَ رَقَبَةً، ثُمَّ يَمَاسُّ الْمَظَاهَرُ مِنْهَا لَا تَحِلُّ لَهُ مُمَاسَّتُهَا إِلَّا بَعْدَ تَقْدِيمِ الْكَفَّارَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَوَجْهٌ آخَرُ: ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا: ثُمَّ يَتَدَارَكُونَ مَا قَالُوا، لِأَنَّ الْمُتَدَارِكَ لِلْأَمْرِ عَائِدٌ إِلَيْهِ. وَمِنْهُ الْمَثَلُ: عَادَ غَيْثٌ عَلَى مَا أَفْسَدَ، أَيْ: تَدَارَكَهُ بِالْإِصْلَاحِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ تَدَارُكَ هَذَا الْقَوْلِ وَتَلَافِيهِ بِأَنْ يُكَفِّرَ حَتَّى تَرْجِعَ حَالُهُمَا كَمَا كَانَتْ قَبْلَ الظِّهَارِ.

وَوَجْهٌ ثَالِثٌ: وَهُوَ أَنْ يُرَادَ بِمَا قَالُوا: مَا حَرَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِلَفْظِ الظِّهَارِ، تَنْزِيلًا لِلْقَوْلِ مَنْزِلَةَ الْمَقُولِ فِيهِ نَحْوَ مَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾[1]]مَرْيَمَ: 800].

وَيَكُونُ الْمَعْنَى: ثُمَّ يُرِيدُونَ الْعَوْدَ لِلتَّمَاسِّ. وَالْمُمَاسَّةُ: الِاسْتِمْتَاعُ بِهَا مِنْ جِمَاعٍ، أَوْ لَمْسٍ بِشَهْوَةٍ، أَوْ نَظَرٍ إِلَى فَرْجِهَا لِشَهْوَةٍ.

"ذَلِكُمْ" الْحُكْمُ "تُوعَظُونَ بِهِ"، لِأَنَّ الْحُكْمَ بِالْكَفَّارَةِ دَلِيلٌ عَلَى ارْتِكَابِ الْجِنَايَةِ، فَيَجِبُ أَنْ تَتَّعِظُوا بِهَذَا الْحُكْمِ حَتَّى لَا تَعُودُوا إِلَى الظِّهَارِ وَتَخَافُوا عِقَابَ اللَّهِ عَلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَصِحُّ الظِّهَارُ بِغَيْرِ هَذَا اللَّفْظِ؟

قُلْتُ: نَعَمْ. إِذَا وَضَعَ مَكَانَ أَنْتِ عُضْوًا مِنْهَا يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْجُمْلَةِ؛ كَالرَّأْسِ وَالْوَجْهِ وَالرَّقَبَةِ وَالْفَرْجِ، أَوْ مَكَانَ الظَّهْرِ عُضْوًا آخَرَ يَحْرُمُ النَّظَرُ إِلَيْهِ مِنَ الْأُمِّ كَالْبَطْنِ وَالْفَخِذِ.

وَمَكَانَ الْأُمِّ ذَاتَ رَحِمٍ مُحَرَّمٍ مِنْهُ مِنْ نَسَبٍ أَوْ رَضَاعٍ أَوْ صِهْرٍ أَوْ جِمَاعٍ، نَحْوَ أَنْ يَقُولَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُخْتِي مِنَ الرَّضَاعِ أَوْ عَمَّتِي مِنَ النَّسَبِ أَوِ امْرَأَةِ ابْنِي أَوْ أَبِي أَوْ أُمِّ امْرَأَتِي أَوْ بِنْتِهَا، فَهُوَ مُظَاهِرٌ. وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ وَالنَّخَعِيِّ وَالزُّهْرِيِّ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَالثَّوْرِيِّ وَغَيْرِهِمْ نَحْوُهُ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: لَا يَكُونُ الظِّهَارُ إِلَّا بِالْأُمِّ وَحْدَهَا وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ وَالشَّعْبِيِّ.

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ: لَمْ يَنْسَ اللَّهُ أَنْ يَذْكُرَ الْبَنَاتِ وَالْأَخَوَاتِ وَالْعَمَّاتِ وَالْخَالَاتِ، إِذْ أَخْبَرَ أَنَّ الظِّهَارَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْأُمَّهَاتِ الْوَالِدَاتِ دُونَ الْمُرْضِعَاتِ.

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ الظَّهْرِ حَتَّى يَكُونَ ظِهَارًا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا امْتَنَعَ الْمُظَاهِرُ مِنَ الْكَفَّارَةِ، هَلْ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُرَافِعَهُ؟

---

[1] سورة ، الآية .

قُلْتُ: لَهَا ذَلِكَ. وَعَلَى الْقَاضِي أَنْ يُجْبِرَهُ عَلَى أَنْ يُكَفِّرَ، وَأَنْ يَحْبِسَهُ، وَلَا شَيْءَ مِنَ الْكَفَّارَاتِ يُجْبَرُ عَلَيْهِ وَيُحْبَسُ إِلَّا كَفَّارَةَ الظِّهَارِ وَحْدَهَا، لِأَنَّهُ يَضُرُّ بِهَا فِي تَرْكِ التَّكْفِيرِ وَالِامْتِنَاعِ مِنَ الِاسْتِمْتَاعِ، فَيَلْزَمُ إِيفَاءُ حَقِّهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِنْ مَسَّ قَبْلَ أَنْ يُكَفِّرَ؟ قُلْتُ: عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَلَا يَعُودَ حَتَّى يُكَفِّرَ؛ لِمَا رُوِيَ أَنَّ سَلَمَةَ بْنَ صَخْرٍ الْبَيَّاضَ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ظَاهَرْتُ مِنَ امْرَأَتِي ثُمَّ أَبْصَرْتُ خَلْخَالَهَا فِي لَيْلَةٍ قَمْرَاءَ فَوَاقَعْتُهَا، فَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: "اسْتَغْفِرْ رَبَّكَ وَلَا تَعُدْ حَتَّى تُكَفِّرَ".

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ رَقَبَةٍ تُجْزِئُ فِي كَفَّارَةِ الظِّهَارِ؟ قُلْتُ: الْمُسْلِمَةُ وَالْكَافِرَةُ جَمِيعًا، لِأَنَّهَا فِي الْآيَةِ مُطْلَقَةٌ.

وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ لَا تُجْزِئُ إِلَّا الْمُؤْمِنَةُ. لِقَوْلِهِ -تَعَالَى- فِي كَفَّارَةِ الْقَتْلِ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾[1]]النِّسَاءِ: 92].

وَلَا تُجْزِئُ أُمُّ الْوَلَدِ وَالْمُدَبَّرُ وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي أَدَّى شَيْئًا، فَإِنْ لَمْ يُؤَدِّ شَيْئًا جَازَ. وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ: لَا يَجُوزُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِنْ أَعْتَقَ بَعْضَ الرَّقَبَةِ أَوْ صَامَ بَعْضَ الصِّيَامِ ثُمَّ مَسَّ؟

قُلْتُ: عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَأْنِفَ -نَهَارًا مَسَّ- أَوْ لَيْلًا -نَاسِيًا أَوْ عَامِدًا- عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ، وَعِنْدَ أَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ عَتْقُ بَعْضِ الرَّقَبَةِ عِتْقُ كُلِّهَا فَيَجْزِيهِ، وَإِنْ كَانَ الْمَسُّ يُفْسِدُ الصَّوْمَ اسْتَقْبَلَ، وَإِلَّا بَنَى.

فَإِنْ قُلْتَ: كَمْ يُعْطِي الْمِسْكِينَ فِي الْإِطْعَامِ؟

قُلْتُ: نِصْفَ صَاعٍ مِنْ بُرٍّ أَوْ صَاعًا مِنْ غَيْرِهِ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ مُدًّا مِنْ طَعَامِ بَلَدِهِ الَّذِي يَقْتَاتُ فِيهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا بَالُ التَّمَاسِّ لَمْ يُذْكَرْ عِنْدَ الْكَفَّارَةِ بِالْإِطْعَامِ كَمَا ذُكِرَهُ عِنْدَ الْكَفَّارَتَيْنِ؟

قُلْتُ: اخْتُلِفَ فِي ذَلِكَ، فَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ: أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْكَفَّارَاتِ الثَّلَاثِ فِي وُجُوبِ تَقْدِيمِهَا عَلَى الْمِسَاسِ. وَإِنَّمَا تَرَكَ ذِكْرَهُ عِنْدَ الْإِطْعَامِ دَلَالَةً عَلَى أَنَّهُ إِذَا وُجِدَ فِي خِلَالِ الْإِطْعَامِ لَمْ يَسْتَأْنِفْ كَمَا يَسْتَأْنِفُ الصَّوْمَ إِذَا وَقَعَ فِي خِلَالِهِ.

وَعِنْدَ غَيْرِهِ: لَمْ يُذْكَرْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ التَّكْفِيرَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ سَوَاءٌ.

---

[1] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: الضَّمِيرُ فِي أَنْ يَتَمَاسَّا إِلَامَ يَرْجِعُ؟

قُلْتُ: إِلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ مِنَ الْمُظَاهِرِ وَالْمُظَاهَرِ مِنْهَا "ذَلِكَ" الْبَيَانُ وَالتَّعْلِيمُ لِلْأَحْكَامِ وَالتَّنْبِيهُ عَلَيْهَا لِتُصَدِّقُوا ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[1] فِي الْعَمَلِ بِشَرَائِعِهِ الَّتِي شَرَعَهَا مِنَ الظِّهَارِ وَغَيْرِهِ، وَرَفْضِ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾[2] الَّتِي لَا يَجُوزُ تَعَدِّيهَا.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾[3] الَّذِي لَا يَتَّبِعُونَهَا وَلَا يَعْمَلُونَ عَلَيْهَا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[5]

﴿يُحَادُّونَ﴾[6] يُعَادُونَ وَيُشَاقُّونَ.

﴿كُبِتُوا﴾[7]: أُخْزُوا وَأُهْلِكُوا، ﴿كَمَا كُبِتَ﴾[8] مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ.

قِيلَ: أُرِيدَ كَبْتُهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ.

﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾[9] تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ وَصِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾[10] بِهَذِهِ الْآيَاتِ ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يَذْهَبُ بِعِزِّهِمْ وَكِبْرِهِمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

[9] سورة ، الآية .

[10] سورة ، الآية .

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمْ﴾ مَنْصُوبٌ بَلَهُمْ. أَوْ بِمُهِينٍ. أَوْ بِإِضْمَارِ اذْكُرْ تَعْظِيمًا لِلْيَوْمِ، ﴿جَمِيعًا﴾[1] كُلُّهُمْ لَا يُتْرَكُ مِنْهُمْ أَحَدٌ غَيْرَ مَبْعُوثٍ. أَوْ مُجْتَمِعِينَ فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ، كَمَا تَقُولُ: حَيَّ جَمِيعَ.

﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾[2] تَخْجِيلًا لَهُمْ وَتَوْبِيخًا وَتَشْهِيرًا بِحَالِهِمْ، يَتَمَنَّوْنَ عِنْدَهُ الْمُسَارَعَةَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، لِمَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْخِزْيِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ.

﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾[3]: أَحَاطَ بِهِ عَدَدًا لَمْ يَفُتْهُ مِنْهُ شَيْءٌ.

﴿وَنَسُوهُ﴾[4]، لِأَنَّهُمْ تَهَاوَنُوا بِهِ حِينَ ارْتَكَبُوهُ لَمْ يُبَالُوا بِهِ لِضَرَاوَتِهِمْ بِالْمَعَاصِي، وَإِنَّمَا تُحْفَظُ مُعَظَّمَاتُ الْأُمُورِ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[5]

﴿مَا يَكُونُ﴾[6] مِنْ كَانَ التَّامَّةِ. وَقُرِئَ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، وَالْيَاءُ عَلَى أَنَّ النَّجْوَى تَأْنِيثُهَا غَيْرُ حَقِيقِيٍّ وَمِنْ فَاصِلُهُ. أَوْ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى مَا يَكُونُ شَيْءٌ مِنَ النَّجْوَى. وَالنَّجْوَى: التَّنَاجِي، فَلَا تَخْلُو إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُضَافَةً إِلَى ثَلَاثَةٍ، أَيْ: مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةِ نَفَرٍ. أَوْ مَوْصُوفَةً بِهَا، أَيْ: مِنْ أَهْلِ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ، فَحَذَفَ الْأَهْلَ. أَوْ جَعَلُوا نَجْوَى فِي أَنْفُسِهِمْ مُبَالَغَةً، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[7]]يُوسُفَ: 80]. وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عَبْلَةَ: ثَلَاثَةً وَخَمْسَةً، بِالنَّصْبِ عَلَى

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .

الْحَالِ بِإِضْمَارِ يَتَنَاجَوْنَ، لِأَنَّ نَجْوَى يَدُلُّ عَلَيْهِ. أَوْ عَلَى تَأْوِيلِ نَجْوَى بِمُتَنَاجِينَ، وَنَصَبَهَا مِنَ الْمُسْتَكِنِّ فِيهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الدَّاعِي إِلَى تَخْصِيصِ الثَّلَاثَةِ وَالْخَمْسَةِ؟

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ تَحَلَّقُوا لِلتَّنَاجِي مُغَايَظَةً لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى هَذَيْنِ الْعَدَدَيْنِ: ثَلَاثَةٍ وَخَمْسَةٍ، فَقِيلَ: مَا يَتَنَاجَى مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ وَلَا خَمْسَةٌ كَمَا تَرَوْنَهُمْ يَتَنَاجَوْنَ كَذَلِكَ ﴿وَلا أَدْنَى مِنْ﴾[1] عَدَدِهِمْ ﴿وَلا أَكْثَرَ إِلا﴾[2]، وَاللَّهُ مَعَهُمْ يَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ، فَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَبِيعَةَ وَحَبِيبِ ابْنَيْ عَمْرٍو وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ :كَانُوا يَوْمًا يَتَحَدَّثُونَ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرَى أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا نَقُولُ؟ فَقَالَ الْآخَرُ: يَعْلَمُ بَعْضًا وَلَا يَعْلَمُ بَعْضًا. وَقَالَ الثَّالِثُ: إِنْ كَانَ يَعْلَمُ بَعْضًا فَهُوَ يَعْلَمُ كُلَّهُ، وَصَدَقَ. لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ بِغَيْرِ سَبَبٍ فَقَدْ عَلِمَهَا كُلَّهَا؛ لِأَنَّ كَوْنَهُ عَالِمًا بِغَيْرِ سَبَبٍ ثَابِتٌ لَهُ مَعَ كُلِّ مَعْلُومٍ.

– وَالثَّانِي: أَنَّهُ قَصَدَ أَنْ يَذْكُرَ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ الْعَادَةُ مِنْ أَعْدَادِ أَهْلِ النَّجْوَى وَالْمُتَخَالِّينَ لِلشُّورَى، وَالْمُنْدِبُونَ لِذَلِكَ لَيْسُوا بِكُلِّ أَحَدٍ وَإِنَّمَا هُمْ طَائِفَةٌ مُجْتَبَاةٌ مِنْ أُولِي النُّهَى وَالْأَحْلَامِ، وَرَهْطٌ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالتَّجَارِبِ، وَأَوَّلُ عَدَدِهِمُ الِاثْنَانِ فَصَاعِدًا إِلَى خَمْسَةٍ إِلَى سِتَّةٍ إِلَى مَا اقْتَضَتْهُ الْحَالُ وَحُكْمُ الِاسْتِصْوَابِ.

أَلَا تَرَى إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– كَيْفَ تَرَكَ الْأَمْرُ شُورَى بَيْنَ سِتَّةٍ وَلَمْ يَتَجَاوَزْ بِهَا إِلَى سَابِعٍ، فَذَكَرَ عَزَّ وَعَلَا الثَّلَاثَةَ وَالْخَمْسَةَ، وَقَالَ: ﴿وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ﴾[3]، فَدَلَّ عَلَى الِاثْنَيْنِ وَالْأَرْبَعَةِ، وَقَالَ: ﴿وَلا أَكْثَرَ﴾[4]، فَدَلَّ عَلَى مَا يَلِي هَذَا الْعَدَدَ وَيُقَارِبُهُ. وَفِي مُصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ: إِلَّا اللَّهُ رَابِعُهُمْ، وَلَا أَرْبَعَةٍ إِلَّا اللَّهُ خَامِسُهُمْ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا اللَّهُ سَادِسُهُمْ، وَلَا أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا اللَّهُ مَعَهُمْ إِذَا انْتَجَوْا. وَقُرِئَ: "وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ"، بِالنَّصْبِ عَلَى أَنْ لَا لِنَفْيِ الْجِنْسِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ: وَلَا أَكْثَرُ، بِالرَّفْعِ مَعْطُوفًا عَلَى مَحَلِّ مَعَ أَدْنَى، كَقَوْلِكَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةُ إِلَّا بِاللَّهِ، بِفَتْحِ الْحَوْلِ وَرَفْعِ الْقُوَّةِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَا مَرْفُوعَيْنِ عَلَى الِابْتِدَاءِ، كَقَوْلِكَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَأَنْ يَكُونَ ارْتِفَاعُهُمَا عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ "مِنْ نَجْوَى"، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا يَكُونُ أَدْنَى وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَا مَجْرُورَيْنِ عَطْفًا عَلَى نَجْوَى، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا يَكُونُ مِنْ أَدْنَى وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ. وَقُرِئَ: "وَلَا أَكْبَرَ" بِالْبَاءِ. وَمَعْنَى كَوْنِهِ مَعَهُمْ: أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا هُمْ فِيهِ، فَكَأَنَّهُ مُشَاهِدُهُمْ وَمُحَاضِرُهُمْ، وَقَدْ تَعَالَى عَنِ الْمَكَانِ وَالْمُشَاهَدَةِ. وَقُرِئَ: ثُمَّ يُنْبِئُهُمْ؛ عَلَى التَّخْفِيفِ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[1]

كَانَتِ الْيَهُودُ وَالْمُنَافِقُونَ يَتَنَاجَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَيَتَغَامَزُونَ بِأَعْيُنِهِمْ إِذَا رَأَوُا الْمُؤْمِنِينَ، يُرِيدُونَ أَنْ يَغِيظُوهُمْ، فَنَهَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَعَادُوا لِمِثْلِ فِعْلِهِمْ، وَكَانَ تَنَاجِيهِمْ بِمَا هُوَ إِثْمٌ وَعُدْوَانٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَوَاصٍ بِمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَمُخَالَفَتِهِ.

وَقُرِئَ: "يَنْتَجُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعِدْوَانِ" بِكَسْرِ الْعَيْنِ، وَمَعْصِيَّاتِ الرَّسُولِ.

﴿حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾[2]، يَعْنِي أَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي تَحِيَّتِكَ: السَّامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، وَالسَّامُ: الْمَوْتُ، وَاللَّهُ -تَعَالَى- يَقُولُ: ﴿وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾[3]]النَّمْلِ: 59]، وَ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾[4]]الْمَائِدَةِ: 67/41]، وَ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾[5]]الْأَنْفَالِ: 64.]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[1] كَانُوا يَقُولُونَ: مَا لَهُ إِنْ كَانَ نَبِيًّا لَا يَدْعُو عَلَيْنَا حَتَّى يُعَذِّبَنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ، فَقَالَ اللَّهُ -تَعَالَى-: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾[2] عَذَابًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ
وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ
لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[3]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[4] خِطَابٌ لِلْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ، أَيْ: إِذَا تَنَاجَيْتُمْ، فَلَا تَتَشَبَّهُوا بِأُولَئِكَ فِي تَنَاجِيهِمْ بِالشَّرِّ.

﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[5].

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَ اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ"، وَرُوِيَ: "دُونَ الثَّالِثِ".

وَقُرِئَ: فَلَا تَنَاجَوْا.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: إِذَا انْتَجَيْتُمْ فَلَا تَنْتَجُوا.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾[1] اللَّامُ إِشَارَةً إِلَى النَّجْوَى بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[2]، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الشَّيْطَانَ يُزَيِّنُهَا لَهُمْ، فَكَأَنَّهَا مِنْهُ لِيَغِيظَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُحْزِنَهُمْ "وَلَيْسَ" الشَّيْطَانُ أَوِ الْحُزْنُ ﴿بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ لَا يَضُرُّهُمُ الشَّيْطَانُ أَوِ الْحُزْنُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ؟ قُلْتُ: كَانُوا يُوهِمُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي نَجْوَاهُمْ وَتَغَامُزِهِمْ أَنَّ غُزَاتَهُمْ غُلِبُوا وَأَنَّ أَقَارِبَهُمْ قُتِلُوا، فَقَالَ: لَا يَضُرُّهُمُ الشَّيْطَانُ أَوِ الْحُزْنُ بِذَلِكَ الْمُوهَمِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، أَيْ: بِمَشِيئَتِهِ، وَهُوَ أَنْ يَقْضِيَ الْمَوْتَ عَلَى أَقَارِبِهِمْ أَوِ الْغَلَبَةَ عَلَى الْغُزَاةِ.

وَقُرِئَ: "لِيُحْزِنَ" وَ"لِيُحْزَنَ".

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[4]

﴿تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾[5]: تَوَسَّعُوا فِيهِ وَلْيُفْسِحْ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ، مِنْ قَوْلِهِمْ: أَفْسِحْ عَنِّي، أَيْ: تَنَحَّ، وَلَا تَتَضَامُّوا.

وَقُرِئَ: تَفَاسَحُوا وَالْمُرَادُ: مَجْلِسُ رَسُولِ اللَّهِ، وَكَانُوا يَتَضَامُّونَ فِيهِ تَنَافُسًا عَلَى الْقُرْبِ مِنْهُ، وَحِرْصًا عَلَى اسْتِمَاعِ كَلَامِهِ.

وَقِيلَ: هُوَ الْمَجْلِسُ مِنْ مَجَالِسِ الْقِتَالِ، وَهِيَ مَرَاكِزُ الْغُزَاةِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[6].

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: "فِي الْمَجَالِسِ"؛ قِيلَ: كَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي الصَّفَّ، فَيَقُولُ: تَفَسَّحُوا، فَيَأْبَوْنَ لِحِرْصِهِمْ عَلَى الشَّهَادَةِ.

وَقُرِئَ: "فِي الْمَجْلَسِ" بِفَتْحِ اللَّامِ: وَهُوَ الْجُلُوسُ، أَيْ: تَوَسَّعُوا فِي جُلُوسِكُمْ وَلَا تَتَضَايَقُوا فِيهِ.

﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾[1] مُطْلَقٌ فِي كُلِّ مَا يَبْتَغِي النَّاسُ الْفُسْحَةَ فِيهِ مِنَ الْمَكَانِ وَالرِّزْقِ وَالصَّدْرِ وَالْقَبْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

﴿انْشُزُوا﴾[2]: انْهَضُوا لِلتَّوْسِعَةِ عَلَى الْمُقْبِلِينَ، أَوِ انْهَضُوا عَنْ مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ إِذَا أُمِرْتُمْ بِالنُّهُوضِ عَنْهُ، وَلَا تُمِلُّوا رَسُولَ اللَّهِ بِالِارْتِكَازِ فِيهِ: أَوِ انْهَضُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَالْجِهَادِ وَأَعْمَالِ الْخَيْرِ إِذَا اسْتُنْهِضْتُمْ، وَلَا تُثَبِّطُوا وَلَا تُفَرِّطُوا .

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ﴾[3] الْمُؤْمِنِينَ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَأَوَامِرِ رَسُولِهِ، وَالْعَالِمِينَ مِنْهُمْ خَاصَّةً.

﴿دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[4]، قُرِئَ: بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَهَا قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، افْهَمُوا هَذِهِ الْآيَةَ وَلْتُرَغِّبْكُمْ فِي الْعِلْمِ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "بَيْنَ الْعَالِمِ وَالْعَابِدِ مِائَةُ دَرَجَةٍ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ حَضْرَ الْجَوَادِ الْمُضَمَّرِ سَبْعِينَ سَنَةً".

وَعَنْهُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "فَضْلُ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ". وَعَنْهُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ فَأَعْظِمْ بِمَرْتَبَةٍ هِيَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ النُّبُوَّةِ وَالشَّهَادَةِ بِشَهَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ".

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: خُيِّرَ سُلَيْمَانُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْمَالِ وَالْمُلْكِ، فَاخْتَارَ الْعِلْمَ، فَأُعْطِيَ الْمَالَ وَالْمُلْكَ مَعَهُ.

وَقَالَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، يَا إِبْرَاهِيمُ، إِنِّي عَلِيمٌ أُحِبُّ كُلَّ عَلِيمٍ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَعَنْ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ: لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ شَيْءٍ أَدْرَكَ مَنْ فَاتَهُ الْعِلْمُ، وَأَيُّ شَيْءٍ فَاتَ مَنْ أَدْرَكَ الْعِلْمَ.

وَعَنِ الْأَحْنَفِ: كَادَ الْعُلَمَاءُ يَكُونُونَ أَرْبَابًا، وَكُلُّ عِزٍّ لَمْ يُوَطَّدْ بِعِلْمٍ فَإِلَى ذُلٍّ مَا يَصِيرُ.

وَعَنِ الزُّبَيْرِيِّ: الْعِلْمُ ذَكَرٌ فَلَا يُحِبُّهُ إِلَّا ذُكُورَةُ الرِّجَالِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]

﴿بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ﴾[2] اسْتِعَارَةٌ مِمَّنْ لَهُ يَدَانِ.

وَالْمَعْنَى: قَبْلَ نَجْوَاكُمْ كَقَوْلِ عَمَرَ: مِنْ أَفْضَلِ مَا أُوتِيَتِ الْعَرَبُ الشِّعْرُ، يُقَدِّمُهُ الرَّجُلُ أَمَامَ حَاجَتِهِ فَيَسْتَمْطِرُ بِهِ الْكَرِيمَ وَيَسْتَنْزِلُ بِهِ اللَّئِيمَ، يُرِيدُ: قَبْلَ حَاجَتِهِ.

"ذَلِكُمْ" التَّقْدِيمُ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾[3] فِي دِينِكُمْ "وَأَطْهَرُ" لِأَنَّ الصَّدَقَةَ طُهْرَةٌ.

رُوِيَ أَنَّ النَّاسَ أَكْثَرُوا مُنَاجَاةَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِمَا يُرِيدُونَ حَتَّى أَمَلُّوهُ وَأَبْرَمُوهُ، فَأُرِيدَ أَنْ يَكُفُّوا عَنْ ذَلِكَ، فَأُمِرُوا بِأَنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَاجِيَهُ قَدَّمَ قَبْلَ مُنَاجَاتِهِ صَدَقَةً.

قَالَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: لَمَّا نَزَلَتْ دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي دِينَارٍ؟ قُلْتُ: لَا يُطِيقُونَهُ. قَالَ: كَمْ؟ قُلْتُ: حَبَّةٌ أَوْ شَعِيرَةٌ، قَالَ: إِنَّكَ لَزَهِيدٌ.

فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ فَارْتَدَعُوا وَكَفُّوا. أَمَّا الْفَقِيرُ، فَلِعُسْرَتِهِ؛ وَأَمَّا الْغَنِيُّ، فَلِشُحِّهِ.

وَقِيلَ: كَانَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ ثُمَّ نُسِخَ. وَقِيلَ: مَا كَانَ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَعَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –: إِنَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَآيَةً مَا عَمِلَ بِهَا أَحَدٌ قَبْلِي وَلَا يَعْمَلُ بِهَا أَحَدٌ بَعْدِي: كَانَ لِي دِينَارٌ فَصَرَفْتُهُ، فَكُنْتُ إِذَا نَاجَيْتُهُ تَصَدَّقْتُ بِدِرْهَمٍ.

قَالَ الْكَلْبِيُّ: تَصَدَّقَ بِهِ فِي عَشْرِ كَلِمَاتٍ سَأَلَهُنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ: كَانَ لِعَلِيٍّ ثَلَاثٌ لَوْ كَانَتْ لِي وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ: تَزْوِيجُهُ فَاطِمَةَ، وَإِعْطَاؤُهُ الرَّايَةَ يَوْمَ خَيْبَرَ، وَآيَةُ النَّجْوَى.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِالْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا.

وَقِيلَ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِالزَّكَاةِ.

﴿أَأَشْفَقْتُمْ﴾[1]: أَخِفْتُمْ تَقْدِيمَ الصَّدَقَاتِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِنْفَاقِ الَّذِي تَكْرَهُونَهُ، وَأَنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ.

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾[2] مَا أُمِرْتُمْ بِهِ وَشَقَّ عَلَيْكُمْ، وَتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَعُذَرَكُمْ وَرَخَّصَ لَكُمْ فِي أَنْ لَا تَفْعَلُوهُ، فَلَا تُفَرِّطُوا فِي الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَسَائِرِ الطَّاعَاتِ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3]، قُرِئَ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[4]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

كَانَ الْمُنَافِقُونَ يَتَوَلَّوْنَ الْيَهُودَ وَهُمُ الَّذِينَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[1]، وَيُنَاصِحُونَهُمْ وَيَنْقُلُونَ إِلَيْهِمْ أَسْرَارَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ﴾[2] يَا مُسْلِمُونَ، ﴿وَلا مِنْهُمْ﴾[3]: وَلَا مِنَ الْيَهُودِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ﴾[4]]النِّسَاءِ: 1433 .[.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾[5]، أَيْ: يَقُولُونَ: وَاللَّهِ إِنَّا لَمُسْلِمُونَ، فَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ الَّذِي هُوَ ادِّعَاءُ الْإِسْلَامِ، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[6] أَنَّ الْمَحْلُوفَ عَلَيْهِ كَذِبٌ بَحْتٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[7]؟ قُلْتُ: الْكَذِبُ: أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ لَا عَلَى وِفَاقِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ، سَوَاءٌ عَلِمَ الْمُخْبِرُ أَوْ لَمْ يَعْلَمْ؛ فَالْمَعْنَى: أَنَّهُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُونَ وَخَبَرُهُمْ خِلَافُ مَا يُخْبِرُونَ عَنْهُ، وَهُمْ عَالِمُونَ بِذَلِكَ مُتَعَمِّدُونَ لَهُ، كَمَنْ يَحْلِفُ بِالْغَمُوسِ.

وَقِيلَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَبْتَلٍ الْمُنَافِقُ يُجَالِسُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثُمَّ يَرْفَعُ حَدِيثَهُ إِلَى الْيَهُودِ، فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ فِي حُجْرَةٍ مِنْ حُجَرِهِ إِذْ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: يَدْخُلُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ قَلْبُهُ قَلْبُ جَبَّارٍ وَيَنْظُرُ بِعَيْنِ شَيْطَانٍ، فَدَخَلَ ابْنُ نَبْتَلٍ، وَكَانَ أَزْرَقَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "عَلَامَ تَشْتُمُنِي أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ"؟ فَحَلَفَ بِاللَّهِ مَا فَعَلَ، فَقَالَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: "فَعَلْتَ" فَانْطَلَقَ فَجَاءَ بِأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا بِاللَّهِ مَا سَبُّوهُ، فَنَزَلَتْ: ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾[8] نَوْعًا مِنَ الْعَذَابِ مُتَفَاقِمًا.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[9]، يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الزَّمَانِ الْمَاضِي الْمُتَطَاوِلِ عَلَى سُوءِ الْعَمَلِ مُصِرِّينَ عَلَيْهِ. أَوْ هِيَ حِكَايَةُ مَا يُقَالُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: "إِيمَانِهِمْ" بِالْكَسْرِ، أَيِ: اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمُ الَّتِي حَلَفُوا بِهَا. أَوْ إِيمَانَهُمُ الَّذِي أَظْهَرُوهُ.

﴿جُنَّةً﴾[1]، أَيْ: سُتْرَةً يَتَسَتَّرُونَ بِهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنْ قَتْلِهِمْ.

﴿فَصَدُّوا﴾[2] النَّاسَ فِي خِلَالِ أَمْنِهِمْ وَسَلَامَتِهِمْ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[3]، وَكَانُوا يُثَبِّطُونَ مَنْ لَقُوا عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَيُضْعِفُونَ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ.

وَإِنَّمَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْمُهِينَ الْمُخْزِيَ لِكُفْرِهِمْ وَصَدِّهِمْ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾[4]]النَّحْلِ: 88

﴿مِنَ اللَّهِ﴾[5]: مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴿شَيْئًا﴾[6] قَلِيلًا مِنَ الْإِغْنَاءِ.

وَرُوِيَ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ قَالَ: لَنُنْصَرَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْفُسِنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَا، ﴿فَيَحْلِفُونَ﴾[7] لِلَّهِ -تَعَالَى- عَلَى أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ فِي الْآخِرَةِ، ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾[8] فِي الدُّنْيَا عَلَى ذَلِكَ.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾[9] مِنَ النَّفْعِ، يَعْنِي: لَيْسَ الْعَجَبُ مِنْ حَلِفِهِمْ لَكُمْ، فَإِنَّكُمْ بَشَرٌ تَخْفَى عَلَيْكُمُ السَّرَائِرُ، وَأَنَّ لَهُمْ نَفْعًا فِي ذَلِكَ دَفْعًا عَنْ أَرْوَاحِهِمْ وَاسْتِجْرَارِ فَوَائِدَ دُنْيَوِيَّةٍ، وَأَنَّهُمْ يَفْعَلُونَهُ فِي دَارٍ لَا يَضْطَرُّونَ فِيهَا إِلَى عِلْمِ مَا يُوعَدُونَ، وَلَكِنَّ الْعَجَبَ مِنْ حَلِفِهِمْ لِلَّهِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ مَعَ عَدَمِ النَّفْعِ وَالِاضْطِرَارِ إِلَى عِلْمِ مَا أَنْذَرَتْهُمُ الرُّسُلُ.

وَالْمُرَادُ: وَصْفُهُمْ بِالتَّوَغُّلِ فِي نِفَاقِهِمْ وَمُرُونِهِمْ عَلَيْهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَبَعْثِهِمْ بَاقٍ فِيهِمْ لَا يَضْمَحِلُّ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[10]]الْأَنْعَامِ: 288].

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .
[10] سورة ، الآية .

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي كَذِبِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، وَالْقُرْآنُ نَاطِقٌ بِثَبَاتِهِ نُطْقًا مَكْشُوفًا. كَمَا تَرَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1]] الْأَنْعَامِ: 244].

وَنَحْوَ حُسْبَانِهِمْ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ النَّفْعِ إِذَا حَلَفُوا اسْتِنْظَارَهُمُ الْمُؤْمِنِينَ لِيَقْتَبِسُوا مِنْ نُورِهِمْ، لِحُسْبَانِ أَنَّ الْإِيمَانَ الظَّاهِرَ مِمَّا يَنْفَعُهُمْ. وَقِيلَ عِنْدَ ذَلِكَ: يُخْتَمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[2]، يَعْنِي أَنَّهُمُ الْغَايَةُ الَّتِي لَا مَطْمَحَ وَرَاءَهَا فِي قَوْلِ الْكَذِبِ، حَيْثُ اسْتَوَتْ حَالُهُمْ فِيهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ﴾[3]: اسْتَوْلَى عَلَيْهِمْ، مِنْ حَاذَ الْحِمَارُ الْعَانَةَ إِذَا جَمَعَهَا وَسَاقَهَا غَالِبًا لَهَا. وَمِنْهُ: كَانَ أَحْوَذِيًّا نَسِيجَ وَحْدِهِ، وَهُوَ أَحَدُ مَا جَاءَ عَلَى الْأَصْلِ، نَحْوَ: اسْتَصْوَبَ وَاسْتَنْوَقَ، أَيْ: مَلَكَهُمُ ﴿الشَّيْطَانُ﴾[4] لِطَاعَتِهِمْ لَهُ فِي كُلِّ مَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ، حَتَّى جَعَلَهُمْ رَعِيَّتَهُ وَحِزْبَهُ.

﴿فَأَنْسَاهُمْ﴾[5] أَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ أَصْلًا لَا بِقُلُوبِهِمْ وَلَا بِأَلْسِنَتِهِمْ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: حِزْبُ الشَّيْطَانِ جُنْدُهُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾[6]

﴿فِي الْأَذَلِّينَ﴾[7]: فِي جُمْلَةِ مَنْ هُوَ أَذَلُّ خَلْقِ اللَّهِ لَا تَرَى أَحَدًا أَذَلَّ مِنْهُمْ .

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي
إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1]

كِتَابَ اللَّهِ فِي اللَّوْحِ: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[2] بِالْحُجَّةِ وَالسَّيْفِ، أَوْ بِأَحَدِهِمَا.

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3]

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا﴾[4] مِنْ بَابِ التَّخْيِيلِ. خُيِّلَ أَنَّ مِنَ الْمُمْتَنِعِ الْمُحَالِ: أَنْ تَجِدَ قَوْمًا مُؤْمِنِينَ يُوَالُونَ الْمُشْرِكِينَ.

وَالْغَرَضُ بِهِ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ، وَحَقُّهُ أَنْ يَمْتَنِعَ وَلَا يُوجَدَ بِحَالٍ، مُبَالَغَةً فِي النَّهْيِ عَنْهُ وَالزَّجْرِ عَنْ مُلَابَسَتِهِ، وَالتَّوْصِيَةِ بِالتَّصَلُّبِ فِي مُجَانَبَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَمُبَاعَدَتِهِمْ وَالِاحْتِرَاسِ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ وَمُعَاشَرَتِهِمْ.

وَزَادَ ذَلِكَ تَأْكِيدًا وَتَشْدِيدًا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾[5]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾[6]، وَبِمُقَابَلَةِ قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾[7] بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

حِزْبُ﴾[1]، فَلَا تَجِدُ شَيْئًا أَدْخَلَ فِي الْإِخْلَاصِ مِنْ مُوَالَاةِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَمُعَادَاةِ أَعْدَائِهِ، بَلْ هُوَ الْإِخْلَاصُ بِعَيْنِهِ.

﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾[2]: أَثْبَتَهُ فِيهَا بِمَا وَفَّقَهُمْ فِيهِ وَشَرَحَ لَهُ صُدُورَهُمْ.

﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[3] بِلُطْفٍ مِنْ عِنْدِهِ حَيِيَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ لِلْإِيمَانِ، أَيْ: بِرُوحٍ مِنَ الْإِيمَانِ، عَلَى أَنَّهُ فِي نَفْسِهِ رُوحٌ لِحَيَاةِ الْقُلُوبِ بِهِ.

وَعَنِ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيمَنْ يَصْحَبُ السُّلْطَانَ.

وَعَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي رَوَّادٍ: أَنَّهُ لَقِيَهُ الْمَنْصُورُ فِي الطَّوَافِ فَلَمَّا عَرَفَهُ هَرَبَ مِنْهُ وَتَلَاهَا.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ وَلَا لِفَاسِقٍ عِنْدِي نِعْمَةً، فَإِنِّي وَجَدْتُ فِيمَا أَوْحَيْتَ إِلَيَّ: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا﴾...[4]الْآيَةَ...".

وَرُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا قُحَافَةَ سَبَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَكَّهُ صَكَّةً سَقَطَ مِنْهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ: "أَوَ فَعَلْتَهُ"؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: "لَا تَعُدْ" قَالَ: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ السَّيْفُ قَرِيبًا مِنِّي لَقَتَلْتُهُ.

وَقِيلَ: فِي أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ: قَتَلَ أَبَاهُ عَبْدَ اللَّهِ الْجَرَّاحَ يَوْمَ أُحُدٍ. وَفِي أَبِي بَكْرٍ: دَعَا ابْنَهُ يَوْمَ بَدْرٍ إِلَى الْبِرَازِ، وَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ: دَعْنِي أَكُرَّ فِي الرَّاعِلَةِ الْأُولَى: قَالَ: "مَتِّعْنَا بِنَفْسِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّكَ عِنْدِي بِمَنْزِلَةِ سَمْعِي وَبَصَرِي".

وَفِي مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ: قَتَلَ أَخَاهُ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ يَوْمَ أُحُدٍ.

وَفِي عُمَرَ: قَتَلَ خَالَهُ الْعَاصَ بْنَ هِشَامٍ يَوْمَ بَدْرٍ.

وَفِي عَلِيٍّ وَحَمْزَةَ وَعُبَيْدِ بْنِ الْحَرْثِ: قَتَلُوا عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ ابْنَيْ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ يَوْمَ بَدْرٍ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُجَادَلَةِ كُتِبَ مِنْ حِزْبِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

سُورَةُ الرَّعْدِ

سورة الحشر

مَدَنِيَّةٌ
وَهِيَ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً
نَزَلَتْ بَعْدَ [الْبَيِّنَةِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[1]

صَالَحَ بَنُو النَّضِيرِ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَلَى أَنْ لَا يَكُونُوا عَلَيْهِ وَلَا لَهُ، فَلَمَّا ظَهَرَ يَوْمَ بَدْرٍ قَالُوا: هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي نَعْتُهُ فِي التَّوْرَاةِ لَا تُرَدُّ لَهُ رَايَةٌ. فَلَمَّا هُزِمَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ أُحُدٍ ارْتَابُوا وَنَكَثُوا، فَخَرَجَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ فِي أَرْبَعِينَ رَاكِبًا إِلَى مَكَّةَ فَحَالَفُوا عَلَيْهِ قُرَيْشًا عِنْدَ الْكَعْبَةِ، فَأَمَرَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيَّ، فَقَتَلَ كَعْبًا غِيلَةً، وَكَانَ أَخَاهُ مِنَ الرَّضَاعَةِ، ثُمَّ صَبَّحَهُمْ بِالْكَتَائِبِ وَهُوَ عَلَى حِمَارٍ

[1] سورة ، الآية .

مَخْطُومٍ بِلِيفٍ. فَقَالَ لَهُمْ: اخْرُجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَقَالُوا: الْمَوْتُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ ذَاكَ، فَتَنَادَوْا بِالْحَرْبِ.

وَقِيلَ: اسْتَمْهَلُوا رَسُولَ اللَّهِ عَشَرَةَ أَيَّامٍ لِيَتَجَهَّزُوا لِلْخُرُوجِ، فَدَسَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ الْمُنَافِقُ وَأَصْحَابُهُ إِلَيْهِمْ: لَا تَخْرُجُوا مِنَ الْحِصْنِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَنَحْنُ مَعَكُمْ لَا نَخْذُلُكُمْ، وَلَئِنْ خَرَجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ، فَدَرَّبُوا عَلَى الْأَزِقَّةِ وَحَصَّنُوهَا فَحَاصَرَهُمْ إِحْدَى وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، فَلَمَّا قَذَفَ اللَّهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ وَأَيِسُوا مِنْ نَصْرِ الْمُنَافِقِينَ: طَلَبُوا الصُّلْحَ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ إِلَّا الْجَلَاءَ، عَلَى أَنْ يَحْمِلَ كُلُّ ثَلَاثَةِ أَبْيَاتٍ عَلَى بَعِيرٍ مَا شَاؤُوا مِنْ مَتَاعِهِمْ فَجَلَوْا إِلَى الشَّامِ إِلَى أَرِيحَا وَأَذْرِعَاتٍ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتَيْنِ مِنْهُمْ: آلُ أَبِي الْحَقِيقِ وَآلُ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، فَإِنَّهُمْ لَحِقُوا بِخَيْبَرَ وَلَحِقَتْ طَائِفَةٌ بِالْحِيرَةِ.

اللَّامُ فِي: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾[1] تَتَعَلَّقُ بِأَخْرَجَ، وَهِيَ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[2]]الْفَجْرِ: 24]. وَقَوْلِكَ: جِئْتُهُ لِوَقْتِ كَذَا. وَالْمَعْنَى: أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا عِنْدَ أَوَّلِ الْحَشْرِ.

وَمَعْنَى "أَوَّلِ الْحَشْرِ": أَنَّ هَذَا أَوَّلُ حَشْرِهِمْ إِلَى الشَّامِ، وَكَانُوا مِنْ سِبْطٍ لَمْ يُصِبْهُمْ جَلَاءٌ قَطُّ، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ أُخْرِجَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ إِلَى الشَّامِ. أَوْ هَذَا أَوَّلُ حَشْرِهِمْ، وَآخِرُ حَشْرِهِمْ: إِجْلَاءُ عُمَرَ إِيَّاهُمْ مِنْ خَيْبَرَ إِلَى الشَّامِ. وَقِيلَ: آخِرُ حَشْرِهِمْ حَشْرُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّ الْمَحْشَرَ يَكُونُ بِالشَّامِ.

وَعَنْ عِكْرِمَةَ: مَنْ شَكَّ أَنَّ الْمَحْشَرَ هَهُنَا -يَعْنِي الشَّامَ-، فَلْيَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَخْرَجَهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ مَا حُشِرَ لِقِتَالِهِمْ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ قِتَالٍ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾[3] لِشِدَّةِ بَأْسِهِمْ وَمَنَعَتِهِمْ، وَوِثَاقَةِ حُصُونِهِمْ، وَكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَعُدَّتِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ حُصُونَهُمْ تَمْنَعُهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ

"فَأَتَاهُمْ" أَمْرُ اللَّهِ ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾[4] مِنْ حَيْثُ لَمْ يَظُنُّوا وَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِمْ: وَهُوَ قَتْلُ رَئِيسِهِمْ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ غِرَّةً عَلَى يَدِ أَخِيهِ، وَذَلِكَ مِمَّا أَضْعَفَ قُوَّتَهُمْ وَفَلَّ مِنْ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

شَوْكَتِهِمْ، وَسَلَبَ قُلُوبَهُمُ الْأَمْنَ وَالطُّمَأْنِينَةَ بِمَا قُذِفَ فِيهَا مِنَ الرُّعْبِ، وَأَلْهَمَهُمْ أَنْ يُوَافِقُوا الْمُؤْمِنِينَ فِي تَخْرِيبِ بُيُوتِهِمْ وَيُعِينُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَثَبَّطَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَوَلَّوْنَهُمْ عَنْ مُظَاهَرَتِهِمْ. وَهَذَا كُلُّهُ لَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِهِمْ. وَمِنْهُ أَتَاهُمُ الْهَلَاكُ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ قَوْلِكَ: وَظَنُّوا أَنَّ حُصُونَهُمْ تَمْنَعُهُمْ أَوْ مَانِعَتُهُمْ، وَبَيْنَ النَّظْمِ الَّذِي جَاءَ عَلَيْهِ؟

قُلْتُ: فِي تَقْدِيمِ الْخَبَرِ عَلَى الْمُبْتَدَأِ دَلِيلٌ عَلَى فَرْطِ وُثُوقِهِمْ بِحَصَانَتِهَا وَمَنْعِهَا إِيَّاهُمْ، وَفِي تَصْيِيرِ ضَمِيرِهِمْ اسْمًا لِأَنَّ وَإِسْنَادِ الْجُمْلَةِ إِلَيْهِ: دَلِيلٌ عَلَى اعْتِقَادِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ فِي عِزَّةٍ وَمَنَعَةٍ لَا يُبَالِي مَعَهَا بِأَحَدٍ يَتَعَرَّضُ لَهُمْ أَوْ يَطْمَعُ فِي مَعَازَّتِهِمْ، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي قَوْلِكَ: وَظَنُّوا أَنَّ حُصُونَهُمْ تَمْنَعُهُمْ.

وَقُرِئَ: "فَآتَاهُمُ اللَّهُ"، أَيْ: فَآتَاهُمُ الْهَلَاكَ. وَالرُّعْبُ: الْخَوْفُ الَّذِي يُرْعِبُ الصَّدْرَ، أَيْ: يَمْلَؤُهُ، وَقَذْفُهُ: إِثْبَاتُهُ وَرَكْزُهُ. وَمِنْهُ قَالُوا فِي صِفَةِ الْأَسَدِ: مُقْذِفٌ، كَأَنَّمَا قُذِفَ بِاللَّحْمِ قَذْفًا لِاكْتِنَازِهِ وَتَدَاخُلِ أَجْزَائِهِ.

وَقُرِئَ: "يُخَرِّبُونَ وَيُخْرِبُونَ"، مُثَقَّلًا وَمُخَفَّفًا.

وَالتَّخْرِيبُ وَالْإِخْرَابُ: الْإِفْسَادُ بِالنَّقْضِ وَالْهَدْمِ.

وَالْخَرِبَةُ: الْفَسَادُ، كَانُوا يُخَرِّبُونَ بَوَاطِنَهَا وَالْمُسْلِمُونَ ظَوَاهِرَهَا: لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنَ اسْتِئْصَالِ شَأْفَتِهِمْ وَأَنْ لَا يَبْقَى لَهُمْ بِالْمَدِينَةِ دَارٌ وَلَا مِنْهُمْ دَيَّارٌ.

وَالَّذِي دَعَاهُمْ إِلَى التَّخْرِيبِ: حَاجَتُهُمْ إِلَى الْخَشَبِ وَالْحِجَارَةِ لِيَسُدُّوا بِهَا أَفْوَاهَ الْأَزِقَّةِ. وَأَنْ لَا يَتَحَسَّرُوا بَعْدَ جَلَائِهِمْ عَلَى بَقَائِهَا مَسَاكِنَ لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَنْقُلُوا مَعَهُمْ مَا كَانَ فِي أَبْنِيَتِهِمْ مِنْ جَيِّدِ الْخَشَبِ وَالسَّاجِ الْمَلِيحِ. وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَدَاعِيهِمْ إِزَالَةُ مُتَحَصَّنِهِمْ وَمُتَمَنَّعِهِمْ. وَأَنْ يَتَّسِعَ لَهُمْ مَجَالُ الْحَرْبِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى تَخْرِيبِهِمْ لَهَا بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ؟

قُلْتُ: لَمَّا عَرَّضُوهُمْ لِذَلِكَ وَكَانُوا السَّبَبَ فِيهِ فَكَأَنَّهُمْ أَمَرُوهُمْ بِهِ وَكَلَّفُوهُمْ إِيَّاهُ "فَاعْتَبِرُوا" بِمَا دَبَّرَ اللَّهُ وَيَسَّرَ مِنْ أَمْرِ إِخْرَاجِهِمْ وَتَسْلِيطِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ.

وَقِيلَ: وَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُورِثَهُمُ اللَّهُ أَرْضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِغَيْرِ قِتَالٍ، فَكَانَ كَمَا قَالَ:

﴿وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1]

يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ قَدْ عَزَمَ عَلَى تَطْهِيرِ أَرْضِ الْمَدِينَةِ مِنْهُمْ وَإِرَاحَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ جِوَارِهِمْ وَتَوْرِيثِهِمْ أَمْوَالَهُمْ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ وَاقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ وَدَعَاهُ إِلَى اخْتِيَارِهِ أَنَّهُ أَشَقُّ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَوْتِ ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾[2] بِالْقَتْلِ، كَمَا فَعَلَ بِإِخْوَانِهِمْ بَنِي قُرَيْظَةَ.

"وَلَهُمْ" سَوَاءٌ أُجْلُوا أَوْ قُتِلُوا.

﴿عَذَابُ النَّارِ﴾[3]، يَعْنِي: إِنْ نَجَوْا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا لَمْ يَنْجُوا مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ.

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾[4]

﴿مِنْ لِينَةٍ﴾[5]: بَيَانٌ لِمَا قَطَعْتُمْ.

وَمَحَلُّ ﴿مَا﴾[6] نَصْبٌ بِقَطَعْتُمْ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَيُّ شَيْءٍ قَطَعْتُمْ، وَأَنَّثَ الضَّمِيرَ الرَّاجِعَ إِلَى مَا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ﴾[7] تَرَكْتُمُوهَا، لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى اللِّينَةِ.

وَاللِّينَةُ: النَّخْلَةُ مِنَ الْأَلْوَانِ، ضُرُوبُ النَّخْلِ مَا خَلَا الْعَجْوَةَ.

وَالْبَرْنِيَّةُ، وَهُمَا أَجْوَدُ النَّخِيلِ، وَيَاؤُهَا عَنْ وَاوٍ، قُلِبَتْ لِكَسْرَةِ مَا قَبْلَهَا، كَالدِّيمَةِ.

وَقِيلَ: "اللِّينَةُ" النَّخْلَةُ الْكَرِيمَةُ، كَأَنَّهُمُ اشْتَقُّوهَا مِنَ اللِّينِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

قَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

كَأَنَّ قُتُودِي فَوْقَهَا عُشُّ طَائِرٍ عَلَى لِينَةٍ سَوْقَاءَ تَهْفُو جُنُوبُهَا

وَجَمْعُهَا لِينٌ.

وَقُرِئَ: "قُوَّمًا" عَلَى أَصْلِهَا. وَفِيهِ وَجْهَانِ: أَنَّهُ جَمْعُ أَصْلٍ كَرَهْنٍ وَرُهُنٍ. أَوِ اكْتُفِيَ فِيهِ بِالضَّمَّةِ عَنِ الْوَاوِ.

وَقُرِئَ: "قَائِمًا عَلَى أُصُولِهِ" ذَهَابًا إِلَى لَفْظِ مَا.

﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1]: فَقَطْعُهَا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ.

﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾[2] وَلِيُذِلَّ الْيَهُودَ وَيَغِيظَهُمْ إِذَنْ فِي قَطْعِهَا، وَذَلِكَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حِينَ أَمَرَ أَنْ تُقْطَعَ نَخْلُهُمْ وَتُحْرَقَ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ كُنْتَ تَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَمَا بَالُ قَطْعِ النَّخْلِ وَتَحْرِيقِهَا؟ فَكَانَ فِي نَفْسِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ. فَنَزَلَتْ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَهُمْ فِي قَطْعِهَا لِيَزِيدَكُمْ غَيْظًا وَيُضَاعِفَ لَكُمْ حَسْرَةً إِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ يَتَحَكَّمُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ كَيْفَ أَحَبُّوا وَيَتَصَرَّفُونَ فِيهَا مَا شَاؤُوا.

وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ حُصُونَ الْكَفَرَةِ وَدِيَارَهُمْ لَا بَأْسَ بِأَنْ تُهْدَمَ وَتُحْرَقَ وَتُغْرَقَ وَتُرْمَى بِالْمَجَانِيقِ. وَكَذَلِكَ أَشْجَارُهُمْ لَا بَأْسَ بِقَلْعِهَا مُثْمِرَةً كَانَتْ أَوْ غَيْرَ مُثْمِرَةٍ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: قَطَعُوا مِنْهَا مَا كَانَ مَوْضِعًا لِلْقِتَالِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ خُصَّتِ اللِّينَةُ بِالْقَطْعِ؟

قُلْتُ: إِنْ كَانَتْ مِنَ الْأَلْوَانِ فَلِيَسْتَبْقُوا لِأَنْفُسِهِمُ الْعَجْوَةَ وَالْبَرْنِيَّةَ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ كِرَامِ النَّخْلِ فَلِيَكُونَ غَيْظُ الْيَهُودِ أَشَدَّ وَأَشَقَّ.

وَرُوِيَ أَنَّ رَجُلَيْنِ كَانَا يَقْطَعَانِ: أَحَدُهُمَا الْعَجْوَةَ، وَالْآخَرُ اللَّوْنَ، فَسَأَلَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَقَالَ هَذَا: تَرَكْتُهَا لِرَسُولِ اللَّهِ، وَقَالَ هَذَا: قَطَعْتُهَا غَيْظًا لِلْكُفَّارِ.

وَقَدِ اسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى جَوَازِ الِاجْتِهَادِ، وَعَلَى جَوَازِهِ بِحَضْرَةِ الرَّسُولِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، لِأَنَّهُمَا بِالِاجْتِهَادِ فَعَلَا ذَلِكَ، وَاحْتَجَّ بِهِ مَنْ يَقُولُ: كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1]

﴿أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾[2]: جَعَلَهُ لَهُ فَيْئًا خَاصَّةً. وَالْإِيجَافُ مِنَ الْوَجِيفِ. وَهُوَ السَّيْرُ السَّرِيعُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– فِي الْإِفَاضَةِ مِنْ عَرَفَاتٍ.

"لَيْسَ الْبِرُّ بِإِيجَافِ الْخَيْلِ وَلَا إِيضَاعِ الْإِبِلِ عَلَى هَيْئَتِكُمْ".

وَمَعْنَى: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾[3]: فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَى تَحْصِيلِهِ وَتَغَنُّمِهِ خَيْلًا وَلَا رِكَابًا، وَلَا تَعِبْتُمْ فِي الْقِتَالِ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا مَشَيْتُمْ إِلَيْهِ عَلَى أَرْجُلِكُمْ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَا خَوَّلَ اللَّهُ رَسُولَهُ مِنْ أَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ شَيْءٌ لَمْ تُحَصِّلُوهُ بِالْقِتَالِ وَالْغَلَبَةِ، وَلَكِنْ سَلَّطَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ، كَمَا كَانَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، فَالْأَمْرُ فِيهِ مُفَوَّضٌ إِلَيْهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، يَعْنِي: أَنَّهُ لَا يُقَسِّمُ قِسْمَةَ الْغَنَائِمِ الَّتِي قُوتِلَ عَلَيْهَا وَأُخِذَتْ عَنْوَةً وَقَهْرًا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ طَلَبُوا الْقِسْمَةَ فَنَزَلَتْ.

لَمْ يَدْخُلِ الْعَاطِفُ عَلَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ: لِأَنَّهَا بَيَانٌ لِلْأُولَى، فَهِيَ مِنْهَا غَيْرُ أَجْنَبِيَّةٍ عَنْهَا. بَيَّنَ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مَا يَصْنَعُ بِمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَضَعَهُ حَيْثُ يَضَعُ الْخُمْسَ مِنَ الْغَنَائِمِ مَقْسُومًا عَلَى الْأَقْسَامِ الْخَمْسَةِ.

وَالدُّولَةُ –بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ–، وَقَدْ قُرِئَ بِهِمَا. مَا يَدُولُ لِلْإِنْسَانِ، أَيْ: يَدُورُ مِنَ الْجَدِّ. يُقَالُ: دَالَتْ لَهُ الدَّوْلَةُ. وَأُدِيلَ لِفُلَانٍ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾[4]، كَيْلَا يَكُونَ الْفَيْءُ الَّذِي حَقُّهُ أَنْ يُعْطِيَ الْفُقَرَاءَ لِيَكُونَ لَهُمْ بُلْغَةً يَعِيشُونَ بِهَا جِدًّا بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ يَتَكَاثَرُونَ بِهِ. أَوْ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

كَيْلَا يَكُونَ دَوْلَةً جَاهِلِيَّةً بَيْنَهُمْ. وَمَعْنَى الدَّوْلَةِ الْجَاهِلِيَّةِ: أَنَّ الرُّؤَسَاءَ مِنْهُمْ كَانُوا يَسْتَأْخِرُونَ بِالْغَنِيمَةِ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الرِّيَاسَةِ وَالدَّوْلَةِ وَالْغَلَبَةِ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: مَنْ عَزَّ بَزَّ.

وَالْمَعْنَى: كَيْلَا يَكُونَ أَخْذُهُ غَلَبَةً وَأَثَرَةً جَاهِلِيَّةً.

وَمِنْهُ قَوْل الْحَسَنِ: اتَّخَذُوا عِبَادَ اللَّهِ خَوَلًا، وَمَالَ اللَّهِ دُوَلًا، يُرِيدُ: مَنْ غَلَبَ مِنْهُمْ أَخَذَهُ وَاسْتَأْثَرَ بِهِ.

وَقِيلَ: "الدُّولَةُ" مَا يُتَدَاوَلُ، كَالْغُرْفَةِ: اسْمُ مَا يُغْتَرَفُ، يَعْنِي: كَيْلَا يَكُونَ الْفَيْءُ شَيْئًا يَتَدَاوَلُهُ الْأَغْنِيَاءُ بَيْنَهُمْ وَيَتَعَاوَرُونَهُ، فَلَا يُصِيبُ الْفُقَرَاءَ، وَالدَّوْلَةُ -بِالْفَتْحِ-: بِمَعْنَى التَّدَاوُلِ، أَيْ: كَيْلَا يَكُونَ ذَا تَدَاوُلٍ بَيْنَهُمْ. أَوْ كَيْلَا يَكُونَ إِمْسَاكُهُ تَدَاوُلًا بَيْنَهُمْ لَا يُخْرِجُونَهُ إِلَى الْفُقَرَاءِ.

وَقُرِئَ: "دُولَةٌ" بِالرَّفْعِ عَلَى "كَانَ" التَّامَّةِ؛ كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾[1]]الْبَقَرَةِ: 280]. يَعْنِي كَيْلَا يَقَعَ دُولَةٌ جَاهِلِيَّةٌ وَلِيَنْقَطِعَ أَثَرُهَا أَوْ كَيْلَا يَكُونَ تَدَاوُلٌ لَهُ بَيْنَهُمْ. أَوْ كَيْلَا يَكُونَ شَيْءٌ مُتَعَاوِرٌ بَيْنَهُمْ غَيْرُ مُخْرَجٍ إِلَى الْفُقَرَاءِ.

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ﴾[2] مِنْ قِسْمَةِ غَنِيمَةٍ أَوْ فَيْءٍ، ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ﴾[3] عَنْ أَخْذِهِ مِنْهَا، "فَانْتَهُوا" عَنْهُ وَلَا تَتْبَعْهُ أَنْفُسُكُمْ، "وَاتَّقُوا اللَّهَ" أَنْ تُخَالِفُوهُ وَتَتَهَاوَنُوا بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ. أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ خَالَفَ رَسُولَهُ، وَالْأَجْوَدُ أَنْ يَكُونَ عَامًّا فِي كُلِّ مَا أَتَى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَنَهَى عَنْهُ، وَأَمْرُ الْفَيْءِ دَاخِلٌ فِي عُمُومِهِ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أَنَّهُ لَقِيَ رَجُلًا مُحْرِمًا وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ، فَقَالَ لَهُ: انْزِعْ عَنْكَ هَذَا، فَقَالَ الرَّجُلُ: اقْرَأْ عَلَيَّ فِي هَذَا آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ. قَالَ: نَعَمْ. فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[4]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾[1] بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: "ذِي الْقُرْبَى" وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ.

وَالَّذِي مَنَعَ الْإِبْدَالَ مِنْ: لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِمَا.

وَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أَخْرَجَ رَسُولَهُ مِنَ الْفُقَرَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[2]، وَأَنَّهُ يَتَرَفَّعُ بِرَسُولِ اللَّهِ عَنِ التَّسْمِيَةِ بِالْفَقِيرِ، وَأَنَّ الْإِبْدَالَ عَلَى ظَاهِرِ اللَّفْظِ مِنْ خِلَافِ الْوَاجِبِ فِي تَعْظِيمِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[3] فِي إِيمَانِهِمْ وَجِهَادِهِمْ.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[4]

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا﴾[5] مَعْطُوفٌ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، وَهُمُ الْأَنْصَارُ

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى عَطْفِ الْإِيمَانِ عَلَى الدَّارِ، وَلَا يُقَالُ: تَبَوَّءَا الْإِيمَانَ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ تَبَوَّءَا الدَّارَ وَأَخْلَصُوا الْإِيمَانَ، كَقَوْلِهِ:

عَلَفْتُهَا تِبنًا وَمَاءً بَـــــــــــــارِدَا

أَوْ: وَجَعَلُوا الْإِيمَانَ مُسْتَقِرًّا وَمُتَوَطِّنًا لَهُمْ لِتَمَكُّنِهِمْ مِنْهُ وَاسْتِقَامَتِهِمْ عَلَيْهِ، كَمَا جَعَلُوا الْمَدِينَةَ كَذَلِكَ. أَوْ: أَرَادَ دَارَ الْهِجْرَةِ وَدَارَ الْإِيمَانِ، فَأَقَامَ لَامَ التَّعْرِيفِ فِي الدَّارِ مَقَامَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَحَذَفَ الْمُضَافَ مِنْ دَارِ الْإِيمَانِ وَوَضَعَ الْمُضَافَ إِلَيْهِ مَقَامَهُ. أَوْ سَمَّى الْمَدِينَةَ، لِأَنَّهَا دَارُ الْهِجْرَةِ وَمَكَانُ ظُهُورِ الْإِيمَانِ بِالْإِيمَانِ "مِنْ قَبْلِهِمْ" مِنْ قَبْلِ الْمُهَاجِرِينَ، لِأَنَّهُمْ سَبَقُوهُمْ فِي تَبَوُّءِ دَارِ الْهِجْرَةِ وَالْإِيمَانِ.

وَقِيلَ: مِنْ قَبْلِ هِجْرَتِهِمْ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿وَلا يَجِدُونَ﴾[1]: وَلَا يَعْلَمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴿حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾[2]، أَيْ: طَلَبَ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ مِمَّا أُوتِيَ الْمُهَاجِرُونَ مِنَ الْفَيْءِ وَغَيْرِهِ، وَالْمُحْتَاجُ إِلَيْهِ يُسَمَّى حَاجَةً، يُقَالُ: خُذْ مِنْهُ حَاجَتَكَ، وَأَعْطَاهُ مِنْ مَالِهِ حَاجَتَهُ، يَعْنِي: أَنَّ نُفُوسَهُمْ لَمْ تَتْبَعْ مَا أَعْطَوْا وَلَمْ تَطْمَحْ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ.

﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[3]، أَيْ: خَلَّةٌ، وَأَصْلُهَا: خَصَاصُ الْبَيْتِ، وَهِيَ فُرُوجُهُ، وَالْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ: مَفْرُوضَةٌ خَصَاصَتُهُمْ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَسَّمَ أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ إِلَّا ثَلَاثَةَ نَفَرٍ مُحْتَاجِينَ: أَبَا دُجَانَةَ سِمَاكَ بْنَ خَرَشَةَ، وَسَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ، وَالْحَرْثَ بْنَ الصِّمَّةِ. وَقَالَ لَهُمْ: "إِنَّ شِئْتُمْ قَسَمْتُمْ لِلْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَدِيَارِكُمْ وَشَارَكْتُمُوهُمْ فِي هَذِهِ الْغَنِيمَةِ، وَإِنْ شِئْتُمْ كَانَتْ لَكُمْ دِيَارُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ وَلَمْ يُقْسَمْ لَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْغَنِيمَةِ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: بَلْ نَقْسِمُ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِنَا وَدِيَارِنَا وَنُؤْثِرُهُمْ بِالْغَنِيمَةِ وَلَا نُشَارِكُهُمْ فِيهَا فَنَزَلَتِ.

"الشُّحُّ" –بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ، وَقَدْ قُرِئَ بِهِمَا–: اللُّؤْمُ، وَأَنْ تَكُونَ نَفْسُ الرَّجُلِ كَزَّةً حَرِيصَةً عَلَى الْمَنْعِ، كَمَا قَالَ:

يُمَارِسُ نَفْسًا بَيْنَ جَنْبَيْهِ كَـــــزَّةً إِذَا هَمَّ بِالْمَعْرُوفِ قَالَتْ لَهُ: مَهْلَا

وَقَدْ أُضِيفَ إِلَى النَّفْسِ، لِأَنَّهُ غَرِيزَةٌ فِيهَا. وَأَمَّا الْبُخْلُ فَهُوَ الْمَنْعُ نَفْسُهُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾[4]]النِّسَاءِ: 128[

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾[5]: وَمَنْ غَلَّبَ مَا أَمَرَتْهُ بِهِ مِنْهُ وَخَالَفَ هَوَاهَا بِمَعُونَةِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[6]: الظَّافِرُونَ بِمَا أَرَادُوا. وَقُرِئَ: "وَمَنْ يُوَقَّ".

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ
وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا
إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[1]

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾[2]: عَطْفٌ أَيْضًا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ: وَهُمُ الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدُ.

وَقِيلَ: التَّابِعُونَ بِإِحْسَانٍ "غِلًّا" وَقُرِئَ: غِمْرًا، وَهُمَا الْحِقْدُ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ
أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ
وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾[3]

﴿لإِخْوَانِهِمْ﴾[4] الَّذِينَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ أُخُوَّةُ الْكُفْرِ، وَلِأَنَّهُمْ كَانُوا يُوَالُونَهُمْ وَيُؤَاخُونَهُمْ، وَكَانُوا مَعَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي السِّرِّ.

﴿وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾[5] فِي قِتَالِكُمْ أَحَدًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ وَالْمُسْلِمِينَ إِنْ حَمَلْنَا عَلَيْهِ. أَوْ فِي خِذْلَانِكُمْ وَإِخْلَافِ مَا وَعَدْنَاكُمْ مِنَ النُّصْرَةِ.

﴿لَكَاذِبُونَ﴾[6]، أَيْ: فِي مَوَاعِيدِهِمْ لِلْيَهُودِ. وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ النُّبُوَّةِ: لِأَنَّهُ إِخْبَارٌ بِالْغُيُوبِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قِيلَ: ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ﴾[1] بَعْدَ الْإِخْبَارِ بِأَنَّهُمْ لَا يَنْصُرُونَهُمْ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ عَلَى الْفَرْضِ وَالتَّقْدِيرِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[2]]الزُّمَرِ: 655]. وَكَمَا يَعْلَمُ مَا يَكُونُ، فَهُوَ يَعْلَمُ مَا لَا يَكُونُ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ.

وَالْمَعْنَى: وَلَئِنْ نَصَرَ الْمُنَافِقُونَ الْيَهُودَ لَيَنْهزِمَنَّ الْمُنَافِقُونَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ بَعْدَ ذَلِكَ، أَيْ: يُهْلِكُهُمُ اللَّهُ -تَعَالَى- وَلَا يَنْفَعُهُمْ نِفَاقُهُمْ لِظُهُورِ كُفْرِهِمْ. أَوْ لَيُهْزَمَنَّ الْيَهُودُ ثُمَّ لَا يَنْفَعُهُمْ نُصْرَةُ الْمُنَافِقِينَ.

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾[3]

﴿رَهْبَةً﴾[4]: مَصْدَرُ رُهِبَ الْمَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَشَدُّ مَرْهُوبِيَّةً.

وَقَوْلُهُ: ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾[5]: دَلَالَةً عَلَى نِفَاقِهِمْ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ لَكِنْ فِي الْعَلَانِيَةِ خَوْفَ اللَّهِ وَأَنْتُمْ أَهْيَبُ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَأَنَّهُمْ كَانُوا يَرْهَبُونَ مِنَ اللَّهِ حَتَّى تَكُونَ رَهْبَتُهُمْ مِنْهُمْ أَشَدَّ.

قُلْتُ: مَعْنَاهُ أَنَّ رَهْبَتَهُمْ فِي السِّرِّ مِنْكُمْ أَشَدُّ مِنْ رَهْبَتِهِمْ مِنَ اللَّهِ الَّتِي يُظْهِرُونَهَا لَكُمْ -وَكَانُوا يُظْهِرُونَ لَهُمْ رَهْبَةً شَدِيدَةً مِنَ اللَّهِ-.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ أَنَّ الْيَهُودَ يَخَافُونَكُمْ فِي صُدُورِهِمْ أَشَدَّ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنَ اللَّهِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا أُولِي بَأْسٍ وَنَجْدَةٍ، فَكَانُوا يَتَشَجَّعُونَ لَهُمْ مَعَ إِضْمَارِ الْخِيفَةِ فِي صُدُورِهِمْ "لَا يَفْقَهُونَ" لَا يَعْلَمُونَ اللَّهَ وَعَظَمَتَهُ حَتَّى يَخْشَوْهُ حَقَّ خَشْيَتِهِ.

﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[1]: لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مُقَاتَلَتِكُمْ "جَمِيعًا" مُجْتَمِعِينَ مُتَسَانِدِينَ، يَعْنِي الْيَهُودَ وَالْمُنَافِقِينَ "إِلَّا" كَائِنِينَ ﴿فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ﴾[2] بِالْخَنَادِقِ وَالدُّرُوبِ، ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾[3] دُونَ أَنْ يَصْحَرُوا لَكُمْ وَيُبَارِزُوكُمْ، لِقَذْفِ اللَّهِ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَأَنَّ تَأْيِيدَ اللَّهِ -تَعَالَى- وَنُصْرَتَهُ مَعَكُمْ. وَقُرِئَ: "جُدْرٍ"، بِالتَّخْفِيفِ. وَجِدَارٍ. وَجَدَرٍ وَجَدْرٍ، وَهُمَا: الْجِدَارُ.

﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾[4]، يَعْنِي أَنَّ الْبَأْسَ الشَّدِيدَ الَّذِي يُوصَفُونَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ بَيْنَهُمْ إِذَا اقْتَتَلُوا، وَلَوْ قَاتَلُوكُمْ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ ذَلِكَ الْبَأْسُ وَالشِّدَّةُ، لِأَنَّ الشُّجَاعَ يَجْبُنُ وَالْعَزِيزَ يَذِلُّ عِنْدَ مُحَارَبَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾[5]: مُجْتَمَعِيْنِ ذَوِي أُلْفَةٍ وَاتِّحَادٍ.

﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾[6]: مُتَفَرِّقَةٌ لَا أُلْفَةَ بَيْنَهَا، يَعْنِي أَنَّ بَيْنَهُمْ إِحَنًا وَعَدَاوَاتٍ، فَلَا يَتَعَاضَدُونَ حَقَّ التَّعَاضُدِ، وَلَا يَرْمُونَ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ.

وَهَذَا تَجْسِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَشْجِيعٌ لِقُلُوبِهِمْ عَلَى قِتَالِهِمْ ﴿قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾[7] أَنَّ تَشَتُّتَ الْقُلُوبِ مِمَّا يُوهِنُ قُوَاهُمْ وَيُعِينُ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ، ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[8]، أَيْ: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ أَهْلِ بَدْرٍ فِي زَمَانٍ قَرِيبٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: "بِمَ انْتَصَبَ "قَرِيبًا"؟

قُلْتُ: بِمَثَلِ، عَلَى: كَوُجُودِ مَثَلِ أَهْلِ بَدْرٍ قَرِيبًا.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾[1] سُوءَ عَاقِبَةِ كُفْرِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، مِنْ قَوْلِهِمْ كَلَأٌ وَبِيلٌ: وَخِيمٌ سَيِّئُ الْعَاقِبَةِ، يَعْنِي: ذَاقُوا عَذَابَ الْقَتْلِ فِي الدُّنْيَا "وَلَهُمْ" فِي الْآخِرَةِ عَذَابَ النَّارِ مِثْلَ الْمُنَافِقِينَ فِي إِغْرَائِهِمُ الْيَهُودَ عَلَى الْقِتَالِ وَوَعْدِهِمْ إِيَّاهُمُ النَّصْرَ، ثُمَّ مُتَارَكَتِهِمْ لَهُمْ وَإِخْلَافِهِمْ.

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾[2] إِذَا اسْتَغْوَى الْإِنْسَانَ بِكَيْدِهِ ثُمَّ تَبَرَّأَ مِنْهُ فِي الْعَاقِبَةِ، وَالْمُرَادُ اسْتِغْوَاؤُهُ قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَوْلُهُ لَهُمْ: ﴿لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾[3] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾[4]]الْحَشْرِ: 16].

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: "خَالِدَانِ فِيهَا"، عَلَى أَنَّهُ خَبَرُ أَنَّ، وَ"فِي النَّارِ" لَغْوٌ، وَعَلَى الْقِرَاءَةِ الْمَشْهُورَةِ: الظَّرْفُ مُسْتَقِرٌّ، وَخَالِدَيْنِ فِيهَا: حَالٌ.

وَقُرِئَ: "أَنَا بَرِيءٌ" وَعَاقِبَتُهُمَا بِالرَّفْعِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[5]

كَرَّرَ الْأَمْرَ بِالتَّقْوَى تَأْكِيدًا: وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ، لِأَنَّهُ قُرِنَ بِمَا هُوَ عَمَلٌ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي تَرْكِ الْمَعَاصِي لِأَنَّهُ قُرِنَ بِمَا يَجْرِي مَجْرَى الْوَعِيدِ. وَالْغَدُ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ، سَمَّاهُ بِالْيَوْمِ الَّذِي يَلِي يَوْمَكَ تَقْرِيبًا لَهُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَعَنِ الْحَسَنِ: لَمْ يَزَلْ يُقَرِّبْهُ حَتَّى جَعَلَهُ كَالْغَدِ. وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾[1]يُونُسَ: 244]. يُرِيدُ: تَقْرِيبَ الزَّمَانِ الْمَاضِي. وَقِيلَ: عَبَّرَ عَنِ الْآخِرَةِ بِالْغَدِ، كَأَنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ نَهَارَانِ: يَوْمٌ وَغَدٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى تَنْكِيرِ النَّفْسِ وَالْغَدِ؟

قُلْتُ: أَمَّا تَنْكِيرُ النَّفْسِ فَاسْتِقْلَالًا لِلْأَنْفُسِ النَّوَاظِرِ فِيمَا قَدَّمْنَ لِلْآخِرَةِ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ فِي ذَلِكَ. وَأَمَّا تَنْكِيرُ الْغَدِ فَلِتَعْظِيمِهِ وَإِبْهَامِ أَمْرِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لِغَدٍ لَا يُعْرَفُ كُنْهُهُ لِعِظَمِهِ.

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ: مَكْتُوبٌ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ: وَجَدْنَا مَا عَمِلْنَا، رَبِحْنَا مَا قَدَّمْنَا. خَسِرْنَا مَا خَلَّفْنَا.

﴿نَسُوا اللَّهَ﴾[2]: نَسُوا حَقَّهُ، فَجَعَلَهُمْ نَاسِينَ حَقَّ أَنْفُسِهِمْ بِالْخِذْلَانِ، حَتَّى لَمْ يَسْعَوْا لَهَا بِمَا يَنْفَعُهُمْ عِنْدَهُ. أَوْ فَأَرَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَهْوَالِ مَا نَسُوا فِيهِ أَنْفُسَهُمْ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾[3]]إِبْرَاهِيمَ: 43.[.

﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[4]

هَذَا تَنْبِيهٌ لِلنَّاسِ وَإِيذَانٌ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ لِفَرْطِ غَفْلَتِهِمْ وَقِلَّةِ فِكْرِهِمْ فِي الْعَاقِبَةِ وَتَهَالُكِهِمْ عَلَى إِيثَارِ الْعَاجِلَةِ وَاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ: كَأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْبَوْنَ الْعَظِيمَ بَيْنَ أَصْحَابِهِمَا، وَأَنَّ الْفَوْزَ مَعَ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، فَمِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَعْلَمُوا ذَلِكَ وَيُنَبِّهُوا عَلَيْهِ، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَعُقُّ أَبَاهُ: هُوَ أَبُوكَ، تَجْعَلُهُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ، فَتُنَبِّهُهُ بِذَلِكَ عَلَى حَقِّ الْأُبُوَّةِ الَّذِي يَقْتَضِي الْبِرَّ وَالتَّعَطُّفَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَقَدِ اسْتَدَلَّ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يُقْتَلُ بِالْكَافِرِ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ لَا يَمْلِكُونَ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَهْرِ.

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[1]

هَذَا تَمْثِيلٌ وَتَخْيِيلٌ، كَمَا مَرَّ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾[2]]الْأَحْزَاب: 72]. وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾[3].

وَالْغَرَضُ: تَوْبِيخُ الْإِنْسَانِ عَلَى قَسْوَةِ قَلْبِهِ وَقِلَّةِ تَخَشُّعِهِ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِ قَوَارِعِهِ وَزَوَاجِرِهِ.

وَقُرِئَ: "مُصَدَّعًا" عَلَى الْإِدْغَامِ.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ﴾[4] إِشَارَةً إِلَى هَذَا الْمَثَلِ وَإِلَى أَمْثَالِهِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ التَّنْزِيلِ.

{﴿الْغَيْبِ﴾[5]: الْمَعْدُومِ.

﴿وَالشَّهَادَةِ﴾[6]: الْمَوْجُودِ الْمُدْرَكِ كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهُ.

وَقِيلَ: مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ وَمَا شَاهَدُوهُ.

وَقِيلَ: السِّرُّ وَالْعَلَانِيَةُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ}[1].

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2]

﴿الْقُدُّوسُ﴾[3] بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ -وَقَدْ قُرِئَ بِهِمَا- الْبَلِيغُ فِي النَّزَاهَةِ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ. وَنَظِيرُهُ: السُّبُّوحُ، وَفِي تَسْبِيحِ الْمَلَائِكَةِ: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ.

وَ﴿السَّلَامُ﴾[4] بِمَعْنَى السَّلَامَةِ. وَمِنْهُ: ﴿دَارُ السَّلامِ﴾[5]]الْأَنْعَامِ: 127]، وَ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾[6]]الْأَنْعَامِ: 544]. وُصِفَ بِهِ مُبَالَغَةً فِي وَصْفِ كَوْنِهِ سَلِيمًا مِنَ النَّقَائِصِ. أَوْ فِي إِعْطَائِهِ السَّلَامَةَ.

وَ﴿الْمُؤْمِنُ﴾[7]: وَاهِبُ الْأَمْنِ.

وَقُرِئَ بِفَتْحِ الْمِيمِ بِمَعْنَى الْمُؤْمَنِ بِهِ عَلَى حَذْفِ الْجَارِّ، كَمَا تَقُولُ فِي قَوْمِ مُوسَى مِنْ قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾[8]]الْأَعْرَافِ: 1555]. الْمُخْتَارُونَ بِلَفْظِ صِفَةِ السَّبْعِينَ.

---

[1] وردت هذه العبارة في الأصل بعد إيراده لقوله -تعالى-: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

وَ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾[1]: الرَّقِيبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْحَافِظُ لَهُ، مُفَيْعِلٌ مِنَ الْأَمْنِ، إِلَّا أَنَّ هَمْزَتَهُ قُلِبَتْ هَاءً.

وَ﴿الْجَبَّارُ﴾[2]: الْقَاهِرُ الَّذِي جَبَرَ خَلْقَهُ عَلَى مَا أَرَادَ، أَيْ: أَجْبَرَهُ،

وَ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾[3]: الْبَلِيغُ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ. وَقِيلَ: الْمُتَكَبِّرُ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ.

وَ﴿الْخَالِقُ﴾[4]: الْمُقَدِّرُ لِمَا يُوجِدُهُ.

وَ﴿الْبَارِئُ﴾[5]: الْمُمَيِّزُ بَعْضَهُ مِنْ بَعْضٍ بِالْأَشْكَالِ الْمُخْتَلِفَةِ.

وَ﴿الْمُصَوِّرُ﴾[6]: الْمُمَثِّلُ. وَعَنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ أَنَّهُ قَرَأَ: "الْبَارِئُ الْمُصَوَّرَ" بِفَتْحِ الْوَاوِ وَنَصْبِ الرَّاءِ، أَيِ: الَّذِي يَبْرَأُ الْمُصَوَّرَ أَيْ: يُمَيِّزُ مَا يُصَوِّرُهُ بِتَفَاوُتِ الْهَيْئَاتِ.

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: "وَمَا فِي الْأَرْضِ".

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: سَأَلْتُ حَبِيبِي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَنِ اسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ، فَقَالَ: "عَلَيْكَ بِآخِرِ الْحَشْرِ فَأَكْثِرْ قِرَاءَتَهُ"، فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ / 2 / 217أ، فَأَعَادَ عَلَيَّ، فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ فَأَعَادَ عَلَيَّ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَشْرِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

سورة المدثر

سورة الممتحنة

مَدَنِيَّةٌ،
وَهِيَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ آيَةً
[نَزَلَتْ بَعْدَ الْأَحْزَابِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[1]

رُوِيَ أَنَّ مَوْلَاةً لِأَبِي عَمْرِو بْنِ صَيْفِيِّ بْنِ هَاشِمٍ يُقَالُ لَهَا سَارَّةُ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِالْمَدِينَةِ، وَهُوَ يَتَجَهَّزُ لِلْفَتْحِ، فَقَالَ لَهَا: أَمُسْلِمَةً جِئْتِ؟ قَالَتْ: لَا. قَالَ: أَفَمُهَاجِرَةً جِئْتِ؟ قَالَتْ: لَا. قَالَ: فَمَا جَاءَ بِكِ؟ قَالَتْ: كُنْتُمُ الْأَهْلَ وَالْمَوَالِيَ وَالْعَشِيرَةَ، وَقَدْ ذَهَبَتِ الْمُوَالِي، تَعْنِي: قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ، فَاحْتَجْتُ حَاجَةً شَدِيدَةً.

فَحَثَّ عَلَيْهَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَكَسَوْهَا وَحَمَلُوهَا وَزَوَّدُوهَا، فَأَتَاهَا حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ وَأَعْطَاهَا عَشَرَةَ دَنَانِيرَ وَكَسَاهَا بُرْدًا، وَاسْتَحْمَلَهَا كِتَابًا إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ نُسْخَتُهُ:

---

[1] سورة ، الآية .

مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، اعْلَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُرِيدُكُمْ فَخُذُوا حِذْرَكُمْ، فَخَرَجَتْ سَارَّةُ وَنَزَلَ جِبْرِيلُ بِالْخَبَرِ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلِيًّا وَعَمَّارًا وَعُمَرَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ وَأَبَا مَرْثَدٍ -وَكَانُوا فُرْسَانًا- وَقَالَ: انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ مِنْ حَاطِبٍ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَخُذُوهُ مِنْهَا وَخَلُّوهَا، فَإِنْ أَبَتْ فَاضْرِبُوا عُنُقَهَا، فَأَدْرَكُوهَا فَجَحَدَتْ وَحَلَفَتْ، فَهَمُّوا بِالرُّجُوعِ، فَقَالَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: وَاللهِ مَا كَذَبْنَا وَلَا كَذِبَ رَسُولُ اللَّهِ، وَسَلَّ سَيْفَهُ، وَقَالَ: أَخْرِجِي الْكِتَابَ أَوْ تَضَعِي رَأْسَكِ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِ شَعْرِهَا.

وَرُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَمَّنَ جَمِيعَ النَّاسِ يَوْمَ الْفَتْحِ إِلَّا أَرْبَعَةً: هِيَ أَحَدُهُمْ، فَاسْتَحْضَرَ رَسُولُ اللَّهِ حَاطِبًا وَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَفَرْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلَا غَشَشْتُكَ مُنْذُ نَصَحْتُكَ، وَلَا أَحْبَبْتُهُمْ مُنْذُ فَارَقْتُهُمْ، وَلَكِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ. وَرَوَى: عَزِيزًا فِيهِمْ، أَيْ: غَرِيبًا، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكُلُّ مَنْ مَعَكُمْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ أَهَالِيَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ غَيْرِي، فَخَشِيتُ عَلَى أَهْلِي، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- يُنْزِلُ عَلَيْهِمْ بَأْسَهُ. وَأَنَّ كِتَابِي لَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا، فَصَدَّقَهُ وَقَبِلَ عُذْرَهُ، فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: "وَمَا يُدْرِيكَ يَا عُمَرُ، لَعَلَّ اللَّهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ لَهُمُ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ" فَفَاضَتْ عَيْنَا عُمَرَ وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَنَزَلَتْ.

عَدَّى "اتَّخَذَ" إِلَى مَفْعُولَيْهِ، وَهُمَا عَدُوِّي، أَوْلِيَاءَ.

وَالْعَدُوُّ: فَعُولٌ، مِنْ عَدَا، كَعَفُوٍّ مِنْ عَفَا، وَلِكَوْنِهِ عَلَى زِنَةِ الْمَصْدَرِ أُوقِعَ عَلَى الْجَمْعِ إِيقَاعَهُ عَلَى الْوَاحِدِ.

فَإِنْ قُلْتَ: "تُلْقُونَ" بِمَ يَتَعَلَّقُ؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ "بِلَا تَتَّخِذُوا" حَالًا مِنْ ضَمِيرِهِ، وَبِأَوْلِيَاءَ صِفَةً لَهُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْتِئْنَافًا.

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا جَعَلْتَهُ صِفَةً لِأَوْلِيَاءَ وَقَدْ جَرَى عَلَى غَيْرِ مَنْ هُوَ لَهُ، فَأَيْنَ الضَّمِيرُ الْبَارِزُ، وَهُوَ قَوْلُكَ: تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ أَنْتُمْ بِالْمَوَدَّةِ؟

قُلْتُ: ذَلِكَ إِنَّمَا اشْتَرَطُوهُ فِي الْأَسْمَاءِ دُونَ الْأَفْعَالِ، لَوْ قِيلَ: أَوْلِيَاءَ مُلْقِينَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ عَلَى الْوَصْفِ. لَمَا كَانَ بُدٌّ مِنَ الضَّمِيرِ الْبَارِزِ، وَالْإِلْقَاءُ عِبَارَةٌ عَنْ إِيصَالِ الْمَوَدَّةِ وَالْإِفْضَاءِ بِهَا إِلَيْهِمْ: يُقَالُ: أَلْقَى إِلَيْهِ خَرَاشِيَّ صَدْرِهِ، وَأَفْضَى إِلَيْهِ بِقُشُورِهِ.

وَالْبَاءُ فِي بِالْمَوَدَّةِ" إِمَّا زَائِدَةٌ مُؤَكِّدَةٌ لِلتَّعَدِّي مِثْلَهَا فِي: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1]]الْبَقَرَةِ: 1955].

وَإِمَّا ثَابِتَةٌ عَلَى أَنَّ مَفْعُولَ تُلْقُونَ مَحْذُوفٌ، مَعْنَاهُ: تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ أَخْبَارَ رَسُولِ اللَّهِ بِسَبَبِ الْمَوَدَّةِ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾[2]، أَيْ: تُفْضُونَ إِلَيْهِمْ بِمَوَدَّتِكُمْ سِرًّا. أَوْ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ أَسْرَارَ رَسُولِ اللَّهِ بِسَبَبِ الْمَوَدَّةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾[3] حَالٌ مِمَّاذَا؟

قُلْتُ: إِمَّا مِنْ ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾[4]، وَإِمَّا مِنْ ﴿تُلْقُونَ﴾[5]، أَيْ: لَا تَتَوَلَّوْهُمْ أَوْ تُوَادُّونَهُمْ وَهَذِهِ حَالُهُمْ.

وَ﴿يُخْرِجُونَ﴾[6] اسْتِئْنَافٌ كَالتَّفْسِيرِ لِكُفْرِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ. أَوْ حَالٌ مِنْ كَفَرُوا.

وَ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا﴾[7]: تَعْلِيلٌ لِيُخْرِجُونَ، أَيْ: يُخْرِجُونَكُمْ لِإِيمَانِكُمْ.

وَ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ﴾[8]: مُتَعَلِّقٌ بِلَا تَتَّخِذُوا، يَعْنِي: لَا تَتَوَلَّوْا أَعْدَائِي إِنْ كُنْتُمْ أَوْلِيَائِي.

وَقَوْلُ النَّحْوِيِّينَ فِي مِثْلِهِ: هُوَ شَرْطٌ جَوَابُهُ مَحْذُوفٌ لِدَلَالَةِ مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ.

وَ﴿تُسِرُّونَ﴾[9] اسْتِئْنَافٌ، وَمَعْنَاهُ: أَيُّ طَائِلٍ لَكُمْ فِي إِسْرَارِكُمْ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الْإِخْفَاءَ وَالْإِعْلَانَ سِيَّانِ فِي عِلْمِي لَا تَفَاوُتَ بَيْنَهُمَا، وَأَنَا مُطْلِعٌ رَسُولِي عَلَى مَا تُسِرُّونَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

[9] سورة ، الآية .

﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ﴾[1]: وَمَنْ يَفْعَلْ هَذَا الْإِسْرَارَ فَقَدْ أَخْطَأَ طَرِيقَ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ.

وَقَرَأَ الْجَحْدَرِيُّ: "لِمَا جَاءَكُمْ"، أَيْ: كَفَرُوا لِأَجْلِ مَا جَاءَكُمْ، بِمَعْنَى: أَنَّ مَا كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ سَبَبَ إِيمَانِهِمْ جَعَلُوهُ سَبَبًا لِكُفْرِهِمْ.

﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ﴾[2]: إِنْ يَظْفَرُوا بِكُمْ وَيَتَمَكَّنُوا مِنْكُمْ، ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾[3] خَالِصِي الْعَدَاوَةِ، وَلَا يَكُونُوا لَكُمْ أَوْلِيَاءَ كَمَا أَنْتُمْ، ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ﴾[4] بِالْقِتَالِ وَالشَّتْمِ، وَتَمَنَّوْا لَوْ تَرْتَدُّونَ عَنْ دِينِكُمْ، فَإِذَنْ مَوَدَّةُ أَمْثَالِهِمْ وَمُنَاصَحَتُهُمْ خَطَأٌ عَظِيمٌ مِنْكُمْ وَمُغَالَطَةٌ لِأَنْفُسِكُمْ، وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا﴾[5]]آلِ عِمْرَانَ: 1188].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ أَوْرَدَ جَوَابَ الشَّرْطِ مُضَارِعًا مِثْلَهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَوَدُّوا﴾[6] بِلَفْظِ الْمَاضِي؟

قُلْتُ: الْمَاضِي، وَإِنْ كَانَ يَجْرِي فِي بَابِ الشَّرْطِ مَجْرَى الْمُضَارِعِ فِي عِلْمِ الْإِعْرَابِ، فَإِنَّ فِيهِ نُكْتَةً، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَوَدُّوا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ كُفْرَكُمْ وَارْتِدَادَكُمْ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُلْحِقُوا بِكُمْ مَضَارَّ الدُّنْيَا وَالدِّينِ جَمِيعًا: مِنْ قَتْلِ الْأَنْفُسِ، وَتَمْزِيقِ الْأَعْرَاضِ، وَرَدُّكُمْ كُفَّارًا أَسْبَقُ الْمَضَارِّ عِنْدَهُمْ وَأَوَّلُهَا، لِعِلْمِهِمْ أَنَّ الدِّينَ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ، لِأَنَّكُمْ بَذَّالُونَ لَهَا دُونَهُ، وَالْعَدُوُّ أَهَمُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ أَنْ يَقْصِدَ أَعَزَّ شَيْءٍ عِنْدَ صَاحِبِهِ.

﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[7]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾[1]، أَيْ: قَرَابَاتُكُمْ، ﴿وَلا أَوْلادُكُمْ﴾[2] الَّذِينَ تُوَالُونَ الْكُفَّارَ مِنْ أَجْلِهِمْ وَتَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِمْ مُحَامَاةً عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾[3] وَبَيْنَ أَقَارِبِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾[4]]عَبَسَ: 344]. الْآيَةَ.

فَمَا لَكُمْ تَرْفُضُونَ حَقَّ اللَّهِ مُرَاعَاةً لِحَقِّ مَنْ يَفِرُّ مِنْكُمْ غَدًا: خَطَأً رَأْيَهُمْ فِي مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ بِمَا يَرْجِعُ إِلَى حَالِ مَنْ وَالَوْهُ أَوَّلًا، ثُمَّ بِمَا يَرْجِعُ إِلَى حَالِ مَنِ اقْتَضَى تِلْكَ الْمُوَالَاةَ ثَانِيًا، لِيُرِيَهُمْ أَنَّ مَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ نَظَرْتَ فِيهِ وَجَدْتَهُ بَاطِلًا.

قُرِئَ: "يُفْصَلُ وَيُفَصَّلُ"، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

وَيَفْصِلُ وَيُفَصِّلُ، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، وَهُوَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-. وَنَفْصِلُ وَنُفَصِّلُ، بِالنُّونِ.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[5]

وَقُرِئَ: "أُسْوَةٌ وَإِسْوَةٌ"، وَهُوَ اسْمُ الْمُؤْتَسَى بِهِ، أَيْ: كَانَ فِيهِمْ مَذْهَبٌ حَسَنٌ مَرْضِيٌّ بِأَنْ يُؤْتَسَى بِهِ وَيُتَّبَعَ أَثَرُهُ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ لِكُفَّارِ قَوْمِهِمْ مَا قَالُوا، حَيْثُ كَاشَفُوهُمْ بِالْعَدَاوَةِ وَقَشَّرُوا لَهُمُ الْعَصَا، وَأَظْهَرُوا الْبَغْضَاءَ وَالْمَقْتَ، وَصَرَّحُوا بِأَنَّ سَبَبَ عَدَاوَتِهِمْ وَبُغْضَائِهِمْ لَيْسَ إِلَّا كُفْرَهُمْ بِاللَّهِ، وَمَا دَامَ هَذَا السَّبَبُ قَائِمًا كَانَتِ الْعَدَاوَةُ قَائِمَةً، حَتَّى إِنْ أَزَالُوهُ وَآمَنُوا بِاللَّهِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَحْدَهُ انْقَلَبَتِ الْعَدَاوَةُ مُوَالَاةً، وَالْبَغْضَاءُ مَحَبَّةً، وَالْمَقْتُ مِقَةً، فَأَفْصَحُوا عَنْ مَحْضِ الْإِخْلَاصِ.

وَمَعْنَى: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾[1]: وَبِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ: أَنَّا لَا نَعْتَدُّ بِشَأْنِكُمْ وَلَا بِشَأْنِ آلِهَتِكُمْ، وَمَا أَنْتُمْ عِنْدَنَا عَلَى شَيْءٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مِمَّ اسْتُثْنِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾[2]؟

قُلْتُ: مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[3]، لِأَنَّهُ أَرَادَ بِالْأُسْوَةِ الْحَسَنَةِ: قَوْلَهُمُ الَّذِي حَقَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَأْتَسُوا بِهِ وَيَتَّخِذُونَهُ سُنَّةً يَسْتَنُّونَ بِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[4] مُسْتَثْنًى مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي هُوَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، فَمَا بَالُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾[5]، وَهُوَ غَيْرُ حَقِيقٍ بِالِاسْتِثْنَاءِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[6]]الْمَائِدَةِ: 177]؟

قُلْتُ: أَرَادَ اسْتِثْنَاءَ جُمْلَةِ قَوْلِهِ لِأَبِيهِ، وَالْقَصْدَ إِلَى مَوْعِدِ الِاسْتِغْفَارِ لَهُ، وَمَا بَعْدَهُ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ وَتَابِعٌ لَهُ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَنَا أَسْتَغْفِرُ لَكَ وَمَا فِي طَاقَتِي إِلَّا الِاسْتِغْفَارُ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾[7]؟

قُلْتُ: بِمَا قَبْلَ الِاسْتِثْنَاءِ، وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأُسْوَةِ الْحَسَنَةِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: قُولُوا: رَبَّنَا، أَمْرًا مِنَ اللَّهِ -تَعَالَى- لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَقُولُوهُ، وَتَعْلِيمًا مِنْهُ لَهُمْ تَتْمِيمًا لِمَا وَصَّاهُمْ بِهِ مِنْ قَطْعِ الْعَلَائِقِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ، وَالِائْتِسَاءِ بِإِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ فِي الْبَرَاءَةِ مِنْهُمْ، وَتَنْبِيهًا عَلَى الْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ وَالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ فِتْنَةِ أَهْلِ الْكُفْرِ، وَالِاسْتِغْفَارِ مِمَّا فَرَطَ مِنْهُمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: "بُرَآءُ" كَشُرَكَاءَ. وَبِرَاءٌ كَظِرَافٍ. وَبُرَاءُ عَلَى إِبْدَالِ الضَّمِّ مِنَ الْكَسْرِ، كَرُخَالٍ وَرُبَابٍ. وَبَرَاءٌ عَلَى الْوَصْفِ بِالْمَصْدَرِ. وَالْبَرَاءُ وَالْبَرَاءَةُ كَالظَّمَاءِ وَالظَّمَاءَةِ.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1]

ثُمَّ كَرَّرَ الْحَثَّ عَلَى الِائْتِسَاءِ بِإِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ تَقْرِيرًا وَتَأْكِيدًا عَلَيْهِمْ، وَلِذَلِكَ جَاءَ بِهِ مُصَدَّرًا بِالْقَسَمِ لِأَنَّهُ الْغَايَةُ فِي التَّأْكِيدِ، وَأَبْدَلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿لَكُمْ﴾[2] قَوْلَهُ: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾[3]، وَعَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[4]، فَلَمْ يَتْرُكْ نَوْعًا مِنَ التَّأْكِيدِ إِلَّا جَاءَ بِهِ.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[5]

وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ: تَشَدَّدَ الْمُؤْمِنُونَ فِي عَدَاوَةِ آبَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ وَجَمِيعِ أَقْرِبَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمُقَاطَعَتِهِمْ.

فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– مِنْهُمُ الْجِدَّ وَالصَّبْرَ عَلَى الْوَجْهِ الشَّدِيدِ وَطُولِ التَّمَنِّي لِلسَّبَبِ الَّذِي يُبِيحُ لَهُمُ الْمُوَالَاةَ وَالْمُوَاصَلَةَ. رَحِمَهُمْ فَوَعَدَهُمْ تَيْسِيرَ مَا تَمَنَّوْهُ.

فَلَمَّا يَسَّرَ فَتْحَ مَكَّةَ أَظْفَرَهُمُ اللَّهُ بِأُمْنِيَّتِهِمْ، فَأَسْلَمَ قَوْمُهُمْ، وَتَمَّ بَيْنَهُمْ مِنَ التَّحَابِّ وَالتَّصَافِي مَا تَمَّ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُمَّ حَبِيبَةَ ، فَلَانَتْ عِنْدَ ذَلِكَ عَرِيكَةُ أَبِي سُفْيَانَ وَاسْتَرْخَتْ شَكِيمَتُهُ فِي الْعَدَاوَةِ، وَكَانَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ قَدْ أَسْلَمَتْ وَهَاجَرَتْ مَعَ زَوْجِهَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَحْشٍ إِلَى الْحَبَشَةِ، فَتَنَصَّرَ وَأَرَادَهَا عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ، فَأَبَتْ وَصَبَرَتْ عَلَى دِينِهَا، وَمَاتَ زَوْجُهَا، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى النَّجَاشِيِّ فَخَطَبَهَا عَلَيْهِ، وَسَاقَ عَنْهُ إِلَيْهَا مَهْرَهَا أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ، وَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَاهَا فَقَالَ: ذَلِكَ الْفَحْلُ لَا يُقْدَعُ أَنْفُهُ.

وَ﴿عَسَى﴾[1]: وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى عَادَاتِ الْمُلُوكِ حَيْثُ يَقُولُونَ فِي بَعْضِ الْحَوَائِجِ: عَسَى أَوْ لَعَلَّ: فَلَا تَبْقَى شُبْهَةٌ لِلْمُحْتَاجِ فِي تَمَامِ ذَلِكَ. أَوْ قَصَدَ بِهِ إِطْمَاعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهُ قَدِيرٌ عَلَى تَقْلِيبِ الْقُلُوبِ وَتَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ وَتَسْهِيلِ أَسْبَابِ الْمَوَدَّةِ.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2] لِمَنِ أَسْلَمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[3]

﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾[4] بَدَلٌ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ. وَكَذَلِكَ ﴿أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾[5] مِنَ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ. وَالْمَعْنَى: لَا يَنْهَاكُمْ عَنْ مَبَرَّةِ هَؤُلَاءِ، وَإِنَّمَا يَنْهَاكُمْ عَنْ تَوَلِّي هَؤُلَاءِ.

وَهَذَا أَيْضًا رَحْمَةٌ لَهُمْ لِتَشَدُّدِهِمْ وَجَدِّهِمْ فِي الْعَدَاوَةِ مُتَقَدِّمَةً لِرَحْمَتِهِ بِتَيْسِيرِ إِسْلَامِ قَوْمِهِمْ، حَيْثُ رَخَّصَ لَهُمْ فِي صِلَةِ مَنْ لَمْ يُجَاهِرْ مِنْهُمْ بِقِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِمْ خُزَاعَةَ وَكَانُوا صَالَحُوا رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَلَى أَنْ لَا يُقَاتِلُوهُ وَلَا يُعِينُوا عَلَيْهِ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَكَّةَ وَلَمْ يُهَاجِرُوا. وَقِيلَ: هُمُ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ.

وَقِيلَ: قَدِمَتْ عَلَى أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ أُمُّهَا قَتِيلَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْعُزَّى، وَهِيَ مُشْرِكَةٌ بِهَدَايَا فَلَمْ تَقْبَلْهَا وَلَمْ تَأْذَنْ لَهَا فِي الدُّخُولِ، فَنَزَلَتْ، فَأَمَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ– أَنْ تُدْخِلَهَا وَتَقْبَلَ مِنْهَا وَتُكْرِمَهَا وَتُحْسِنَ إِلَيْهَا.

وَعَنْ قَتَادَةَ : نَسَخَتْهَا آيَةُ الْقِتَالِ.

﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾[1] وَتَقْضُوا إِلَيْهِمْ بِالْقِسْطِ وَلَا تَظْلِمُوهُمْ. وَنَاهِيكَ بِتَوْصِيَةِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا الْقِسْطَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِهِ وَيَتَحَامَوْا ظُلْمَهُمْ، مُتَرْجِمَةً عَنْ حَالِ مُسْلِمٍ يَجْتَرِئُ عَلَى ظُلْمِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾[2]

﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾[3] سَمَّاهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ لِتَصْدِيقِهِنَّ بِأَلْسِنَتِهِنَّ وَنُطْقِهِنَّ بِكَلِمَةِ الشَّهَادَةِ وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهُنَّ مَا يُنَافِي ذَلِكَ. أَوْ لِأَنَّهُنَّ مُشَارِفَاتٌ لِثَبَاتِ إِيمَانِهِمْ بِالِامْتِحَانِ "فَامْتَحِنُوهُنَّ" فَابْتَلُوهُنَّ بِالْحَلِفِ وَالنَّظَرِ فِي الْأَمَارَاتِ لِيَغْلِبَ عَلَى ظُنُونِكُمْ صِدْقُ إِيمَانِهِنَّ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ لِلْمُمْتَحَنَةِ: "بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا خَرَجْتِ مِنْ بُغْضِ زَوْجٍ، بِاللَّهِ مَا خَرَجْتِ رَغْبَةً عَنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ، بِاللَّهِ مَا خَرَجْتِ الْتِمَاسَ دُنْيَا، بِاللَّهِ مَا خَرَجْتِ إِلَّا حُبًّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ".

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾[1] مِنْكُمْ لِأَنَّكُمْ لَا تَكْسِبُونَ فِيهِ عِلْمًا تَطْمَئِنُّ مَعَهُ نُفُوسُكُمْ، وَإِنِ اسْتَحْلَفْتُمُوهُنَّ وَرَزَتْكُمْ أَحْوَالُهُنَّ، وَعِنْدَ اللَّهِ حَقِيقَةُ الْعِلْمِ بِهِ.

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾[2] الْعِلْمَ الَّذِي تَبْلُغُهُ طَاقَتُكُمْ وَهُوَ الظَّنُّ الْغَالِبُ بِالْحَلِفِ وَظُهُورِ الْأَمَارَاتِ، ﴿فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾[3]: فَلَا تَرُدُّوهُنَّ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ الْمُشْرِكِينَ، لِأَنَّهُ لَا حِلَّ بَيْنَ الْمُؤْمِنَةِ وَالْمُشْرِكِ.

﴿وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾[4]: وَأَعْطُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِثْلَ مَا دَفَعُوا إِلَيْهِنَّ مِنَ الْمُهُورِ، وَذَلِكَ: أَنَّ صُلْحَ الْحُدَيْبِيَةِ كَانَ عَلَى أَنَّ مَنْ أَتَاكُمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ رُدَّ إِلَيْهِمْ، وَمَنْ أَتَى مِنْكُمْ مَكَّةَ لَمْ يُرَدَّ إِلَيْكُمْ، وَكَتَبُوا بِذَلِكَ كِتَابًا وَخَتَمُوهُ، فَجَاءَتْ سُبَيْعَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْأَسْلَمِيَّةُ مُسْلِمَةً وَالنَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِالْحُدَيْبِيَةِ، فَأَقْبَلَ زَوْجُهَا مُسَافِرٌ الْمَخْزُومِيُّ .

وَقِيلَ: صَيْفِيُّ بْنُ الرَّاهِبِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ارْدُدْ عَلَيَّ امْرَأَتِي؛ فَإِنَّكَ قَدْ شَرَطْتَ لَنَا أَنْ تَرُدَّ عَلَيْنَا مَنْ أَتَاكَ مِنَّا، وَهَذِهِ طِينَةُ الْكِتَابِ لَمْ تَجِفَّ، فَنَزَلَتْ بَيَانًا لِأَنَّ الشَّرْطَ إِنَّمَا كَانَ فِي الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ.

وَعَنِ الضَّحَّاكِ: كَانَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ: أَنْ لَا تَأْتِيَكَ مِنَّا امْرَأَةٌ لَيْسَتْ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهَا إِلَيْنَا، فَإِنْ دَخَلَتْ فِي دِينِكَ وَلَهَا زَوْجٌ أَنْ تَرُدَّ عَلَى زَوْجِهَا الَّذِي أَنْفَقَ عَلَيْهَا، وَلِلنَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِنَ الشَّرْطِ مِثْلُ ذَلِكَ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: ثُمَّ نَسَخَ هَذَا الْحُكْمَ وَهَذَا الْعَهْدَ بَرَاءَةٌ، فَاسْتَحْلَفَهَا رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَحَلَفَتْ، فَأَعْطَى زَوْجَهَا مَا أَنْفَقَ وَتَزَوَّجَهَا عُمَرُ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ سَمَّى الظَّنَّ عِلْمًا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾[5]؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

قُلْتُ: إِيذَانًا بِأَنَّ الظَّنَّ الْغَالِبَ وَمَا يُفْضِي إِلَيْهِ الِاجْتِهَادُ وَالْقِيَاسُ جَارٍ مَجْرَى الْعِلْمِ، وَأَنَّ صَاحِبَهُ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[1]]الْإِسْرَاءِ: 36].

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾[2]، وَذَلِكَ مَعْلُومٌ لَا شُبْهَةَ فِيهِ؟

قُلْتُ: فَائِدَتُهُ بَيَانُ أَنْ لَا سَبِيلَ لَكُمْ إِلَى مَا تَطْمَئِنُّ بِهِ النَّفْسُ وَيَثْلُجُ بِهِ الصَّدْرُ مِنَ الْإِحَاطَةِ بِحَقِيقَةِ إِيمَانِهِنَّ. فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا اسْتَأْثَرَ بِهِ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، وَأَنَّ مَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ الِامْتِحَانُ مِنَ الْعِلْمِ كَافٍ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّ تَكْلِيفَكُمْ لَا يَعْدُوهُ، ثُمَّ نَفَى عَنْهُمُ الْجُنَاحَ فِي تَزَوُّجِ هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرَاتِ إِذَا آتَوْهُنَّ أُجُورَهُنَّ أَيْ مُهُورَهُنَّ، لِأَنَّ الْمَهْرَ أَجْرُ الْبُضْعِ.

وَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يُرَادَ بِهَا مَا كَانَ يُدْفَعُ إِلَيْهِنَّ لِيَدْفَعْنَهُ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ فَيُشْتَرَطُ فِي إِبَاحَةِ تَزَوُّجِهِنَّ تَقْدِيمُ أَدَائِهِ، وَإِمَّا أَنْ يُرَادَ أَنَّ ذَلِكَ إِذَا دُفِعَ إِلَيْهِنَّ عَلَى سَبِيلِ الْقَرْضِ ثُمَّ تَزَوَّجْنَ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بِهِ بَأْسٌ؛ وَإِمَّا أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ مَا أُعْطِيَ أَزْوَاجَهُنَّ لَا يَقُومُ مَقَامَ الْمَهْرِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إِصْدَاقٍ، وَبِهِ احْتَجَّ أَبُو حَنِيفَةَ عَلَى أَنَّ أَحَدَ الزَّوْجَيْنِ إِذَا خَرَجَ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ مُسْلِمًا أَوْ بِذِمَّةٍ، وَبَقِيَ الْآخَرُ حَرْبِيًّا: وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وَلَا يَرَى الْعُدَّةَ عَلَى الْمُهَاجِرَةِ وَيُبِيحُ نِكَاحَهَا إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَامِلًا.

﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[3] وَالْعِصْمَةُ مَا يُعْتَصَمُ بِهِ مِنْ عَقْدٍ وَسَبَبٍ، يَعْنِي: إِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُنَّ، وَلَا تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُنَّ عِصْمَةٌ وَلَا عُلْقَةٌ زَوْجِيَّةٌ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ كَافِرَةٌ بِمَكَّةَ فَلَا يَعْتَدَّنَّ بِهَا مِنْ نِسَائِهِ، لِأَنَّ اخْتِلَافَ الدَّارَيْنِ قَطَعَ عِصْمَتَهَا مِنْهُ.

وَعَنِ النَّخَعِيِّ: هِيَ الْمُسْلِمَةُ تَلْحَقُ بِدَارِ الْحَرْبِ فَتَكْفُرُ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: أَمَرَهُمْ بِطَلَاقِ الْبَاقِيَاتِ مَعَ الْكُفَّارِ وَمُفَارَقَتِهِنَّ.

﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾[4] مِنْ مُهُورِ أَزْوَاجِكُمُ اللَّاحِقَاتِ بِالْكُفَّارِ.

﴿وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾[5] مِنْ مُهُورِ نِسَائِهِمُ الْمُهَاجِرَاتِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَقُرِئَ: "وَلَا تُمْسِكُوا" بِالتَّخْفِيفِ. وَلَا تُمَسِّكُوا بِالتَّثْقِيلِ. وَلَا تَمَسَّكُوا. أَيْ: وَلَا تَتَمَسَّكُوا.

﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ﴾[1]، يَعْنِي: جَمِيعَ مَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾[2]: كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ. أَوْ حَالٌ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ عَلَى حَذْفِ الضَّمِيرِ، أَيْ: يَحْكُمُهُ اللَّهُ. أَوْ جَعَلَ الْحُكْمَ حَاكِمًا عَلَى الْمُبَالَغَةِ. رُوِيَ أَنَّهَا لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَدَّى الْمُؤْمِنُونَ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ أَدَاءِ مُهُورِ الْمُهَاجِرَاتِ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ الْمُشْرِكِينَ، وَأَبَى الْمُشْرِكُونَ أَنْ يُؤَدُّوا شَيْئًا مِنْ مُهُورِ الْكَوَافِرِ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ الْمُسْلِمِينَ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ﴾[3]: وَإِنْ سَبَقَكُمْ وَانْفَلَتَ مِنْكُمْ "شَيْءٌ" مِنْ أَزْوَاجِكُمْ: أَحَدٌ مِنْهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ.

وَهُوَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَحَدٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ لِإِيقَاعِ شَيْءٍ فِي هَذَا الْمَوْقِعِ فَائِدَةٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، الْفَائِدَةُ فِيهِ: أَنْ لَا يُغَادَرَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ وَإِنْ قَلَّ وَحَقُرَ، غَيْرَ مُعَوَّضٍ مِنْهُ تَغْلِيظًا فِي هَذَا الْحُكْمِ وَتَشْدِيدًا فِيهِ "فَعَاقَبْتُمْ" مِنَ الْعُقْبَةِ وَهِيَ النَّوْبَةُ: شَبَّهَ مَا حَكَمَ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالْكَافِرِينَ مِنْ أَدَاءِ هَؤُلَاءِ مُهُورَ نِسَاءِ أُولَئِكَ تَارَةً، وَأُولَئِكَ مُهُورَ نِسَاءِ هَؤُلَاءِ أُخْرَى بِأَمْرٍ يَتَعَاقَبُونَ فِيهِ كَمَا يُتَعَاقَبُ فِي الرُّكُوبِ وَغَيْرِهِ.

وَمَعْنَاهُ: فَجَاءَتْ عَقَبَتُكُمْ مِنْ أَدَاءِ الْمَهْرِ، فَآتُوا مَنْ فَاتَتْهُ امْرَأَتُهُ إِلَى الْكُفَّارِ مِثْلَ مَهْرِهَا مِنْ مَهْرِ الْمُهَاجِرَةِ، وَلَا تُؤْتُوهُ زَوْجَهَا الْكَافِرَ.

وَهَكَذَا عَنِ الزُّهْرِيِّ: يُعْطَى مِنْ صَدَاقِ مَنْ لَحِقَ بِهِمْ.

وَقُرِئَ: "فَأَعْقَبْتُمْ" فَعَقَّبْتُمْ بِالتَّشْدِيدِ. فَعَقَبْتُمْ بِالتَّخْفِيفِ، بِفَتْحِ الْقَافِ وَكَسْرِهَا، فَمَعْنَى أَعْقَبْتُمْ: دَخَلْتُمْ فِي الْعَقَبَةِ، وَعَقَّبْتُمْ: مِنْ عَقَبَهُ إِذَا قَفَّاهُ، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَعَاقِبَيْنِ يُقَفِّي صَاحِبَهُ، وَكَذَلِكَ عَقَبْتُمْ بِالتَّخْفِيفِ، يُقَالُ: عَقَبَهُ يَعْقِبُهُ. وَعَقِبْتُمْ نَحْوَ تَبِعْتُمْ.

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: فَعَاقَبْتُمْ: فَأَصَبْتُمُوهُمْ فِي الْقِتَالِ بِعُقُوبَةٍ حَتَّى غَنِمْتُمْ، وَالَّذِي ذَهَبَتْ زَوْجَتُهُ كَانَ يُعْطَى مِنَ الْغَنِيمَةِ الْمَهْرَ، وَفُسِّرَ غَيْرُهَا مِنَ الْقِرَاءَاتِ، فَكَانَتِ الْعُقْبَى لَكُمْ، أَيْ: فَكَانَتِ الْغَلَبَةُ لَكُمْ حَتَّى غَنِمْتُمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَقِيلَ: جَمِيعُ مَنْ لَحِقَ بِالْمُشْرِكِينَ مِنْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهَاجِرِينَ رَاجِعَةً عَنِ الْإِسْلَامِ سِتُّ نِسْوَةٍ: أُمُّ الْحَكَمِ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ، كَانَتْ تَحْتَ عِيَاضِ بْنِ شَدَّادٍ الْفِهْرِيِّ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ كَانَتْ تَحْتَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَهِيَ أُخْتُ أُمِّ سَلَمَةَ، وَبِرْوَعُ بِنْتُ عُقْبَةَ، كَانَتْ تَحْتَ شَمَّاسِ بْنِ عُثْمَانَ، وَعَبْدَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ نَضْلَةَ، وَزَوْجُهَا عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ، وَهِنْدُ بِنْتُ أَبِي جَهْلٍ، كَانَتْ تَحْتَ هِشَامِ بْنِ الْعَاصِ. وَكُلْثُومُ بِنْتُ جَرْوَلٍ كَانَتْ تَحْتَ عُمَرَ، فَأَعْطَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مُهُورَ نِسَائِهِمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]

﴿وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ﴾[2]، وَقُرِئَ: "يُقَتِّلْنَ"، بِالتَّشْدِيدِ، يُرِيدُ: وَأْدَ الْبَنَاتِ؛ ﴿وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾[3] كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَلْتَقِطُ الْمَوْلُودَ، فَتَقُولُ لِزَوْجِهَا: هُوَ وَلَدِي مِنْكَ. كَنَّى بِالْبُهْتَانِ الْمُفْتَرَى بَيْنَ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا عَنِ الْوَلَدِ الَّذِي تُلْصِقُهُ بِزَوْجِهَا كَذِبًا، لِأَنَّ بَطْنَهَا الَّذِي تَحْمِلُهُ فِيهِ بَيْنَ الْيَدَيْنِ وَفَرْجَهَا الَّذِي تَلِدُهُ بِهِ بَيْنَ الرِّجْلَيْنِ.

﴿وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾[4]: فِيمَا تَأْمُرُهُنَّ بِهِ مِنَ الْمُحَسَّنَاتِ وَتَنْهَاهُنَّ عَنْهُ مِنَ الْمُقَبَّحَاتِ. وَقِيلَ: كُلُّ مَا وَافَقَ طَاعَةَ اللَّهِ فَهُوَ مَعْرُوفٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: لَوِ اقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلا يَعْصِينَكَ﴾[5]، فَقَدْ عُلِمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِمَعْرُوفٍ؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

قُلْتُ: نَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ طَاعَةَ الْمَخْلُوقِ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ جَدِيرَةٌ بِغَايَةِ التَّوَقِّي وَالِاجْتِنَابِ.

وَرُوِيَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا فَرَغَ يَوْمَ فَتْحِمَكَّةَ مِنْ بَيْعَةِ الرِّجَالِ: أَخَذَ فِي بَيْعَةِ النِّسَاءِ وَهُوَ عَلَى الصَّفَا وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَسْفَلَ مِنْهُ يُبَايِعُهُنَّ بِأَمْرِهِ وَيُبَلِّغُهُنَّ عَنْهُ، وَهِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ امْرَأَةُ أَبِي سُفْيَانَ مُتَقَنِّعَةٌ مُتَنَكِّرَةٌ خَوْفًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يَعْرِفَهَا فَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: "أُبَايِعُكُنَّ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا. فَرَفَعَتْ هِنْدٌ رَأْسَهَا وَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَقَدْ عَبَدْنَا الْأَصْنَامَ وَإِنَّكَ لَتَأْخُذُ عَلَيْنَا أَمْرًا مَا رَأَيْنَاكَ أَخَذْتَهُ عَلَى الرِّجَالِ؛ تُبَايِعُ الرِّجَالَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْجِهَادِ، فَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: وَ"لَا يَسْرِقْنَ"، فَقَالَتْ: إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْ مَالِهِ هَنَاتٍ، فَمَا أَدْرِي، أَتَحِلُّ لِي أَمْ لَا. فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: مَا أَصَبْتِ مِنْ شَيْءٍ فِيمَا مَضَى وَفِيمَا غَبَرَ فَهُوَ لَكِ حَلَالٌ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَعَرَفَهَا، فَقَالَ لَهَا: وَإِنَّكِ لَهِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. فَاعْفُ عَمَّا سَلَفَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ، فَقَالَ: "وَلَا يَزْنِينَ": فَقَالَتْ: أَوَ تَزْنِي الْحُرَّةُ؟! وَفِي رِوَايَةٍ: مَا زَنَتْ مِنْهُنَّ امْرَأَةٌ قَطُّ، فَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: "وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ" فَقَالَتْ: رَبَّيْنَاهُمْ صِغَارًا وَقَتَلْتَهُمْ كِبَارًا. فَأَنْتُمْ وَهُمْ أَعْلَمُ، وَكَانَ ابْنُهَا حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ قَدْ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَضَحِكَ عُمَرُ حَتَّى اسْتَلْقَى، وَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: "لَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ" فَقَالَتْ: وَاللَّهِ إِنَّ الْبُهْتَانَ لَأَمْرٌ قَبِيحٌ، وَمَا تَأْمُرُنَا إِلَّا بِالرَّشَدِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، فَقَالَ: "وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ" فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا جَلَسْنَا مَجْلِسَنَا هَذَا وَفِي أَنْفُسِنَا أَنْ نَعْصِيَكَ فِي شَيْءٍ.

وَقِيلَ فِي كَيْفِيَّةِ الْمُبَايَعَةِ: دَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ فَغَمَسَ فِيهِ يَدَهُ، ثُمَّ غَمَسْنَ أَيْدِيَهُنَّ. وَقِيلَ: صَافَحَهُنَّ وَكَانَ عَلَى يَدِهِ ثَوْبٌ قَطَرِيٌّ. وَقِيلَ: كَانَ عُمَرُ يُصَافِحُهُنَّ عَنْهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾[1]

[1] سورة ، الآية .

رُوِيَ أَنَّ بَعْضَ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يُوَاصِلُونَ الْيَهُودَ لِيُصِيبُوا مِنْ ثِمَارِهِمْ. فَقِيلَ لَهُمْ: ﴿لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا﴾[1] مَغْضُوبًا عَلَيْهِمْ ﴿قَدْ يَئِسُوا﴾[2] مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ حَظٌّ فِي الْآخِرَةِ لِعِنَادِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الرَّسُولُ الْمَنْعُوتُ فِي التَّوْرَاةِ، ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ﴾[3] مِنْ مَوْتَاهُمْ أَنْ يُبْعَثُوا وَيَرْجِعُوا أَحْيَاءً.

وَقِيلَ: ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾[4]: بَيَانٌ لِلْكُفَّارِ، أَيْ: كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ قُبِرُوا مِنْ خَيْرِ الْآخِرَةِ، لِأَنَّهُمْ تَبَيَّنُوا قُبْحَ حَالِهِمْ وَسُوءَ مُنْقَلَبِهِمْ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُمْتَحَنَةِ كَانَ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

مَـَوَا ـِ ا كَـَاب

مَـوَا ـِ ٱكَاب

كتاب تفسير الكشّاف

الجزء السّابع عشر 19 – 52

محتويات الكتاب 61 – 64

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 – المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر: 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك: 978-9938-02-070-6

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع